الرعاع

محمد زكريا

إهداء

إلى كل حر رفض القيد وذل العبودية

وتمسك بالحرية لأخر أيام حياته

الرعاع لغويًا

الرعاع كالزجاج من الناس وهم الرزّل الضعفاء وهم الذين إذا فزعوا طاروا،
ويقال للنعامة رعّاعة لأنها دائمًا كأنها منخوبة فزعة وإذا خافت دفنت رأسها في الرمال.
والرعرعة اضطراب الماء الصافي بعد هدوئه ورعاع الناس هم غوغائِهم وسقّاطهم والرّعّ السكون....

هؤلاء الذين فشلوا في تعلم دروس الماضي
ملعونون بتكرار أخطائهم.

1

كانت الشمس في كبد السماء تحرق وجهه ويتساقط عرقه على جبهته بغزارة ويتمزق حلقه عطشًا، وتساءل في نفسه؟ من الذي يأتي بشربة ماء لشاب في لهيب هذه الصحراء القاحلة؟
كان قد قطع شوطًا فيها قبل أن يسقط على الأرض وقد خارت قواه.
التصقت الرمال بوجهه وقد بدأت عيناه في الانغلاق وهو ينظر لقرص الشمس الأصفر المقيت وحرارته الحارقة التي ستودي بحياته بعد قليل هكذا تخيل.
بدأ الشاب يسمع صوت ضربات قلبه التي أخذت في التباطؤ وصوت أنفاسه التي كادت أن تنقطع وقد بدا عليه الإعياء الشديد، وبرغم ما هو فيه من تعب ونصب وبرغم أن الموت هو أقرب إليه من أي شيء آخر إلا أنه لم ييأس.
ارتكز على يديه ووقف مرة أخرى وبدأ يسير بخطوات ثقيلة يلتمس مساعدة أي إنسان.
نظر حوله فلم يجد إلا رمال الصحراء الصفراء الساخنة والسماء التي لا يكاد يراها من شدة ضوء الشمس التي بدت في نظره ليست كأي شمسٍ عادية كالتي يراها كل يوم في الصباح حتى تغيب، ولمَ لا؟ وقد كان ينعم في ضوئها بالماء البارد والطعام اللذيذ والظل..الظل أين هو هذا الظل؟هكذا تحدث في نفسه وتسائل ما هذه الصحراء اللعينة التي لا ينبت فيها حتى نبات الصبار؟ أليست هناك شجرة ما خرجت كنبت شيطاني أستظل بظلها حتى أموت؟ يعلم أنه لا مفر من الموت ولو بعد حين، فلا بأس أبدًا أن يموت الشاب في ظل شجرة أو يموت بعد أن يتجرع كأسًا من الماء البارد، وبعد قليل من الوقت سقط أرضًا مرة أخرى وقد غاب عن الوعي،
وهو ملقى على الرمال كخرقة بالية سمع صوت حركة، شيء ما يتحرك فيصدر أصوات ارتطام كأنها عربة محملة بأشياء ترتطم بها فتصدر هذه الأصوات تبعها صوت نهيق حمار، ولكنه لم يستطع أن يتحرك قيد أنملة، كل ما استطاع أن يفعله هو أن يحرك أصابعه حركة خفيفة تشبه الارتعاشة أكثر منها حركة قد يراها صاحب هذا الحمار ولكنه خُيل إليه أنه بهذه الحركة التي ربما لا يراها العنكبوت الذي يسري على يديه الآن ولا يستطيع طرده أن الرجل صاحب مصدر الصوت سيراها
وربما كان محقًا فبعد قليل من الوقت توقفت عربة خشبية بالية ذات صندوق صغير يُحمل فيه بعد الأغراض يجرها حمار أنهكه العمل وقُطعت إحدى أذنيه أمام الشاب،

وترجل منها رجل طويل متوسط العرض في الخمسين من عمره ذو شارب ليس بالكثيف وليس بالخفيف ملامحه تبدو طيبة للوهلة الأولى يرتدي جلبابًا نظيفًا ويلف عصابة على رأسه، ذهب مباشرة وبلهفة نحو الشاب تأمله قليلًا ثم تحسس جبهته ووضع أذنه على صدره وعندما وجد نبضًا - وإن كان ضعيفًا- تحرك نحو العربة مرة أخرى وفتح صندوقها فأخرج منه زجاجة ماء لف حولها بذكاء خرقة مبللة بالماء ورغم أنها جفت من حرارة الجو فإنها جعلت الماء في الزجاجة باردًا بعض الشيء، حملها وتوجه نحو الشاب أسنده بحرص ثم فتح الزجاجة وبحرص مد يده وفتح شفتيه التي تحجرتا وسكب إلى جوفه بضع قطرات قليلة من الماء ثم سكب بعض الماء في يده ووضعه على وجه الشاب وعلى رأسه.
أغلق الزجاجة مرة أخرى وحملها إلى الصندوق ثم عاد وحمل الشاب فوق عربته وهو يتحسس جبهته كل فترة من الوقت.
تحركت العربة في الصحراء لوقت طويل وبدأ الشاب يستعيد عافيته وعندما فتح عينيه وجد السماء أمامه وكان ملقى على ظهره وقد انطفأت حدة الشمس وكادت أن تغيب وبرغم أنه شعر ببعض النشاط في بدنه إلا أنه أحس أن حلقه أوشك أن يتمزق وأحس أنه يريد المزيد من الماء.
استند على طرف العربة حتى جلس وقبل أن يطلب الماء وجد صاحب العربة يمد يده بالماء دون أن يلتفت إليه، ظل منهمكًا في قيادة حماره وما أن رأى الماء حتى خطفه بيد مرتعشة وبيد مرتعشة أيضًا ظل يتجرع الماء حتى نفد ولكنه لم يرتوِ بالقدر الكاف وقال بصوت هامس:
- أريد المزيد من الماء.
وهنا قال الرجل بهدوء:
- أوشكنا على الوصول.
دبت الحياة في وجه الشاب وأحس أن عقله بدأ يعمل مرة أخرى بعد أن توقف لفترة وقال وقد بدا عليه أنه غير عابئ بالسؤال الذي طرحه:
- إلى أين؟
وهنا أجابه الرجل صاحب الحمار وقد ظهرت بوابات عملاقة وسور ضخم أمامهما
- إلى المملكة.
كانت البوابات ضخمةً بشكل غير معقول صُنعت من الحديد والأسوار عالية لدرجة لا تصدق حيث يستحيل أن يتسلق هذا السور إنسان سواء من الداخل أو من الخارج، توقفت العربة أمام البوابة فوقف رجل كان يجلس على منضدة خشبية أمام البوابة ويحمل سيفًا ويرتدي ملابس عسكرية ونظر للرجل صاحب العربة وقال:
- لماذا تأخرت إلى هذه الساعة يا قاسم ألا تعلم أني أستطيع أن أمنعك من الدخول الآن وتبيت في الصحراء!
نزل قاسم من فوق العربة وفتح الدرج وأخذ يعبث بداخله حتى أخرج تفاحة حمراء يتقطر منها حبات الماء والتفت نحو الجندي وقد بدت ابتسامة في عينيه لم تصدقها شفتيه، نظر حوله ثم قدمها للجندي قائلًا:
- جئت بها من القصر لك فإياك ثم إياك أن تخبر مخلوقًا.

نظر الجندي للتفاحة وقد بدا عليه أنه لم يرَ تفاحًا من قبل فقد اتسعت عيناه وتثبتت نحو التفاحة وكأن العالم كله اختفى من أمام عينه ولم يسأل قاسم عن الشاب الذي يحمله معه ولا عن أي شيء آخر يحمله قاسم معه في الصندوق فقط توجه نحو البوابة ونادى في أحدهم وهولا يزال ينظر إلى التفاحة ففُتحت البوابة من الداخل ببطء، وذلك لأنه لا يمكن فتح البوابة من الخارج، دخل الرجلان والحمار إلى المملكة قبل غروب الشمس بقليل.

مدخل المملكة شوارعه نظيفة ورائحته ذكية، هناك تمثال كبير لرجل في المدخل يحمل سيفًا وتبدو عليه هيبة وفي عينيه شرر ونافورة ماء حول التمثال وكان الناس لايزالون منتشرين في الشوارع، الشوارع خالية من الأطفال، المارة قليلون صامتون وملابسهم تدل على الترف ولا يوجد أي حوار بينهم، ظل الشاب صامتًا طوال الوقت يراقب فقط كل ما يراه ولا يعلق بأي شيء، تأمل وجوه الناس فلم يرَ إلا بؤسًا وعبوسًا وساد الصمت لبعض الوقت حتى اخترق الصمتَ صوتُ ضحكة عالية يدوي صداها في المكان كله، ضحكة لا تنقطع ضحكة تبدو كأنها لشخص مجنون ذهب عقله وكلما سارت العربة اقترب الصوت وعلت الضحكة أكثر وأكثر حتى اقتربوا من تجمع كبير، أوقف قاسم العربة أمام التجمع وأخذ يتأمل المنظر قليلًا قبل أن ينزل نحو التجمع حتى غاب عن نظر الرجل.

الناس ملتفون في دائرة واسعة لا يرى الشاب وهو على العربة منها شيئًا ويخترق أذنه صوت الرجل الذي يضحك بجنون لم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك فوقف فوق العربة ليرى رجلًا مقيدًا بحبل سميك من يديه حتى قدمه جاثيًا على ركبتيه وتنطلق منه ضحكات عالية لا تنقطع، ضحكة تثير الضحك ويقف على رأسه رجل ضخم الجثة عاري الصدر يرتدي غطاء على وجهه فلا يرى أحد منه شيئًا ويحمل سيفاً كبيراً، صوت همهمات الناس بدأ يعلو قليلًا ولم يفهم الشاب أي شيء مما يحدث ولكن صمتًا مطبقًا ساد على الجميع إلا من صوت ضحكة الرجل العالية حينما رفع السياف سيفه إلى السماء مستعدًا ليهوي على الرجل الذي يضحك، توقف السيف قليلًا في الهواء قبل أن يسقط على رأس الرجل ليفصلها عن جسده لتتدحرج على الأرض وما زالت الابتسامة تعلو على شفتي الرأس حتى غابت بعد لحظات وهنا ساد صمت رهيب ونظرات أسى وألم على وجوه الخلق، لم يقطع الصمت إلا صوت قاسم عائدًا إلى العربة وهو يضع يده على الحمار موجهًا حديثه إليه:

- أنت أذكى من هذا الحمار الذي قُطعت رأسه قبل قليل.

ثم قفز على العربة وأكمل طريقه، جلس الشاب مرة أخرى وكان يريد أن يسأل عن عن الرجل الذي يضحك ما جريمته لتقطع رأسه ولماذا كان يضحك؟ ولكنه آثر الصمت فقد كان من الإعياء بمكان وكاد يفتك به الجوع والعطش، واستغرب الشاب كيف تبدلت المملكة ذات الشوارع النظيفة والروائح الذكية عند مدخلها إلى مكان آخر؛ شوارع مكتظة بالأطفال الذين يرتدون الملابس البالية أصحاب الوجوه البريئة المتسخة وأغلبهم جالسون في أزقة الحارات وعلى نواصي الشوارع وأمام بيوتهم صامتون يتأملون وجوه الناس ووجوه بعضهم في أسى وحزن تنتشرالروائح الكريهة في المكان وتمتلئ الوجوه بالكآبة والعبوس وتتكدس البيوت البسيطة بجانب بعضها

في حزن، وفي مدخل هذه العشوائية المتكدسة وعلى لافتة صغيرة صُنعت من الحديد ملأها الصدأ قرأ الشاب بصعوبة: (الرعاع)
زاد فضوله واتسعت عيناه ولم يفهم أو أنه خاف أن يفهم وقاطع تأمله قاسم وهو لا يزال منهمكًا في قيادة الحمار:
- أين بيتك يا رجل الصحراء فأنا أريد أن أذهب لبيتي ثم كيف استطعت أن تخرج؟
اندهش الشاب من كلام قاسم وقال:
- أي بيت؟ أنا لا أمتلك هنا بيوت.
وهنا شد قاسم زمام حماره بقوة والتفت إلى الشاب وفي عينيه تساؤل وغرابة:
- انتظر! ليس لك هنا بيت؟ أنت لست من ساكني هذه المملكة؟
قال الشاب وقد أخافته نظرات قاسم:
لا لست من ساكني هذه المملكة فقد كنت أسير ومعي أصدقائي.
قاطعه قاسم قبل أن يكمل حديثه قائلًا:
- لقد جنيت عليك يا رجل الصحراء دون أن أقصد.
- جنيت عليَّ! وكيف ذلك؟
ضرب قاسم الحمار بقوة فتحرك إلى الأمام وهو يقول:
- يبدو أني لن أذهب إلى بيتي الآن.
وفي مكان يبدو كأنه سوق جلس الشاب وحيدًا على العربة ينتظر قاسم الذي ذهب ليجلب بعض الطعام ويأتي بالماء وقد أقبل الليل ودخل الخوف إلى قلبه وبعد مرور بعض الوقت جاء قاسم يحمل في يده الطعام والماء ووضعه أمامه وسرعان ما امتدت يده يأكل بنهم شديد وشاركه قاسم الطعام وكان فم قاسم ممتلئًا بالطعام وهو يقول للشاب:
- أنت لم تقل لي ماهو اسمك؟
بلع الطعام الذي كان في فمه بصعوبة قبل أن يقول بصوت متحشرج:
- ثائر.. اسمي ثائر.
قال قاسم وهو لا يزال يلوك الطعام في فمه وينظر في عيني ثائر
- ومن أين أنت يا ثائر؟ وما الذي أتى بك إلى هذه الصحراء؟
أنا من مدينة تبعد عن هنا آلاف الأميال اعتدت أنا وصديقايَ الترحال وزيارة بلاد العالم خرجنا منذ سنة من مدينتنا إلى الصين ومكثنا فيها شهرًا ثم إلى الهند وبلاد أخرى وعندما دخلنا إلى هذه الصحراء اللعينة خرج علينا قطاع طرق وسرقوا طعامنا وشرابنا وأمتعتنا ثم حملونا معهم إلا أنني استطعت أن أهرب منهم في الليل حتى وجدتني أنت في الصحراء هائمًا على وجهي مقبلًا على الموت.
تناول قاسم قطعة أخرى من خبز كان أمامه وقال بفم ممتلئ:
- لابد أنهم رجال خادع أعلى الله من شأنه وزاده هيبة وحكمة:
قال ثائر بشيء من اللهفة:
- أنت تعلم من خطف صديقيَّ، هل تستطيع أن تساعدني في أن أجدهم؟
قال قاسم:
- انسَ أمرهما إلى الأبد أغلب الظن أنهم قُتلا.

وهنا أقدم رجل متوسط الطول ذو جسد نحيف في الثلاثين من عمره يبدو عليه الوقار والحكمة برغم ملابسه البسيطة، اقترب منهما وما أن رأه قاسم حتى نفض يده من الطعام وقال له:
- ها هو الرجل الذي أخبرتك عنه.
نظر ثائر إلى قاسم ولم يفهم ماذا يحدث وأمسك قاسم بزمام حماره وقبل أن يرحل اقترب من ثائر وقال:
- تترك كل مدن العالم وممالك الدنيا وتأتي إلى هنا؟
ثم قفز فوق العربة وغادر من فوره.
وبعد لحظات صمت ونظرات ثائر لقاسم الذي بدأ يختفي في الظلام
نظرالرجل لثائر ومد يده مصافحًا إياه بقوة قائلًا:
- مرحبًا أنا مخلص، أعلم أنك في حيرة من أمرك وفي ذهنك عشرات الأسئلة اطمئن سأخبرك بكل شيء ولكن هناك أمرًا واحدًا لا يجب فعله أبدًا في العلن
اقترب مخلص من ثائر وقال بهمس:
- لا تحاول أن تضحك مهما اضطرتك الظروف.

وقف الحارس عند رأس الملك يحاول إيقاظه من نومه وكان يرتعد خائفًا من ردة فعل الملك حينما يستيقظ وخاصة في هذه الساعة المتأخرة من الليل ولكنها أوامر الوزير ولا مناص من تنفيذها وكان الملك في هذه الليلة قد شرب الكثير من أقداح الخمر احتفالًا بيوم ميلاده لذلك كان في شبه غيبوبة لا يحس بهزات الحارس له ولا نداءاته عليه ولما كاد أن يذهب الحارس يائسًا من إيقاظ الملك لمح عينيه وهي تتفتح ببطء ورمقه الملك بنظرة غاضبة وأمسك يديه في غيظ جعله ذلك الأمر يقول في تلعثم
- واحد من الرعاع مُصر على إيقاظك لإخبارك بشيء خطر رفض ذكره والوزير خشخاش هو من أمرني بإيقاظك.
ظل الملك ممسكًا يده لفترة حتى استوعب الكلمات وقام مترنحًا مستندًا على حوائط الغرفة حتى خرج إلى صالة القصر ولما رآه الرجل قال مباشرة:
- لقد علمت يا سيدي أن قبيلة الرعاع مقدمة على أمر خطير.
أشار له الملك بيديه ليصمت ثم توجه بخطوات ثقيلة نحو كرسي أمامه منضدة عليها زجاجة خمر أمسك الزجاجة ورفعها وتجرع نصفها ثم مسح فمه بيده وقال:
- من أي قبيلة أنت يا رجل؟
طأطأ الرجل رأسه وقال وعلى وجهه ابتسامة خبيثة:
- من قبيلة الرعاع يا مولاي؟
فانفجر الملك ضاحكًا وهو يقول:
- ونعم الإخلاص يا رجل كم يعجبني إخلاصك.
وأكمل الملك:
- وما هو اسمك أيها المخلص؟
فقال الرجل:
- اسمي خادع.
قال الملك:
- خادع؟
وأكمل ضاحكًا:
- اسمك واضح يا رجل لابد أن تغيره فسيعلم الناس هكذا أنك تخدعهم.
طأطأ خادع رأسه وهو يردف:
- إنه الاسم الذي اختاره لي أبي ولذلك قصة.
وقبل أن يسهب قاطعه الملك:
- وما الأمر الخطير الذي ستفعله قبيلتك، لن يدفعوا الضرائب هذا العام؟

- لا يا سيدي لقد قرروا أمرًا آخر.
فحمل الملك زجاجة الخمر إلى فمه وهو يتجشأ قائلًا:
- ماذا هم فاعلون إذن؟ سيأكلون بعضهم؟
وأنزل الزجاجة من فمه وظل يضحك حتى قال خادع:
- بل سيرحلون عن بكرة أبيهم.

وهنا اختفت ضحكة الملك وتأمل خادع قليلًا حتى قال:
- كيف سيرحلون؟
- سيرحلون جميعهم كبيرهم وصغيرهم، النساء والأطفال.
ومتى سيفعلون؟
- الليلة وربما قد فعلوا.
وقف الملك ونادى حراسه بأعلى صوته فأتوا جميعًا وقد بدت عليهم الربكة:
- اجمعوا لي كل الوزراء والأعيان.
فقال كبير الحرس:
- الآن يا مولاي!
فضرب الملك على المنضدة وهو يقول:
- الآن أيها الأحمق.
فأسرع الحراس ينتشرون حول بيوت الأعيان والوزراء.
وهنا أشار الملك ناحية خادع وهو يقول:
- اذهب الآن إليهم وحاول أن تثنيهم عن رأيهم أو على الأقل أن تأخرهم حتى أجمع شتات أمري وسوف أبذل لك عطاءً كثيرًا وأقربك مني.

غادر خادع ناحية قومه منتشيًا من وعد الملك.
وبعد مرور بعض الوقت كان الملك قد بدل ملابسه بملابس عسكرية بينما التف كل وزرائه والأعيان حوله بملابسهم الحريرية يستمعون إلى كلام الملك وبعد أن فرغ من حديثه سألهم:
- ماذا ترون؟
فقام أحدهم وقد بدا عليه أنه لم يستيقظ من نومه بعد وعلى شفتيه ابتسامة سخرية
- أنا لا أرى أن الأمر خطير إلى هذا الحد فليرحلوا أينما شاءوا ولن نتأثر نحن برحيلهم في شيء، ثم هل يعقل أن ترحل قبيلة من آلاف البشر هذه وشاية غير دقيقة ستجد أن بعضهم قرر الرحيل وليس كل القبيلة.

احمر وجه الملك وظهر عليه غضب شديد وقام من كرسيه نحو الرجل ووقف عنده وقد تعلقت ابتسامة على شفتيه ثم مد يده على منضدة عليها طبق فاكهة كبير والتقط قطعة خشب صغيرة من طرف المنضدة المصنوعة من الخشب ثم غمسها في يد الرجل بهدوء فخرجت قطرة دم واحدة نظر لها الرجل ولم ينبس ببنت شفة فقال الملك:
- أترى يا صديقي هذه الضربة الصغيرة؟أتظنها تقتلك؟
بلع الرجل ريقه قبل أن يقول بابتسامة مزيفة:
- لا أظنها تفعل يا سيدي إنها قطعة صغيرة ربما تجرح لكنها لا تقتل.
فربت الملك على كتفه وهو يلتف حوله وقد ضرب صالة القصر العملاقة صمت مطبق.
- أنت محق إنها مجرد قطعة صغيرة، ماذا عن ضربة أخرى؟

وضربه المك في ذراعه بقوة فتألم الرجل وهو يقول:
- ربما هذه مؤلمة أكثر ولكنها لا تقتل يا سيدي.
فقال الملك:
- عظيم، وماذا عن هذه
وضربه ضربة أخرى وهو يضغط على أسنانه من الغيظ في وجهه بجانب عينه اليمنى فنزل خيط من الدم على وجه الرجل الأبيض اعتدل الجمع في جلسته وقد دب فيهم خوف وحذر.

- وهذه وهذه وهذه
وظل الملك يضرب الرجل بقوة في كل أنحاء جسده ضربات قوية والرجل مستسلم وغير مصدق حتى وقعت آخر ضرباته في رقبة الرجل والملك يضغط بغل على رقبته حتى خر الرجل مغشيًا عليه عند قدم الملك.

رفع الملك رأسه نحو الجميع وقد اعتدلوا في جلستهم وتغيرت وجوههم وظهرت الجدية عليهم وقد كانت هناك بضع قطرات دم على لحية الملك الكثيفة توجه الملك نحو عرشه وجلس عليه وقد بدا عليه إعياء شديد وقال:
- اجمعوا الجيش وأبيدوهم جميعًا رجالهم ونساءهم حتى الأطفال لا تتركوا شيئًا يتنفس في قبيلة الرعاع قبل أن يأتي الصباح يكون هذا الأمر قد تم ليصبحوا عبرة لباقي المملكة وسأخرج بنفسي على رأس الجيش.

نظربعضهم لبعضٍ ولم يصدقوا ما ينتويه الملك وظلوا صامتين حتى قال الملك بصوت ارتج له القصر كله:
- هيا
فانتفض الجمع واقفين مرتبكين وانتشروا نحو أشغالهم وجمعوا الجيش الذي اصطف أمام باب القصر وحمل سيوفًا وحِرابًا مسنونة وجاهزة لاقتلاع الرقاب وكان الملك على رأسه يركب فرسه وبجانبه خشخاش قائد الجند ووزير الضرائب وبعد مرور بعض الوقت تحرك الجيش في جنح الليل وسكونه نحو قبيلة الرعاع.

قبل ذلك بأيام

في جنح الليل المظلم وبعد أن خلد سكان المدينة إلى النوم اجتمع أربعة رجال من قبيلة الرعاع في بيت صادق يتباحثون في أمور قبيلتهم والعقبات التي أمامهم
وكانت قبيلة الرعاع تتكون من أربعة عائلات من أصل واحد ونظام القبيلة ينص على أن يكون لكل عائلة رجل يتحدث نيابة عنهم ويتخذ القرارات بعد الرجوع إلى رجال عائلته.
قال صادق بصوت عال:
- الذي نحن بصدده الآن هو ظلم بيّن ولم نصل لما نحن فيه الآن إلا بخضوعنا وسكوتنا.
فقاطعه راضي وهو يشير بيده نحو فمه وينظر حوله:
- اخفض صوتك يا صادق أتريد أن تقتلنا يا رجل.
نفخ صادق وضرب كف بكف وهو يقول:
- لم نبدأ بعد وأظهر راضي خوفه ورعبه من البداية..إذن كيف سأكمل؟
ضحك قاسم وهو يقول:
- لا تشغل بالك براضي وما يقوله ولكن مِن الحكمة أن تخفض صوتك فبصاصو الملك ينتشرون في المملكة حتى في الليل وبعد ذلك كلنا آذان صاغية:
هدأ صادق وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول بهدوء:
- استبدَّ هذا الملك أيما استبداد وقتل منا كيفما شاء وجاع أطفالنا وترملت نساء القبيلة ولو نظرنا لباقي القبائل الأخرى لما وجدت من أتى عليهم الملك ورجاله مثل ما أتى علينا.
وهنا قال خادع:
- أولست أنت وعائلتك السبب في ذلك أخذت تبث فيهم سمومك وأوهامك عن الحرية والمساواة وعدم السكوت عن الظلم حتى كدت تُبيدنا جميعًا.
فانتفض صادق واقفًا وهو يقول:
- سواء قتلت وأنت تقول كلمة الحق أو قتلت جوعًا فكلاهما موت ولكن الفارق كبير يا خادع إن كنت لا تعلم.
- الفارق كبير؟عن أي فارق تتحدث لو لم تفعل ما فعلت في السابق لكانت قبيلتنا على عهدها السابق ولكنك متهور وترى الأمور بمنظورك أنت فقط.
فقاطعة صادق:
- وأنت ترى الأمور بمنظور آخر لا أعلمه لاعجب أن عائلتك لا يزال بها الكثير من الرجال مقارنة بالعائلات الأخرى ربما هناك خطب ما لا أعلمه.
وهنا وقف قاسم وبحكمة لا تخلوا من العبث قال:

- يا رجال القبيلة لقد جئنا هنا لنتفق لا لنختلف لو تشاجرنا الآن فمن سيطعم أطفال القبيلة ومن سيجد المخرج لمعضلتنا غيرنا..أرجو أن نهدأ ونترك الجدال لوقت آخر تكون الأمور فيه على غير ما هي عليه الآن.
جلس صادق وقد بدت عليه علامات الرضا من كلام قاسم ثم قال:
- أنا ليس بيني وبين خادع خصومة ولن يكون أنا خصومتي مع الملك وحاشيته أما خادع فهو أخي مهما اختلفت أراؤنا.
ورغم كلام صادق الودود إلا أن نظرات خادع لم تتبدل واستمرت عيناه في رمق صادق بغل حتى أجمع صادق شتاته وقال:
- بعد أن مررنا بكل هذا الظلم وبعد أن حاولنا وحاولنا ولم يفلح شيء لم يبقَ إلا أمر واحد وهو وإن كان أمرًا صعبًا إلا أنه لم يعد هناك حل آخر غيره
ساد الصمت على الجميع وتبادلوا النظرات حتى قال صادق
- سنغادر المملكة إلى مكان آخر!
انتفض خادع واقفًا بينما شغر راضي فِيه وهو يندب بصوت ضعيف
- قُتلت يا راضي ذُقت الموت يا راضي
بينما أخذ قاسم يعبث في لحيته مفكرًا لبعض الوقت وتأمل خادع وجوه الثلاثة قبل أن يقول:
- لم يكن عندي شك أن صادق هذا سيقتل ما تبقى من أفراد القبيلة بأفكاره المسمومة
وهنا انتفض صادق في غيظ وأمسك بيد خادع بقوة فآلمه وكان صادق قوي البنية حامي الطبع مهابًا في القبيلة وقال بصوت حاد أخاف الجميع:
- الآن لجلس واستمع جيدًا لما أقوله ولتستمعوا جميعًا.
راقب الجميع الغلظة التي خاطب بها صادق خادع ولمسوا رعبًا في قلب خادع لذا التزموا الصمت جميعًا وكان أول الصامتين خادع.
قال صادق:
- هذا الملك المعتوه قتل منا مئات الرجال ومن القبائل الأخرى أيضًا، يمتلك جيشًا قويًا لا قبل لنا به وقد حاولنا في السابق الثورة على الظلم الذي يحدثه فينا وكان يقتل من يثور ويقتل من يعترض ضاربًا بكل القيم الإنسانية عرض الحائط وفرض الضرائب تلو الضرائب وسيظل يفعل حتى يُبيدنا جميعًا سواء بالقتل المباشر أو بالقتل البطيئ!
من مِنا سيتحمل أن يقتل ولده جوعًا أو تغتصب زوجته من قبل رجال الملك ولو استسلمنا وصمتنا كما يرى خادع ألن نموت جوعًا وكمدًا؟
ظل الصمت قائمًا ربما هو صمت الاقتناع فأكمل صادق كلامه قائلًا
- من يرى منكم حلًا آخر غير الرحيل؟ أنا مستعد لأن أسمع..
بل من منكم يمتلك حتى ربع الضرائب القادمة بعد عشرة أيام من الآن باستثناء خادع ولو امتلكتم الربع وسلمتموه للملك فبأي شيء ستطعمون أطفالكم باقية الأيام ولو امتلكتم كل الضرائب وامتلكتم ما تطعمون به أطفالكم، ماذا عن باقي أطفال القبيلة، ونسائها اللاتي مات عنهن أزواجهن من سيطعمهن وأطفالهن؟ الأمر لا يحتمل عناء التفكير ولكن نحن الأربعة رءوس القبيلة والمسئولون عن سلامتها والأمر بأيدينا.

قال قاسم الذي كان يستمع بعناية ويفكر:
- ماذا لو افترضنا جدلًا أننا وافقنا على الرحيل فكيف ذلك كيف تخرج قبيلة كاملة بنسائها ورجالها وأطفالها من المملكة وهل سيسمح الملك بذلك؟
وقبل أن يجيب صادق قاطعه راضي:
- الملك سيبيدنا جميعًا وسيبدأ بي أنا أعلم كم أنا منحوس كل ما أريده أن أموت على سريري في التسعين من عمري هل هذا كثير؟
ابتسم صادق وهو يقول:
- أنا أعرض عليك يا راضي هذا العرض. ربما لو نفذنا ما في عقلي من خطة لمت على سريرك في التسعين من العمر بعد أن تودعنا جميعًا وقبل أن أفصح عن خطتي للرحيل لابد أن أعرف أولاً هل وافقتم على فكرة الرحيل من حيث المبدأ؟

كان قاسم قد فكر وأيقن أنه لا مفر من الرحيل وأنه ليس هناك حل آخر لينجوا بحياتهم إلا هذا وكان قاسم ذكيًا بالفطرة دائمًا ما يزن الأمور بعقلانية وترجح عنده كافة العقل وعقله دائمًا مع ما تؤول إليه مصالحه الشخصية لذا قرر وبذكاء أن يحول دفة الأمور إلى رأي صادق لذلك قال:
- ليس هناك حل إلا الرحيل لو أردنا أن نحتفظ برقابنا على أكتافنا

بلع راضي ريقه وهو يحدث نفسه في خوف ما بال الجميع يريدون أن يقتلعوا رقبتي وقال بعد أن تأثر بكلام قاسم:
- أنا أوافق على الرحيل والله هو الحافظ
نظر الجميع لخادع الذي بدا عليه الغيظ والحنق وقد اشتد غيظه بعد أن وافق راضي وقاسم على مقترح صادق وقد كان خادع يُكن لصادق كرهًا ليس كمثله كره ولم يكن يحب زعامته التي أُعطت له من دون أن يطلبها لذلك قال:
- وماذا لو رفضت الآن فأنتم ثلاثة أفراد وأنا بمفردي ولن يغير رأيي من شيء
ولكن ما أود أن أقوله أننا سنذبح على أطراف المملكة لو فكرنا في الخروج
قاطعه صادق قائلًا:
- هذا لو علم الملك أننا راحلون من الأصل، الخطة التي في ذهني بنيت على السرية الكاملة لن يعلم أحد عنا أي شيء حتى اليوم التالي
ابتسم خادع ابتسامة سخرية وهو يقول
- أتريد أن تُخرج آلاف الأرواح دون أن يدري أحد عنها شيئًا؟ كيف هذا ثم أين سنذهب؟
قال صادق:
- منذ عام خرجت إلى الصحراء خارج المملكة أبحث عن طعام لأطفالي ربما أجد أرنبًا أوغزالة شاردة أو أي كائن حي يُأكل فقد كاد الجوع أن يفتك بأطفالي ولكنني فشلت تمامًا أن أجد ما ينبض بالحياة في هذه الصحراء المقيتة ربما الحيوانات تهرب من الظلم هي الأخرى خائفة لذلك أخذتني قدماي بعيدًا وسافرت في الصحراء ليومين فقد كنت أستحي أن أرجع لبيتي دون طعام وعزمت أني لن أعود إلا بطعام أو أقتل

دون ذلك وقبل أن يحملني اليأس إلى قتل نفسي سمعت صوت خرير ماء قوي يأتي من مسافة ليست بالبعيدة فكدت أن أُجن كيف هذا؟ من أين يأتي هذا الصوت، تتبعت الصوت حتى أُرهقت وكلما مشيت كان الصوت يقترب وكنت أنا أقترب من جبل أو هكذا ظننت، لقد كانت منطقة عالية ولما صعدت إلى القمة وجدت منخفضًا عظيم المساحة وما أدهشني حقًا أن الأرض التي تحت الجبل وتحت قدمي مليئة بالأشجار وليست أي أشجار إنها أشجار فاكهة متنوعة وظلال وقد تخلل إلى مسامعي صوت زقزقات العصافير وهديرالماء ففي نهاية الأشجار نهر عذب لا أعلم من أين يأتي ولكن الذي علمته أنه لا أحد يعيش في هذه المنطقة التي تلتف حولها الصحراء من كل مكان ويعتريها الموت من حولها وتدب الحياة بداخلها كالجنة نزلتُ من فوق الجبل وأخذت أدور بداخلها وأقطف ماشئت من فاكهة وأكلت حتى شبعت وشربت من النهر حتى ارتويت ثم حملت ما استطعت أن أحمله معي من فاكهة وعدت أدراجي إلى المملكة وفي الطريق شغلتني الفكرة وسكنت خلدي لذلك حفظت الطريق من هناك إلى هنا ولما زاد تضيق الملك وكثر القتل ولم تنفع الحلول عزمت أمري أن نخرج جميعًا إلى هناك ونبني مدينتنا بسواعدنا ونخرج من هذا الظلم..
تحمس راضي وقاسم لما قاله صادق إلا خادع وكثرة الأسئلة حول المكان ووصفه وما يحتويه وفي ظل هذه الروح الحماسية التي سادت بعد كلام صادق قاطعهم خادع قائلاً بتهكم:
- لو كان كلامك صحيحًا وهذا افتراض مجرد افتراض كيف سنخرج من هنا جميعًا دون علم الملك؟
تنهد صادق وأسند ظهره إلى الحائط
- حان وقت الخطة التي أعددتها للرحيل، الخطة بسيطة إلى حد كبير إلى الحد الذي لا يتصوره أحد لن يأتي في مخيلة أحد أننا سوف نخرج بهذه البساطة لذا لن يلتفتوا إلينا ونحن نرحل، يوم الرحيل سوف ينام كل أفراد القبيلة نهارًا وسنستيقظ في أول الليل ستُكلف كل عائلة صغيرة بحمل ملابسها فقط وبعض الطعام وفي ليلة الاحتفال بمولد الملك سيكون القصر صاخبًا والحرس مشغولون والبصاصون عند الملك يحتفلون وسنخرج نحن خلسة في تلك الليلة مستغلين انشغالهم أنا لا أقول أن الأمر سهل أو أنه محمود العواقب ولكن هذا ما لدي ومن كان منكم لديه فكرة أفضل فليقل.
كانت الفكرة بسيطة ومنطقية ولكنها خَطرة بعض الشيء ماذا لو رآهم أحدهم ماذا لو أخبر أحدهم الملك؟ ماذا لو استطاعوا أن يخرجوا ثم طاردهم الملك بخيله ورجاله؟
قال قاسم:
- ما تقوله خطير يا صادق وقد نقع في شرك الملك وسيفنينا إن حدث ولكن بعد تفكير لا يوجد حل آخر غير هذا الحل ولكني سأضيف أمرًا واحدًا يجب أن نسلح رجالنا بالسيوف تحسبًا لأي شيء ربما احتجنا أن ندافع عن أنفسنا لو تطلب الأمر.
قال صادق مبتسمًا:
- لا داعي لذلك يا قاسم لن يعرف الملك أي شيء الا بعد يومين على الأقل ليلة الخروج واليوم التالي كله أيضًا سوف تكثر الأقاويل وسيعرف العامة أننا غادرنا وسيخاف الملك من ردة فعلهم سيجمع قادته ووزرائه وبعد اتخاذ القرار سيجمع جيشه

في اليوم الثالث وسيذهب للبحث عنا في المناطق المجاورة ثم سييأس من إيجادنا وسيلتفت لباقي الشعب.
قاسم علم أن كلام صادق منطقي وصحيح وقد تكون خطته أكثر منطقية من أي شيء آخر لذلك وافق على الخطة من فوره وتبعه راضي الذي كان يُسمع نبض قلبه وترتعد شفتاه في توتر ولم يجد خادع مفرًا من الموافقة ولكنها كانت موافقة مترددة وخبيثة فقد امتلأ خادع غلًا وحقدًا وانفض المجلس على أمل اللقاء في صباح اليوم التالي وبداية تنفيذ الخطة.

وفي نفس الليلة بعد أن ذهبوا إلى بيوتهم جلس خادع إلى سريره بجانب زوجته حسناء يتحدثان قالت حسناء:
- مالك يارجل جئت بغير الوجه الذي ذهبت به
نظر إليها خادع نظرة غضب وقال:
- أيتها المرأة الحمقاء اذهبي عني الآن وإلا قتلتك.
فعلمت حسناء أن خادع ليس في حالته الطبيعية وأن هناك شيئًا ما عكر عليه صفوه فآثرت أن تعامله بلطف ربما استطاعت أن تُذهب عنه همه فتحركت نحوه وعلى وجهها ابتسامة صافية وربتت على كتفه وبدلال قالت:
- أيرضيك أن تقتل حبيبتك؟
بلع خادع ريقه وقد رق قلبه وهو ينظر في عينيها الساحرتين وقال بتلعثم:
- أنتِ تعلمين أني لا أستطيع أن أمس شعرة من شعرك الذهبي البديع بسوء ولكني مهموم يا حسناء؛ هناك أمر خطير.

قص خادع لزوجته ما قاله صادق ولكنه زاد من عنده مجموعة من الشتائم ووصف صادق ببعض الصفات الكريهة وكانت حسناء تشارك خادع في كره صادق وذلك لأن خادع كان يمتلك تجارة في القبيلة وكان يزيد في أسعار البضائع ويستغل حاجة الناس وكان صادق يقف في وجهه ويساعد الناس ويأمره أن يبيع بضاعته بأسعارها الحقيقية لذلك كرهه خادع وكرهته حسناء بدورها لأنهما كانا يعتقدان أن صادق بأفعاله هذه ما هو إلا محاربٌ لهما في رزقهما وأخذت نار الكره تزداد اشتعالًا كلما وقف صادق لخادع في أي موقف، وبعد تفكير طويل قامت حسناء بدلال وأخذت تمشي بخطوات واثقة أمام زوجها ثم اقتربت منه وهمست
- أخبر الملك بكل شيء
فهب خادع من مكانه وهو يقول
- أيتها المرأة المجنونة سيبيدهم الملك عن بكرة أبيهم
فضحكت حسناء وهي تقول
- وما بالك أصبحت تهتم لأمرهم فجأة وظهرت عليك أعراض القلب الرقيق والخوف على هؤلاء الرعاع
اقترب منها وأمسك ذراعها بقوة فتألمت في دلال أربكه ثم قال لها

- أخاف على تجارتي أيتها الحمقاء فلو اختفت قبيلتنا من الذي سيشتري بضاعتنا هذه ومن الذي سيبتاعها بأضعاف ثمنها ثم لا تنسي أني كبير عائلتي كيف أتخلى عنهم هكذا
صمت لثوانٍ وقال:

- دون مقابل
أفلت قبضته وتركها ثم ذهب وجلس على سريره مرة أخرى يفكر، اقتربت منه وقالت:
- ومن قال لك إنك ستتخلى عن عائلتك من دون مقابل فقط تخيل العطاء الذي سيبذله لك الملك، تخيَّلنا نخرج من هذا الوباء وننتقل للعيش في كنف الملك وتحت حمايته وربما جعلك وزيره لما أنت عليه من الذكاء والدهاء
وهمست:
- وربما أصبحت أنت الملك بعد ذلك ...فمن يعلم
صمت خادع لبرهة وظهرت ابتسامة على وجهه قبل أن يقول
- أتركيني أفكر في الأمر
ولم تكن حسناء زوجة لخادع فقط إنما كانت سميرته وونيسته ومستودع أسراره والشخص الذكي الذي يساعده في اتخاذ قرارته وكان خادع برغم فطنته وذكائه وقوة قلبه وقسوته إلا أنه كان يتحول في حضرة حسناء إلى طفل وديع واستطاعت هي بذكاء أن ترود ذلك الرجل قاسي القلب المتطلع لما هو مشروع وما هو غير ذلك وساعدته في ذلك لما لمسته فيه من الذكاء وربما لأنها وجدت فيه ما وجدته في نفسها من حب المال والكبر والتطلع للسلطة والجاه وعلمت في مكنونات نفسها أن ذلك الرجل ربما سيكون ذا شأن عظيم في يوم من الأيام.

ولم تكن زوجة راضي على حالة حسناء نفسها من الذكاء والجمال وإنما كانت شديدة الغباء كريهة المعشر لا تفقه شيئًا عن الدنيا ولا عن أحوال زوجها وكان راضي جالسًا بجانبها في تلك الليلة مهمومًا بما كان من أمر صادق وخطته وبرغم أنه لم يكن على الحال الذي اعتاد أن يكون عليه إلا أنها لم تسأل عن أحواله ولم تنطق بحرف وظلت تحيك ثوبًا كان في يدها وتبتسم بين الحينة والأخرى ولما لمحها راضي تبتسم ظنها جُنت فقام من مقعده يتمشى في صحن داره ربما فطنت إلى ما هو فيه من هم وغم أخذ يسير وينفخ ويضرب كفًا على كف علها تفهم ولكن لم تحرك مريم ساكنًا ولما يأس من أن تلتفت إليه اقترب منها وهو يسير وأخذ يرتطم بها كلما مر عليها، والعجيب أن مريم ظلت مبتسمة ومشغولة بما في يدها ولم تلتفت لزوجها على الإطلاق ولما ضاق راضي صدرًا اندفع ينهرها بصوت عالٍ وهو يقول:
- سامحها ربي
قالت مريم دون أن تلتفت إلى زوجها
- من؟
فقال راضي بحنق

- أمي.. قلت لها أريد مليحة تؤنس وحدتي وتساعدني في الحياة فجائت لي بامرأة لا تفعل شيئًا في حياتها إلا فتح فمها عن آخره، ثم ألم يأن لهذا الثوب الذي تخيطينه منذ عشرين عامًا أن ينتهي..بئس الحظ حظك يا راضي
- ماذا تريد يا راضي إن عشاءك على الطاولة في الداخل
فكاد راضي أن يبكي وفي سخرية قال
- عشائي!! لا تطيق نفسي الطعام، أريد أن أتحدث معك في شأن آخر أمر يخص مستقبلنا وحياتنا بل وحياة القبيلة كلها
قالت مريم وقد بدا عليها الاهتمام
- كلي آذان صاغية
فتبسم راضي من قولها وظل يحكي لها عما حدث منذ فرض الملك لضرائب لا قبل للقبيلة بها حتى خطة صادق للخروج من المملكة وعن الأرض الجديدة التي اكتشفها صادق وصارحها بحقيقة خوفه مما قد يحدث ولما انتهي وقد فاض بما أراد وأحس براحة قادمة من أعماقة قال لها
- فما رأيك فيما قلت؟
أطال راضي النظر لزوجته منتظرًا إجابتها ولكنها ظلت صامتة لفترة ليست بالقصيرة حتى قالت بابتسامتها المعهودة
- لقد زارتنا أمي اليوم وأنت في الخارج وجلبت لنا صحنًا من لبن الماعز الدسم سأتي لك بنصيبك منه
وهمت ترتدي خفها في خفة في حين شغر راضي فيه وهي تمر بجانبه مرتطمة بكتفه وما لبس حتى أن قال لها في سخرية
- نعم اجلبي لي ما تبقى من لبن الماعز أو حتى المعزة نفسها أعتقد أنها ستفهمني أكثر مما تفهميني أنتِ
الغريب أن راضي في هذه الليلة انكب على الطعام يلتهمه التهامًا كأنما لم يأكل منذ عام ولم يفكر في أي شيء وما لبس أن غشاه النعاس ولم يفق إلا في صباح اليوم التالي
أما قاسم فقد عاد في تلك الليلة مهمومًا إلى بيته مرتابًا تخنقه الهواجس وكان قاسم قد توفا أبواه منذ أكثر من عشر سنوات وتركا له أخًا صغيرًا يدعى مخلص كان قاسم منشغل مبخلص أكثر من انشغاله بنفسه وكان الواجب الذي فُرض عليه منذ وفاة أبويه في تربية أخيه قد نمَّى بداخله حبه لأخيه وخوفه عليه ولم يعتبره قاسم يومًا أخًا وإنما كان له بمثابة الابن البكر فانكفأ قاسم على تربيته وإطعامه ونسي نفسه فلم يتزوج ولم يفكر في الأمرإلا أنه كان يقول لنفسه أنه سوف يتزوج بعد أن يكبر مخلص ويصير رجلًا في ذلك الوقت يكون مخلص قادرًا على تحمل مسئولية نفسه ويكون قاسم قد أدى واجبه نحو أخيه ويستطيع أن يفعل ما يحلو له وبرغم هذا الإخلاص والوفاء النادر الذي يظهره قاسم إلا أنه كان يمتلك خصالًا أخرى غير جيدة فقد كان يعمل مع خادع في تجارته وبرغم علمه بما يفعله خادع مع العامة من رفع سلع البضائع واحتكار السوق في القبيلة إلا أنه لم يحرك ساكنًا يومًا ولم يعترض وكان يتصور أن خادع هو رب عمله ويجب أن لا يعترض عما يفعله في القبيلة وأنه

ما دام لم يفعل ذلك هو بيديه فلا تثريب عليه وسيظل من الصالحين أما عن الحقيقة التي كان يخفيها قاسم والسبب الرئيسي في سكوته عما يفعله خادع أنه كان يأخذ ما يريد من البضائع التي أمّنه عليها خادع يسرق ما يشاء كى يطعم أخاه وفي مقابل ذلك يصمت صمت المقبور عما يفعله خادع وكان يغض الطرف عن أفعاله مقابل أن يخرج قاسم في الليل بعربته ذات الصندوق ويفتح المخازن التى معه مفاتيحها ويأخذ ما شاء من غلة وفاكهة وأشياء أخرى تكفيه هو وأخيه ولم يكن قاسم ذلك اللص الطماع الذي لا يسرق إلا جملًا وانما كان لصًا قانعًا يكتفي بالدجاجة يسرق ما يكفيه وأخيه ليومين أو ثلاثة على الأكثر ويكرر السرقة كلما احتاج لطعام ولم يكن قاسم كبير عائلته حتى وقت قريب حين قتل جنود الملك الشيخ عمارة حينما عجز عن دفع ضرائبه فأصبح قاسم بين ليلة وضحاها كبير عائلته وكان التغيير الملحوظ الذي ظهر على خادع حين علم أن قاسم الذي يعمل عنده أصبح كبير عائلته وأصبح فردًا من مجلس القبيلة غير معهود لذا فقد زاد في أجرته وأعطاه مكانة أكبر في العمل وذلك لأن خادع كان يريد أن يكسب قاسم إلى صفه ليكون صوتًا له في مجلس القبيلة في مواجهة صادق وكانت صدمة خادع كبيرة حين صوت قاسم لصالح رأي صادق

إلا أن طبيعة شخصية قاسم تفرض عليه ما تؤول له مصالحه فلن يفيده تملق خادع ورأسه معلقة على أبواب قصر الملك حين تُجمع الضرائب لذلك مال إلى رأي صادق على الرغم من أنه لو كانت الظروف على غير ما هي عليه لاختار ما يقوله خادع دون تردد.

دخل قاسم على أخيه فوجده نائمًا ولم يكن معتادًا أن يرى أخاه نائمًا في مثل ذلك الوقت وخاصة أنهما اعتادا على تناول طعام العشاء معًا كل يوم وبرغم سن مخلص الصغير إلا أنه كان مفطورًا على الذكاء وكان ذا أخلاق جيدة تربي فكره الصغير ذو الخمسة عشر عامًا على يد صادق وتعلم القراءة والكتابة على يد الشيخ عمارة زعيم عائلته السابق فلم يكن يعجبه ما يفعله أخوه قاسم من محاباة خادع والعمل معه ولم يعجبه يومًا برغم حداثة سنه ما يفعله الملك في قبيلته وفي باقي قبائل المملكة وكان ملازمًا لصادق طوال الوقت تعجبه أراؤه ويفهمها وكان مخلص يؤمن بأراء صادق ويعيها غير تابع ولا مقلد وإنما كان يتبع بوعي ويسير خلف الحق بإدراك وذلك مما علمه صادق

ليلتها ظل قاسم جالسًا بجانب أخيه تراوده نفسه كل حين أن يوقظه ولكنه كان مترددًا في إشراكه في هذه الأمور التي رآها، قاسم أكبر منه إلا أن رجاحة عقل مخلص الواعي برغم سنه جعلت قاسم يمد يده بهدوء ليوقظ أخاه ولما فتح مخلص عينيه قال له قاسم بتردد:

- ألن تتناول معي طعام العشاء أم تراك قد غلبك النعاس وستستسلم له إلى أن يأتي الصباح؟

قام مخلص بهدوء وهو يتمطى وتعلو شفتيه ابتسامة:

- وهل سيحلو لك الطعام من دوني؟

قام قاسم وقد اشتعلت في نفسه الأبوة التي بداخله تجاه مخلص واتجه نحو طاولة يعلوها طبق كبير به العديد من أصناف الفاكهة و بعض الخبز جلس عليها وهو يقول

- لا تحلو الحياة كلها دونك يا مخلص..والآن هيا أدخل إلى الغرفة، أحضر ما تبقى من طعام الغذاء
قام مخلص بهمة ونشاط ناحية الغرفة ورجع وهو يحمل في يده طبق به بعض الجبن الأبيض وجلس بجانب أخيه يتناولا العشاء
للحظة نسي قاسم ما كان من أمر القبيلة وما قاله صادق نسي خادع والملك والضرائب وأفرغ ما في عقله كله ليضع مخلص مكانه يمازحه، يتساءل عن أحواله يسمع منه ما فعله في يومه يتأمل ملامحه التي تغيرت منذ أن كان طفلًا وجسده الذي نضج وصوته الذى اخشوشن ويبتسم كلما بدرت من مخلص مزحة طريفة ويشرأب عنقه فخرًا كلما حكى له مخلص عن ما يظنه هو بطولات والتي هي في النهاية بطولات طفل هكذا كان يراها قاسم وبعد أن فرغا من طعامهما جلسا يتسامران إلى أن تذكر قاسم المشكلة التى تواجهها القبيلة وسرح بخياله للحظات وهو يحدث نفسه:
(أتراني أخطأت اليوم حينما وافقت على رأي صادق؟ ماذا لو طردني خادع من العمل بأي شيء أعيش أنا ومخلص وهل كان عجزك عن دفع الضرائب أليس بقاتلك؟ ربما لو كنت أخبرت خادع لدفعها لي..وباقي العائلة يا قاسم؟)قاطع صمت قاسم أخيه الذي ظل يتحدث منذ وقت ليس بالقصير ولم يسمعه قاسم قائلًا
- ماذا بك يا أخي أنت على غير عهدي بك؟
عاد قاسم مما كان فيه وقال:
- لقد كان هناك أمر جلل هذه الليلة حيث اجتمعنا في بيت صادق.
- هل توصلتم لشيء كيف ندفع الضرائب الجديدة وماذا عن الأسر التي لم يعد لها عائل من أين تدفع قيمة الضرائب الباهظة حيث يعجز عن دفعها الرجال العاملين
قال قاسم
- ماذا ترى أنت يا مخلص كيف نواجه تلك المشكلة من وجهة نظرك.
ابتسم مخلص ووضع يده على رأسه يفكر ثم قال في لهفة:
- الأمر في غاية السهولة ولكنكم ستخافون أن تفعلوا ذلك.
انتظر قاسم أن يقول مخلص كلامًا أشبه بكلام صادق لأنه كان يعرف أن مخلص يحب صادق ويتابعه أينما ذهب ولم يحجبه قاسم مرة عن صادق وبرغم أفعال قاسم غير الشريفة إلا أنه كان بداخله شيء ما يقول له دع مخلص يفهم من صادق عن الحياة أفضل من أن يفهم منك أنت فأنت عبثت بك الحياة أيما عبث ومالت إليك وملت لها فتلوثت بمفاهيمها العطنة أقل ما توصف به أنها مفاهيم حقيرة لذلك فلتدع مخلص لصادق ربما أنبته نبات حسن غير إنباتك أنت ولكن مخلص قال شيئًا آخر:
- لو كنت أنا مكانكم لجمعت فقراء القبيلة وذهبنا إلى بيت خادع واندفعنا إلى داخله وأخذنا كل ما فيه من مال وسبائك ذهب وفضة وتركناه يموت كمدًا ثم ذهبنا إلى مخازنه التي تعج بالطعام وفتحناها ووزعنا ما بها علينا بقسمة عادلة ولا نكون بذلك قد سرقنا وإنما قد أرجعنا حقنا الذي نهبه خادع في سنين مضت
تبسم قاسم من كلام أخيه الذي يبدو كمزاح للوهلة الأولى ولكنه سرعان ما تبدل في عقله إلى شيء آخر.

تحدث قاسم في نفسه..ربما هو محق من أين جمع خادع ماله وتجارته الكبيرة أليس من كدح الناس وعرقهم وأنت بالذات تعرف ذلك وشاهدت على مر سنين عملك معه أنه يفعل ذلك يسرق الناس ولكن بطريقة مغايرة يضع يده في جيبوبهم ويأخذ ما بها ولكن برضاهم وعلى مرأى من أعينهم ولأن الناس مغلوبون على أمرهم فخادع هو الوحيد في القبيلة الذي باستطاعته جلب البضائع وبيعها وهو الوحيد الذي باستطاعته شراء محاصيل الفلاحين وما صنعته أيدي العاملين المهرة لأنه هو الوحيد الذي يمتلك المال دائمًا وهو الوحيد الذي يطرق باب هؤلاء يوم حصاد محاصيلهم لشرائها كما يريد هو بالثمن الذي يراه هو ومن يتمرد منهم ولا يرضى أن يبيع له يتركه ولكنه يسلط عليه رجاله فيحرقون بيته أو يسرقون غلته وإن لم يقدر على ذلك فإن الفلاح او العامل وتحت طائلة جمع الضرائب يهرع إليه ليبيع له ما أنتجته يديه لكي يدفع الضرائب التي عقاب من يتخلف عن دفعها القتل وهنا يستطيع خادع بمهارة أن يدفع نصف ما عرضه في المرة الأولى أو أقل وإن لم يفلح هذا ولا ذاك فستفسد البضاعة لاشك؛ لأنه لا أحد يمتلك المال في القبيلة كلها إلا خادع ولن يجد الفلاح أو العامل من يشتري منه بضاعته. وبعد صمت طال قال قاسم:

- ربما أنت محق يا مخلص فيما تقول ولكن ما لا تعرفه أنت أن خادع لا يتصرف هكذا بمفرده ولا يفعل ما يفعله في الناس إلا إذا كان هناك من يحميه

- أتقصد الملك أو أحد رجاله.

- بغير شك.

قال مخلص وقد حاصرته الدهشة:

- ولماذا لا تخبر صادق بهذا الأمر إنه أمر خطير؟

في ابتسامة سخرية قال قاسم:

- وكيف لي أن أثبت هذا الأمر إنها مجرد ظنون استنبطها عقلي وليس عندي أي دليل عليها.

- هكذا إذن لطالما قال صادق أشياء كهذه من قبل وكان يقول إنه لا يملك عليها دليل وإلا لكان أطاح برأس خادع منذ زمن.

- الأمر ليس بهذه البساطة يا مخلص فخادع يمتلك رجال ويحصن نفسه جيدًا ولا تنسَ أنه رمز لعائلة وهي أحد قوائم أربعة في هذه القبيلة، الأمر حساباته معقدة أكثر مما تفكر بقليل ولو كان صادق قادرًا على إهلاك خادع لما تردد لحظة ولن ينتظر وجود دليل فهو يعلم جيدًا ما يفعله خادع.

هز مخلص رأسه لأخيه وقد سرح بخياله قليلا قبل أن يقول:

- إذن ماذا سنفعل والضرائب ستجمع بعد عشرة أيام؟

- هذا ما اجتمعنا لأجله الليلة لقد اقترح صادق خطة للخروج من هذا المأزق ولكنها مغامرة غير محسوبة العواقب ربما تكون سببًا في أن نموت جميعًا

قال مخلص وقد بدت ابتسامة ثقة على وجهه

- لم أعهد صادق يفعل شيئًا غير محسوب العواقب.. اطمئن.

قال قاسم بصوت مرتفع وقد كادت عيناه أن تخرجان من مكانهما

- إنه يريد أن نخرج جميعًا من المدينة إلى أرض وصفها كأنها الجنة

ظهرت الصدمة على وجه مخلص واختفت الابتسامة التي كانت مرتسمة على شفتيه وقال متسائلًا
- من الذي سيخرج وإلى أين؟..أنا لا أفهم
- ستخرج القبيلة عن بكرة أبيها من المدينة في ليلة الاحتفال بمولد الملك في الظلام نحو مكان ما لا أحد يعلمه إلا صادق يقول عنه إنه مكان أشبه بالجنة يتدفق فيه نهر جار وأشجار فواكه، مكان واسع يصلح أن نبدأ حياتنا فيه ويتسع للجميع

نظر مخلص لأخيه وهو يفكر فيما قال وظهرت ابتسامة على شفتيه:
- إنه مكان رائع وسنبني فيه بيوتًا جديدة ونضع قوانينًا جديدة تكفل للجميع حقوق متساوية إنه مكان لطالما حلمت به..وافق يا أخي أرجوك أن توافق
- لقد وافق مجلس القبيلة بالإجماع فلا تقلق وكنت أول من وافق لأنه وبعد تفكير عميق لم أجد حلًا آخر غير ذلك
- وخادع؟
- لم يجد مفرًا من الأمر وإن كان لم يبدِ موافقة معلنة ولكنه رضخ في النهاية،
نظر الاثنان لبعضهما في قلق قبل أن يقول قاسم:
- لن يتنازل خادع عن عرشه الذي بناه بهذه السهولة.
- وماذا سيفعل؟
تنهد قاسم
- لا أعلم ولكنه سوف يحاول قلب الطاولة على صادق والضحايا سيكونون بالمئات

في الليلة نفسها كان صادق يتسلل بين بيوت قبيلته الفقيرة محاولاً أن يتجنب البصاصين ويتوارى عن العيون كلما مر نفر بجانبه، وكان صادق ذا جسم عريض وقوي يمتلك عيونًا زرقاء ليست كتلك العيون السوداء والبنية التي تنتشر في القبيلة وبرغم امتلاكه لعيون زرقاء إلا أنه لم يكن أبيض الوجه ناعم الشعر كما هي العادة وإنما كان يمتلك شعرًا خشنًا ووجهًا مائلاً للسمرة، أضفى عليه هذا التناقض شيئًا من الهيبة بين الناس.

كان يحتمي بأحد الجدران عندما مر بصاص من بصاصي الملك يترنح بجانبه ولم يره البصاص وإنما مر بجانبه في سلام.انتظر صادق حتى اختفى البصاص ودخل إلى حوش بيت من البيوت ثم نظر يمينًا ويسارًا حتى تأكد أنه لا أحد يسير في الطرقات وما لبس أن هرول بخفة خارجًا من حدود القبيلة تلك الحدود التي أمر الملك أن تصنع بين قبيلة الرعاع وباقي القبائل في زمن الثورة الأولى وكان وزير الملك أيهم قد غير اسم قبيلة الرجال كما كان يطلق عليها في السابق إلى الاسم الجديد الذي اختاره على وزن نفس الاسم القديم (الرعاع) وقد قالها للملك وهم في جلسة سمر ليلي يقهقهون ويشربون الخمر فأخذها الملك على محمل الجد وأمر فى الصباح مناديه أن يدور بين القبائل ويعلم الناس بالاسم الجديد لقبيلة الرعاع (الرجال سابقًا)

كانت أيامًا عصيبة هكذا يقول من لا يزال على قيد الحياة داخل القبيلة وقد عايش المجازر التي ارتكبها الملك في القبيلة أيام الثورة الأولى.

الهواء كان شديدًا في تلك الليلة يكاد يقتلع النخل الباسق والغيوم السوداء في السماء تشير إلى أنها ستمطر مطرًا غزيرًا بعد قليل، قلق صادق عندما راوضه هذا الهاجس فقد يمنعه المطر الشديد من الرجوع إلى القبيلة في الليلة نفسها قبل أن يراه أحد.

أكمل طريقه نحو مراده وبعد قليل من الوقت قابله رجل يحمل مشعل نار يكاد ينطفئ ويتلحف بغطاء يغطي به وجهه ومعظم جسده ناوله مشعلًا من نار كان قد جلبه له وهو يقول بصوت عال شوش عليه صوت الرياح وتضاربُ سعف النخل:

- لقد تأخرت الليلة؟

حمل صادق المشعل وهو يقول ولايزال الضجيج مستمرًا

- برغم الجو البارد والساعة المتأخرة إلا أن البصاصين لا يزالون منتشرين حول القبيلة

أومأ الرجل برأسه قائلًا

- الجميع في انتظارك في بيت الشيخ ثابت

وفي صباح اليوم التالي كان قاسم جالسًا على عربته الخشبية المهترئة أمام سوق القبيلة التي تنتشر فيه الحوانيت وقد بدأ الناس في الذهاب إلى أعمالهم، يذهب الفلاح إلى حقله والعامل إلى دكانه وينتظر قاسم أن يفتح دكان خادع
ومع انتشار الناس انتشر العسكر والبصاصون في القبيلة كالطيور الجارحة التي تهبط على فرائسها ينظرون للناس بنهم كأن الناس طعامهم والغريب أنه لم يلتفت إليهم أحد فقد اعتاد الناس رؤيتهم كل صباح ينهرون هذا ويضربون ذاك ويتلصصون على البقية
وبعد مرور قليل من الوقت أتي خادع وحوله العديد من الرجال يحمل مفتاحًا ضخمًا ناوله لقاسم بنظرة لا تخلو من الصد والعتاب وبابتسامة باهته أخذ قاسم المفتاح وفتح الدكان.
يحتل دكان خادع - ولا مبالغة- خُمس مساحة السوق كله حيث يبيع فيه كل الأنواع التي قد تأكل.. الفاكهة الأرز الخضروات القمح والشعير وحتى العطارة بشتى أنواعها والذرة.
كل ما يزرع ويأكل تجده عند خادع، لذلك يعمل عند خادع عشرة رجال كلهم من بصاصين الملك الذين لفظهم القصر واستغنى عن خدماتهم ولما لفظهم القصر لفظهم الناس بدورهم فلم يجدوا إلا خادع الذي استقبلهم بصدر رحب.
جلس خادع على كرسي في وسط الدكان الكبيروقد بدأ الناس يأتون لقضاء حاجياتهم وهو لا يكاد ينزل عينيه من قاسم الذي انهمك في العمل يشير لهذا العامل أن يرفع بعض الفاكهة من هنا ويضعها هناك ويشير لعامل آخر أن يجلب من المخازن بعض السلع التي نفذت من الدكان وينهر هذا العامل على تأخره وتكاسله وفي ظل هذه الجلبة ناده خادع بأعلى صوته وقد أحدث نداؤه هزة في نفس قاسم برغم توقعه أن هذا سيحدث
وقف قاسم أمام خادع بوجه غير وجهه الذي كان في اجتماعهم أمس وجه يملئه رعب فقدان لقمة العيش وجه اعتاد على التذلل بذكاء أمام رب العمل، بادره خادع بعد أن أطال النظر إلى عينيه المنكسرتين
- ارفع سعر كل شيء إلى الضعف
ظن قاسم أن خادع سيعاتبه على ما حدث في ليلة أمس وسيطول حوارهما وقد يطرده من العمل ولكن خادع لم يفعل أي من هذه الأمور فتمتم قاسم
- ماذا قلت يا خادع أعد ما قلت مرة أخرى
- قلت ارفع سعر كل شيء إلى الضعف
قال قاسم وقد بدت الدهشة على ملامحه
- الناس لا يستطيعون شراء البضائع بهذه الأسعار فكيف سيشترونها بضعف ثمنها
أجابه خادع بابتسامة خبيثة:
- نحن لسنا في مجلس القبيلة لكي تناقشني فيما أقول يا قاسم ثم لاتنسَ
اقترب خادع وهمس
- إننا مغادرون بعد ثلاثة أيام وستتلف هذه البضائع لذلك سأجمع منها القليل من المال قبل أن نتركها ونرحل..أليس هذا ما تريده أنت وصاحبك؟

لم يجب قاسم بشيء فتابع خادع كلامه
- اذهب وافعل ما أمرتك به
وبعد مرور بعض الوقت قال قاسم للعمال بصوت يسمعه كل من في السوق
- ضاعفوا ثمن كل البضائع كما قال مولانا خادع صاحب الدكان
ضج الجمع وعلت الأصوات وظهر صوت احتجاج واضح ونقاشات بين الناس
ولما كثر كلامهم وعلت أصواتهم نظر خادع حوله ثم أشار بإصبعه لأحد الجنود المنتشرين في السوق وقام الجندي بدوره بدعوة باقي الجنود ودخلوا إلى الدكان ليقول كبيرهم
- اسكتوا يا رعاع لا أريد أن أسمع صوت أحد منكم وإلا قتل
هدأ الناس فجأة وطأطأوا رؤوسهم واغرورقت عيون بعضهم بالدموع وخاصة بعض النسوة اللاتي يحملن أطفالهن وضرب بعضهم كفًا بكف وسمع صوت ضعيف يأتي من بعيد قبل أن يهدأوا تمامًا يقول وكيف سأطعم أطفالي لم يأكلوا منذ أول أمس
نظر قاسم لهؤلاء الناس المغلوبون على أمرهم وطأطأ رأسه وانشغل فيما هو فيه من عمل.
حملت امرأة رضيعها إلى صدرها وهي تخرج من دكان خادع نحو بيتها وعبر الشوارع كانت تمشي وهي تسكب العبرات وتتمتم بكلمات غير مفهومة ظنها الناس قد جنت ولكنها كانت تخشى أن يموت أطفالها من الجوع
ظلت تسير هائمة على وجهها مبتعدة عن حدود القبيلة بغير قصد منها، هالها ما قد تلقاه عند رجوعها إلى بيتها وكيف ستجيب أطفالها لو سألها أحدهم أين الطعام يا أمي وقد ذهب طعام رضيعها أيضًا من صدرها وجف ولا يكاد ينجو هو الآخر لذلك كان هناك هاجس يدور في ذهنها وهي تسير ماذا لو ذهبت نحو بئر القبيلة العميق وألقت نفسها ورضيعها فيه؟ ربما تكون حينئذ مثل ماشطة بنت فرعون التي ألقاها فرعون وأولادها في قدر من الزيت المغلي وكانت تعلم علم اليقين أن إيمانها بربها سوف يبدل هذا الزيت بماء طهور بمجرد خروج روحها وأنه سيستقبلها أحسن استقبال على صبرها وايمانها ولذلك فكرت تلك المرأة أنه ربما سيكون البئر هو الآخر جنتها وبمجرد خروج روحها بداخله وأولادها سيتبدل ذلهم إلى كرامة وجوعهم إلى شبع وخوفهم إلى أمان لذلك عادت من فورها نحو بيتها ولما دخلت كان طفلاها نائمين بداخل المنزل ولما سمعا صوت أقدامها استيقظا من فورهما وجلسا يفركان أعينهما وهما متلهفان إلى قليل من الخبز أو ثمرة فاكهة لم يتزوقاها منذ يومين ولما رأتهما أمهم اغرورقت عينها بالدموع وتذكرت زوجها الذي قتله الملك منذ عام حين فشل في جمع الضرائب وكيف كان يشقى لكي يوفر لهم رغيف العيش وما يقيم صلبهم وقاطع صمتها وتفكيرها ولدها وهو يقول لها بعد أن نظر نحو يديها الفارغتين إلا من أخيه الرضيع
- أين الطعام يا أمي؟ لقد قلتِ إنك ستأتين ببعض الخبز والفاكهة
نظرت الأم لولدها وأخيه ثم وضعت رضيعها من يدها واحتضنتهما بقوة وسرعان ما تبدلت دموعها بابتسامة وهي تقول لهما
- ما رأيكما في اللحم وبعض التفاح؟

نظر لها الطفلان غير مصدقين ولم يجيبا واستطردت
- اليوم ستأكلون كل ما تريدون لن تحرما من شيء
وخرجت خارج المنزل وهي تمسك بيد طفلها الكبير ويمسك هو يد أخيه الذي يصغره بعام فقد كان في الخامسة من عمره وتحمل إلى صدرها ولدها الرضيع وقد اتخذت قرارها واتجهت نحو البئر
كانت تسير بخطوات سريعة متلاحقة وقد كاد ولداها يتعثران من سرعة خطواتها غير المناسبة لخطواتهما الصغيرة ولكنها كانت مؤمنة إيمانًا يشبه اليقين أن ما ينتظرهم في البئر من الخير لابد أن يهرولوا إليه لذلك بدت ابتسامة على وجهها رغم ما هي مقدمة عليه.
كان الناس ينظرون إليها نظرات شك وريبة وهي تنظر إليهم بدورها ولسان حالها أيها الحمقى لقد وجدت مخرجي وأنا ذاهبة إليه وأما أنتم فلكم الذل والجوع والعار إلى نهايتكم.
وبعد قليل من الوقت كانت تقف أمام البئر العميق تركت يدا ولداها ونظرت نظرة بداخل البئر فوجدته عميقًا تكاد لا ترى آخره لذلك ابتسمت ثم نظرت إلى أولادها الثلاثة بعيون راضية عما هي مقدمة عليه ولمست وجوههم ومسحت على شعورهم بحب صاف لا يشوبه أي كره أو أنانية ثم قالت لأولادها وكأنها تحكي حكاية لطيفة من التي تحكيها لهم كل يوم قبل أن يغلبهم النعاس
- لقد حانت اللحظة التي كنا ننتظرها منذ زمن..لقد وجدت في هذه البئر مدخل سري
قالتها وهي تبتسم فقال ولدها الأكبر في لهفة وبابتسامة هو الآخر
- مدخل سري !! أتقصدين مدخل بلاد العجائب الذي حكيتي لنا عنه
فأومأت بابتسامة أي نعم
فكاد الطفل يطير من الفرح ونظر لأخيه وهو يقول له
- لقد وجدت أمنا الباب السري الذي يؤدي إلى بلاد العجائب حيث سنجد أبي هناك
فطار الطفلين من الفرح وهما ممسكان بيدي بعضهما ويتقافزان في الهواء
انتظرت الأم قليلًا وهي تنظر لهما حتى قالت
- كل ما يجب أن نفعله أن نقف جميعًا على حافة البئر ونشبك أيدينا ببعضها ثم نقفز إلى داخل البئر.

كانت الليلة السابقة قد أمطرت مطرًا شديدًا وقد غرقت الشوارع وأصبحت موحلة وتعذر على صادق العودة إلى القبيلة في الليلة نفسها بعد اجتماعه مع رؤوس القبائل ولذلك قرر أن يعود في الصباح وكان يدعو الله ألا يراه أحد البصاصين وهو عائد من قبيلة أخرى فيصل الأمر إلى رجال الملك ويهدم كل ما كان يخطط له
وفي طريق عودته كان العطش قد تمكن منه لذلك مر بالبئر الذي على أطراف حدود القبيلة الشمالية ليشرب وقبل أن يصل لمح صادق امرأة تقف مع طفلين تتحدث معهما وكاد أن ينادي عليها لتنتظره لكي تعطي له شربة ماء حيث أنه لا يملك شيئًا ليشرب فيه ولكنه تراجع عن هذا الأمر عندما رأها تحمل رضيعها وتقف على حافة البئر ثم تساعد طفليها على الصعود حتى وقفا بجانبها وما أن رأهم صادق وبرغم أنه لم يفهم

ماذا يحدث في بادئ الأمر إلا أنه جرى ناحيتهم بأشد ما أوتي من قوة وكان يراقبهم وهم يمسكون بأيدي بعضهم ويقفون على الحافة ينظرون إلى أعماق البئر
ورأى المرأة وهي تنظر ناحية أطفالها قبل أن تقفز معهم إلى أعماق البئر ولما رأهم صادق صرخ صرخة شديدة وهو يمد يده ناحيتهم وكانت المسافة مازالت بعيدة بينه وبين البئر فزاد من سرعته ويكاد أن يقتله الحزن ولما وصل ناحية البئر نظر إلى داخله فلم يستطع أن يتبين شيئًا إلا أنه رأى يد صغيرة تبطش بالماء وسرعان ما اختفت وما أن رأى صادق هذا المشهد المحزن حتى قرر أن يقفز في البئر برغم معرفته السابقة أن ذلك الأمر يعد انتحارًا ولن يجدي نفعًا وبالفعل هم أن يقفز إلا أن يدًا امتدت وأحاطت بجسده القوي من الخلف ومنعته أن يقفز في آخر لحظة
كانت يد قاسم، حاول صادق أن يفلت من يدي قاسم إلا أن الأخير أصر على منعه من القفز وأخذ يقنعه أن القفز خلفهم لن يجدي نفعًا وأنهم قد غرقوا جميعًا ولن يستطيع أن يفعل لهم شيئًا
فجلس صادق منهارًا وأسند جسده على حائط البئر وتنهمر عبراته بغزارة ويكاد يتقد صدره نارًا ولم يقل أي شيء وطال الصمت حتى جلس قاسم بجانبه
وهو يقول
- لقد جاءت إلى دكان خادع اليوم تنظر إلى البضائع ومن الواضح أنها لم تكن تمتلك مالًا امتدت يدها غير مرة نحو القمح وكادت تأخذ حفنة وتمشي وقد رأيتها وعزمت أن أتركها تأخذ ما أرادت ما دام لم يرها أحد غيري إلا أن نفسها العفيفة أبت أن تسرق ولما رفع خادع أسعار كل شيء إلى الضعف سمعتها تقول بعد صراع طال مع نفسها (وكيف سأطعم أطفالي)
قالتها وغادرت من فورها وبعد قليل أخذت أنا بعض القمح والفاكهة والخضروات

وأشار ناحية كيسًا يحمله معه ثم أكمل
- واتجهت إلى منزلها ولما لم أجدها سألت جيرانها وأخذت أسأل الناس عنها في الشوارع ويشيروا لي على مكان تحركها حتى قادتني قدمي إلى هنا
ولكني لم ألحق بها
تألم قاسم بشدة وهو يقول
- يالها من حمقاء لو سرقت ما أرادت أن تأكله لما كان مصيرها هكذا اليوم!

نظر له صادق نظرة احتقار مما قال للتو تختلط بنظرة استغراب من دموعه التي على خده والتي لا شك دموع صادقة والعرق الذي على جبينه وهو يحاول أن يلحق بهذه المرأة ليعطي لها ما في يده من طعام وقال
- هذه أشياء لا يدركها إلا القليل يا قاسم رغم الحاجة إلا أن مبادئها لم تكسرها رغم قوة الجوع وغلبة حب الأبناء
وأكمل وقد تبدلت ملامحه لغضب شديد
- أما خادع فهذه آخر أيامه في هذه الدنيا

وهم منتفضا ناحية دكان خادع ويجري قاسم من خلفه محاولًا أن يثنيه عن ما ينوي فعله.
في تلك الأثناء كان خادع قد أرسل في طلب راضي ليتحدث معه حول ما كان ينويه صادق وما تحدثوا فيه في الليلة السابقة وجلس راضي مرتبكًا يهز قدميه بشكل غريب في جانب من الدكان ينتظر خادع الذي كان يتحدث مع أحد رجاله وهو يرمق راضي بين الفينة والأخرى ولما فرغ عاد وجلس بجانب راضي وهو مبتسم
وقد عرف خادع أن الترغيب لم يكن ليغري راضي في شيء لأن راضي يخاف من ظله بجانب أنه ليس على قدر وافر من الذكاء إنما هي طيبة وخوف هكذا هي شخصيته على الدوام هو لا يأذي أحدًا مطلقًا ولكن خوفه يمنعه من أن يبدي رأيه في أي شيء ولما مات الشيخ عبدالجليل كبير العائلة وخلفه راضي لأنه أكبر رجال عائلته فرح خادع لأنه ظن أن راضي سيكون بسهولة تابع له ولكن راضي فاجأه أمس عندما وافق على غير عادته بأمر يحيطه الخطر من كل جوانبه
قال خادع وقد تبدلت ابتسامته إلى عبوس
- أنا لا أعلم كيف وافقت أمس على ما قاله هذا المعتوه
تنهد واستطرد
- ربما لا ترغب في أن تبقى رقبتك على كتفيك في الفترة القادمة
تحسس راضي رقبته وقال بتلعثم
- رقبتي رقبتي ليس لها مكان آخر غير كتفي ولو انتزعت من مكانها فستتلف
انتفض خادع وأمسك بيد راضي بقوة واقترب منه حتى كاد رأسهما أن يتلامسا
- أتظن أن الأمر مزحة يا رجل لو لم تكن خائفًا على نفسك فعلى عيالك على عائلتك أتظن أن الجنة التي كان يتحدث عنها صادق حقيقة.، لربما هي حقيقة بالفعل فقد كان يتحدث عن الجنة التي بعد الموت إنه يخدعكم يا راضي يخدع الجميع

أفلت خادع قبضته من يد راضي وأرجع ظهره على الكرسي الذي كان يجلس عليه وانتظر أن يقول راضي أي شيء وبعد طول انتظار قال راضي بشئ من الخوف
- ماذا تريد مني يا خادع، ربما أنا لست في شجاعتكم وربما أنا خائف على الدوام ولم أكن مؤهلًا لأن أكون كبير عائلتي ولكن هكذا هو قدري وأنا أيضًا لم أجدك تقترح حل أخر غير الذي قاله صادق
الضرائب القادمة ستحصد ما تبقي من رجال القبيلة ولن يبقي منا أحد
نظرله نظرة ماكرة وقال وهو يشير بيديه نحو البضائع المرصوصة حولهم
- ربما ستبقى أنت ولكن لن تطيق العيش بمفردك
قال خادع بتلهف
- من قال إني سأبقى بمفردي؟ سيبقى معي كل من يهمني أمره كل من دخل إلى طوعي
بل وسأتكفل به وبعائلته إلى النهاية
- ستتكفل به وبعائلته !! والله لولا لبن الماعز الذي أحضرته أم مريم أمس لكنت بت من غير عشاء ثم هب أني وافقتك على رأيك فقل لي كيف كنت ستواجه صادق ؟

أكنت ستعرض عليه رشوة هو الآخر؟ يارجل قاسم الذي يعمل في دكانك وخادمك المطيع وافق على ما قاله صادق وخالفك ولم تستطع أن تفعل شيئًا حيال هذا الأمر

اقترب راضي من خادع وقال
- اسمع يا خادع ربما أنا جبان ولكني لست مخادع وأمتلك عقل وصدقني لطالما غلب خوفي عقلي ولكن هذه المرة بالذات لم أجد مفرًا من الموافقة على ما قاله صادق، وأنت لابد أن تفعل ما يريده صادق وتلتزم بما يقول ففي النهاية رقابنا جميعًا تحت المقصلة ولن تنفعك سلة التفاح هذه في شيء لو وقعت تحت مقصلة الملك
تنحنح راضي وقال بابتسامة
- ما رأيك أن تعطيني تفاحة لمريم إنها لم تأكل منذ عشرين عامًا وتحيك ثوبا منذ نفس المدة وقد أعياها هذا الأمر؟
اعتدل خادع في جلسته وقد بدت ملامح الجدية عليه وهو يقول
- التفاح بخمسة
- التفاح بخمسة ألم يكن بقطعتين أمس، والله إن هذا التفاح لخبيث يتضاعف ثمنه بين يوم وليلة، قل لي يا خادع بأي عقل سماك أبوك خادع؟ ألم يكن يستطيع أن يسميك مثلًا عادل لكي لا يعرف الناس بسهولة ما أنت عليه..
نظر له خادع بشيء من الغلظة ولما رآه راضي على هذا النحو ذهب مسرعًا نحو داره.

كان صادق يمشي في السوق بهيبة ويحمل في يده عصًا ضخمة وكان عسكر الملك وبرغم سطوتهم يخشونه لا لشيء إلا لضخامة جسده وهيبته فلم يكن يجرؤ أحدهم أن يمسه بسوء فقد كانوا أحرص الناس على حياة ولطالما كان الذين يسعون في ضروب الباطل أحرص الناس على حياتهم
تقدم صادق نحو الدكان الذي كاد أن يبتلع السوق عن آخره وما أن رأه خادع حتى ظن أن صادق عرف ما يخفيه من علاقة قوية مع رجال الملك لذا اختبئ خلف رجاله وهو يرتعد من الخوف ورجاله كان يملؤهم الخوف هم الآخرين من صادق والشر الذي ينطلق من عينيه
التفت الناس في السوق إلى صادق وهو يتقدم نحو الدكان وفي قفاه كان قاسم يقول له بشيء من الهمس
- سوف يفتضح أمرنا لو تعرضت له بأي سوء سوف يصل الخبر إلى الملك وأنت ترى بنفسك عسكره وبصاصيه منتشرين في كل مكان، انظر إلى مصلحة القبيلة سوف تهدم خطتك في لحظة غضب

دخل صادق ووقف أمام الدكان فتجمع الناس حوله وهم لا يعرفون ماذا يحدث
تنهد صادق وأخذ نفسًا عميقًا من الهواء وقال بصوت جهوري يكاد يخترق الأسماع

- لقد فقدنا اليوم معنى العزة والكرامة فقدنا إنسانيتنا جميعًا، عندما يقود الجوع امرأة وأطفالها الثلاثة إلى الموت فهنا يجب أن نقف وقفة لا رجوع فيها
قفزت المرأة وأطفالها في البئر وغرقت وغرق معها شرفنا ولن نسترد جزء منه حتى نخرجها هي وأطفالها من البئر وندفنهم بجانب أبيهم
تعالت أصوات الرجال نقاشًا وأصوات النساء حزنا وبكاءً وقد فطنوا أن سندس قد ألقت بنفسها وأطفالها الثلاثة إلى الموت خشية أن ترى أطفالها يموتون جوعًا
نظر صادق حوله وقال بصوت شديد ارتجت منه القلوب
- من اليوم وحتى يوم جمع الضرائب لن تجوع عائلة ولن يموت طفل من الجوع فلكل بيت من بيوت القبيلة صاع من القمح أو ما يكفيها
وقد اتفقنا على ذلك نحن رؤوس العائلات أنا صادق وأخي قاسم وأخي راضي

وهنا ظهر راضي من بين الناس وقد نفخ صدره وهو ينظر لصادق
وأكمل صادق
- وقد تبرع أخونا خادع بكل هذا من حر ماله
نظر صادق ناحية الدكان وهو يقول بغلظة
- أليس هذا صحيح يا خادع؟
ظهر خادع من خلف رجاله وهو ينظر لصادق وطال صمته وهو يتأمل جموع الناس الواقفة والمتلهفة لرده ويرى أيضاً عيني صادق التي يملأها الغضب والتي قرأ فيهما مقتله لو لم يجب بما يريده لذلك قال بصوت لا يكاد يخرج
- نعم
لم يكن الناس ليصدقوا خادع ولو للحظة لولا وجود صادق وقبل أن يبالغ الناس في فرحهم وردود أفعالهم قال صادق

- والآن وقبل أن نأكل أو نشرب أو حتى نتنفس لنكرم أختنا الأبية العزيزة وأطفالها

كان قاسم واقف يراقب ردة فعل خادع الذي ذهل وكاد أن يجن وبدت منه ابتسامة رضا لما فعله صادق بخادع.
نزل صادق واتجه ناحية البئر وقد اتبعه جُل أهل القبيلة وقد حمل بعضهم حبالًا وقبل أن يختفي الجمع عن الأنظار جمع خادع رجاله وأمرهم أن يذهبوا ناحية المخازن ويحملوا ما يستطيعون حمله من البضائع إلى بيته قبل أن يعود الناس
أرسل صادق في طلب خادع الذي ارتبك وما لبس حتى وقف بجانبه أمام البئر وكان أحد الرجال يربط حبالًا قصيرة ببعضها حتى صنع حبلًا طويلًا ثم ربطه في جذع نخلة قريب من البئر، لم تكن مساحة البئر كبيرة لذا تكدس الناس من حوله وكان يقف بجانب صادق على يمينه قاسم وعلى يساره يقف خادع وقد كان يتصبب عرقًا أما راضي فأمره صادق أن يقف عند النخلة لمراقبة الحبل حتى لا يتمزق ويسقط من عليه هو الأخر في البئر

تأكد الرجل من سلامة الحبل ثم أعطاه لصادق، نظر صادق إلى البئر ثم ناول خادع الحبل وهو يقول
- أنت تعلم ماذا يجب أن تفعل تمسك الحبل ثم تنزل إلى البئر ولكن احرص ألا تنزلق واحرص أيضا أن تنزل ببطء شديد حتى لا يتمزق الحبل وتغرق وعندما تصل إلى قاع البئر انزل إلى الماء وابحث عن الأجساد الطاهرة واحملها جسدًا جسدًا على ظهرك واصعد ولتعلم ولتعلموا جميعًا أننا لن نذهب إلى بيوتنا حتى نستخرج الأجساد الأربعة
أمسك خادع الحبل ثم نادى على أحد الرجال الواقفين حوله والذي يعمل شيالًا في دكانه ولما وقف أمامه وقبل أن يتكلم أوقفه صادق وقال بغيظ
- بنفسك.. إما تنجو وتخرج الأجساد الأربعة أو تموت معهم
نظر خادع حوله باحثًا عن عسكر الملك ولكن لم يأتِ أحد منهم ناحية البئر فكلهم في السوق وفي شوارع القبيلة
بلع خادع ريقه ولم يجرؤ أن يناقش صادق فيما قال فقد تملك الخوف من خادع في هذا الوقت كما لم يحدث من قبل
وقف على حافة البئر وربط طرف الحبل الأخر حول بطنه وهو يرتعد ويكاد يصرخ من الخوف والغضب ثم بدأ ينزل ببطء وهو ينظر إلى عيني صادق بخوف حتى غاب عن الأنظار
كان الناس غير مصدقين ما يحدث، خادع أغنى أغنياء القبيلة ورأس عائلته يمتثل لأوامر صادق كأنه الملك وليس الذي يجلس على العرش هناك في قصر التل
رمق قاسم راضي ناحية النخلة فوجده منهمكًا في الكلام مع أحد رجال عائلته وقد ترك الحبل دون مراقبة وكان الحبل يهتز كلما أخذ خادع خطوة إلى الأسفل ناحية الماء ولما رأى قاسم الحبل هكذا يكاد ينفلت تركه ولم يخبر أحدًا
هبط خادع إلى الماء فوجده باردًا وقد كان أصابه الترف في السنين الأخيرة من جراء النعمة التي أنعمت عليه من حيث لا يدري لذلك كان الأمر شاقًا عليه أيما مشقة
وأخذ يرتعد من الخوف والبرد وأخذ يبحث عن أي شيء ولكنه فشل لوقت طويل ولما طال الوقت مال صادق ناحية البئر وقال
- ماذا وجدت يا خادع
فقال خادع بصوت يمتزج برجفة البرد
- لم أجد شيئًا حتى الأن
- انزل إلى الماء وابحث جيدًا
نزل خادع تحت الماء لمسافة ليست قصيرة وكان يبحث وهو غير مصدق ما يحدث له
وفجأة ارتطمت بقدمه جثة الرضيع وقد ضم يده على جلباب أمه وصرخ خادع تحت الماء ثم خرج إلى السطح وهو يقول
- لقد وجدت الأم ورضيعها
نزل إلى الجثتين مرة أخرى وشد الرضيع وأمه ناحيته وأخرجهما إلى السطح ولما صعد إلى سطح الماء وجد صادق بجانبه ففزع وأخذ صادق جثة المرأة منه وبدأ

يربطها بحبل آخر كان قد جلبه معه بجانب الحبل الملتف على بطنه ونادى في الناس وهو يحمل جثة المرأة وينظر لخادع الذي لا يزال يحمل جثة الرضيع وهو يقول له في اشمئزاز:

- نحن لا ندع الأغراب يحملون نسائنا
وبدأ الناس في أعلى البئر يشدون الحبلين ليخرج صادق وسندس إلى خارج البئر وما لبس أن تعالى صوت النساء نحيبًا وفرش الناس فراشًا على الأرض وضع صادق جثة سندس عليه وغطاها النساء واتجه ناحية البئر مرة أخرى ونادي في خادع
- الآن تمسك بالرضيع جيدًا واياك أن تفلته
وأخذوا يسحبون الحبل حتى ظهر خادع كأنه خرقة مبللة يحمل الرضيع بين يديه أخذه صادق منه ووضعه بجانب أمه وأمره أن ينزل مرة أخرى، نزل خادع بغير حول منه ولا قوة وأخذ يبحث في الماء طويلًا حتى كادت الشمس أن تغيب وحتى خارت قواه وبعد قليل صرخ خادع بصوت مبحوح أنه وجد الجثتين الأخرتين ولكنه لم يكن يقوى على الخروج بهما لذلك نزل رجلان إلى قاع البئر وربطا الولدين وقد أمرهما صادق أن يدعا خادع يحمل الجثتين مع مساعدة قليلة لو لم يستطع حملهما بمفرده ولما خرج خادع إلى أعلى البئر وهو يحمل الجثتين التقطهما الناس منه وفي سرعة غريبة كانوا يحملون الأطفال الثلاثة وأمهم نحو بيتهم تاركين خادع بمفرده جالسًا على حافة البئر وقد حل الظلام ولا يكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه والغريب أن رجال خادع نفسهم تركوه ولم يعبأوا به وذهبوا سيرًا على الأقدام متبعين باقي أهل القبيلة، كان مشهدًا جللًا اختلطت فيه ثورة الغضب مع دموع الحزن وألم رؤية الأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة موتى.
والغريب أنه لم يَلُم أحد قط الأم على ما فعلت من قتل نفسها وأولادها وذلك لأن الجميع قد ذاقوا مر الحاجة ومرار الفقر والجوع وربما قد حدثتهم أنفسهم يومًا أن يفعلوا مثلها ولكن أوقفتهم كسرة خبز أسكتت صوت بكاء الأطفال أو أملًا في غد مختلف.

وصل خادع بيته وقد بلغ من الضيق والغيظ ما بلغ وكان يمر بين أقفاص الفاكهة والخضروات وأجونة الأرز والقمح والذرة في مدخل بيته والتي جلبها عماله كما أمرهم والتي من كثرتها لم يستطع أن يفتح باب البيت بسهولة.
وعندما وصل قابلته خادمته زينب العجوز وما أن رأها حتى لطمها على خدها ودفعها فوقعت على الأرض وهي تصرخ.
خرجت حسناء من الداخل على صراخ زينب ولم تقل شيئًا فقد رأت في عيني زوجها وفي ملابسه المبتلة ما يكفيها لتفهم.
أمسك خادع بالخادمة وظل يلطمها لطمات قوية بغيظ وشيء يشبه الجنون وهو يقول
- أيها الرعاع أنتم مخلوقات لابد أن تباد أظننتم لحظة أنكم ستجلسون على ما نجلس وتأكلون ما نأكل وتنعمون بما ننعم؟ هيهات أن تفعلوا!
إن أمثاكم لو لم يكونوا أنعامًا لنا فلن يكونوا إلا تحت التراب.

لم تفهم زينب ما يحدث وما ذنبها ولم تفهم ماذا فعلت لتتلقى كل هذا.
دخل خادع إلى غرفة مجاورة وأحضر سوطًا وكانت زينب تنظر لحسناء مستجيرة ولكن حسناء آثرت أن تصمت حتى لا ينالها بعض ما ستناله زينب.
أخذ خادع يضرب زينب لنصف ساعة كاملة لا يكاد يستريح دقيقة حتى يرجع لضربها مرة أخرى
نزفت زينب دماءً كثيرة وبعد أن كانت تصرخ في بداية الأمر صمتت فجأة
فمسح خادع العرق من جبينه وترك زينب غارقة في دمائها ودخل إلى غرفته
لم تدرِ حسناء ماذا تفعل ولكنها سرعان ما نادت على الخدم ليحملوا زينب إلى غرفتها داخل المنزل.
بعد قليل من الوقت دخلت حسناء إلى خادع وأغلقت الباب خلفها ثم اقتربت منه وكان جالسًا على سريره بملابسه المبتله ووجهه الشاحب وبادرته قائلة
- لقد ماتت زينب.
التفت إليها وقد هاله الخبر وقال وهو يشير بيديه:
- ماتت ماتت؟
- نعم لفظت أنفاسها الأخيرة منذ لحظات..ماذا سنفعل؟
بلع خادع ريقه وقال في نفسه (لو علم صادق سأُقتل لا محالة)
وبعد تفكير قال:
- نادي على الخدم.
نادت حسناء على الخدم فأتوا من فورهم ثلاثة رجال يبدو على ملامحهم أنهم ليسوا من أبناء القبيلة أو المملكة كلها هم أصحاب ملامح أسيوية متجهمين وعابسي الوجوه.يبدو أن خادع كان يختار رجاله بدقة على الدوام
- خذوا زينب وادفنوها في الصحراء واحرصوا على ألا يراكم أحد
حمل الثلاثة رجال جثة زينب وفي ظل انشغال الناس بدفن سندس وأبنائها كان خدم خادع يسيرون في ليل القبيلة المعتم ومن خلال شوارعها الضيقة ساروا حتى وصلوا إلى حدود القبائل الأخرى وبجوار البئر التي أخرجوا منها سندس وأبناءها وعلى بعد أمتار قليلة حفروا ليدفنوا زينب هي الأخرى لتذبح الرحمة مع كل ضربة فأس تحفر لتدفن المظلومين.

قالت حسناء بتردد:
- ماذا بك يا زوجي العزيز لم أركَ هكذا من قبل لقد قتلت المرأة؟
قال بارتباك شديد:
- لم أقصد أن أفعل ولكنه السبب.
عقدت حاجبيها وجلست وهي تتنهد:
- لاشك أنك تتحدث عن صادق
وضع خادع يده على رأسه وهزها في ألم ولم يتكلم.اقتربت منه حسناء وربتت على كتفه:
- ربما حان الوقت.

نظر لها خادع من خلف يديه التي ما زالت على رأسه وقال:
- ليس الآن هذا آخر ما أقوم به فبعد أن تنفد جميع الحيل حينها سأخبر الملك وبنفسي ولكن الآن هناك أمر أخير سأفعله لا محالة .
نظر لها وعينيه تتقدان شرارًا وقبل أن يكمل سمع صوت خدمه في الخارج فخرج إليهم مسرعًا ووقف الثلاثة يرمقونه وقد اتسخت أقدامهم وملابسهم فبادرهم خادع
- هل رأكم أحد؟
فقال أحدهم:
- لم يرنا أحد ونحن ندفن زينب ولكننا قابلنا قاسم ونحن عائدون وأخذ يستجوبنا كأننا أمام قاضٍ فسألنا عن ملابسنا المتسخة وعن سبب خروجنا في هذا الوقت من الليل وبرغم أننا قلنا له أننا كنا نتبع الجنازة وخفنا أن نتأخر عن مولانا خادع لذا رجعنا من طريق مختلف غير ممهد إلا أنه لم يصدق هذا الأمر و مشينا من أمامه وكله شك في أمرنا
- وأين دفنتم زينب
- بجوار البئر
ظهرت على ملامح خادع المفاجئة
- أي بئر؟
- البئر الذي غرقت فيها المرأة وأولادها اليوم
غضب خادع واحمر وجهه وأخذ يضرب في ثلاثتهم بعنف
- يا أغبياء البئر الذي يشرب منه أبناء قبيلتنا والقبائل المجاورة ستفضحون أمرنا بئس العقول عقولكم.
هدأ خادع بعد قليل ثم استطرد:
- حين ينتصف الليل سأخرج معكم لكي ننقلها من هذا المكان إلى الصحراء والآن أغربوا عن وجهي ولا أحد ينام منكم حتى ينتهي هذا الأمر.
أسرع الخدم إلى الداخل وظهرت حسناء قادمة من غرفة النوم وهي تقول بغضب
- وماذا فعل هذا الأحمق اليوم بك وما هذه الثياب المبللة؟
تنهد خادع واتسعت عيناه وعض شفتيه بأسنانه بعنف ثم قال بعد أن تملك الغضب منه:
- لقد أهانني اليوم إهانة لا يمحوها إلا الدم، لقد أرغمني بكل بساطة أن أخلع ملابسي وأنزل للبئر أبحث عن المرأة المعتوهة وأبنائها طوال النهار في البئر ورفض أن ينزل أحد رجالي مكاني ورفض حتى أن يساعدني أحد وقبل ذلك بقليل كان قد فرض عليا ضرائب كما يفعل الملوك برعاياهم، صاع من قمح أو شعير لكل بيت من بيوت القبيلة حتى موعد جمع الضرائب كل يوم.

شغرت حسناء فمها ولم تصدق:
- ولماذا لم ترفض؟
- أرفض! وكيف لي أن أفعل لقد جمع كل القبيلة وقال بدهاء أن هذا الأمر إنما هو اقتراحي أنا وعن طيب خاطر مني ولم أجد مناصًا من الموافقة.

ثم أني لم أكن أستطيع إلا ان أوافق فقد كان غضبان، رأيت في عينيه أنه إما أن أوافق أو سيقتلني فلم أجد مفرًا من الموافقة بعد أن تملكني الخوف من ردة فعله،
قالت حسناء:
- كلما اقترب موعد الرحيل الذي فرضه زاد قوة وجرأة علينا، لابد أن تخبر الملك غدًا في الصباح لم يعد هناك وقت لنضيعه
نظر لها وقد أحس أن كلامها أقرب إلى منطقه من أي شيء أخر ولكنه أسر أمرًا أخر في نفسه فهمته حسناء وظهرت ابتسامة خبيثة على وجهها حينما قال لها
- ارسلي أحد الخدم في طلب مكران من الجبل
مكران هذا رجل بلا قلب، قوي البنية طويل أصلع الرأس تتقد عيناه شرارًا في غضبه وفي فرحه، رجل يقول عن نفسه أنه في صغره انتزع قلبه بيديه وأكله كوجبة غذاء لذا هو يقتل بلا رحمة مقابل المال.

في تلك الأثناء كان أهل القبيلة قد عادوا من دفن سندس وأطفالها وقد ساد على القبيلة حزنٌ شديدٌ وخوفٌ من المستقبل المظلم، لو دخلتَ بيوت القبيلة بيتًا بيتًا في هذه الليلة لوجدت كل أم وأب وقد ضموا أطفالهم خوفًا وتنزل دموعهم على رءوس الأطفال ولا تنتهي حسرة الخوف والألم بالنوم فتلاحقهم في أحلامهم تدور عليهم ولا تتركهم إلا وتكاد أرواحهم تخرج من بين ضلوعهم هكذا عاش أهل قبيلة الرعاع (الرجال سابقًا) ألم الذل والخوف وهكذا أراد صادق أن يغير كل هذا، أراد أن تأمن كل أسرة على أولادها وكل زوجة على زوجها أراد أن يتذوق الجميع طعم الحرية وطعم الحياة.

حينما انتصف الليل خرج صادق كعادته متلحفًا بغطاء يخفي ملامحه يسير بين شوارع القبيلة لا يرغب في أن يراه أحد متجهًا نحو بيت الشيخ ثابت الذي فيه سيجتمع كما يجتمع كل ليلة منذ شهر مع رؤساء قبائل المملكة للتشاور في أمور المملكة والملك الظالم ورجاله ولم تكن قبيلة الرعاع هي القبيلة التي تعاني فقط من قبائل المملكة وإن كانت أكثرها معاناة إلا أن القبائل الأخرى لم تسلم من ظلم الملك وحاشيته ونالها من الظلم ما اقتُسم لها منه وفي الوقت نفسه الذي كان يسير فيه صادق كان خادع يسير ورجاله بجانبه في شارع جانبي يتوارون هم الأخرين عن الأنظار ولكن لعلة أخرى لا يروا بعضهم ولكنهما في النهاية لو ظلا يسيران على هذا النحو فسيلتقيا لا محالة عند البئر وكلاهما يختبئ من الآخر ولا يرغب في رؤيته يفعل ما يفعله وفي خضم هذا الصراع المحتدم والذي لا يدري به الطرفان سُمع صوت جلبه آتية من عند البئر وبمجرد أن سمعاها اختبأ كل منهما خلف المنزل نفسه أحدهم على يمين المنزل والآخر على يساره ينظرون ماذا يحدث عند البئر كان عسكر الملك الموكلون بحراسة حدود قبيلة الرعاع قد ذهبوا ناحية البئر ليشربوا وكانوا خمسة رجال وبرغم العلاقة الطيبة بينهم وبين خادع إلا أن خادع آثر ألا يرونه حتى لا يعرفون ماذا يفعل أو يتسرب الخبر ولم يكن خادع يخشى أن يتسرب خبر ما فعل بزينب للملك أو لقاضي المملكة وإنما يخاف أن يعلم صادق ما حدث لزينب وعندها سيكون مصيره الموت لا محالة على يده.

ظل الطرفان مختبئين وظل عسكر الملك واقفين يتسامرون ويُسمع ضحكاتهم عند البئر وبعد مرور قليل من الوقت تحرك العسكر ناحية الجهة الأخرى عازمين على العودة لاحقًا وما أن رآهم صادق حتى تحرك من مكانه وتبعه خادع ورجاله يسيرون بشيء من الهمس وما كاد خادع أن ينظر إلى يمينه حتى وجد رجلًا متلحفًا بغطاء يُخفي ملامحة وما كاد أن يراه حتى أشار إلى خدمه بالاختباء ولم يرهم صادق بل سار ناحية البئر عابرًا حدود القبيلة وعندما تأمله خادع عرفه برغم الغطاء الذي على وجهه وأمر رجاله بالسير ناحية مكان دفن زينب ولمح صادق يسير في الصحراء الفاصلة فازداد ارتيابه وشكه وأمر أحد خدمه الثلاثة أن يتبع صادق ويعرف أين يذهب ويعود ليخبره ماذا حدث، تحرك الخادم خلف صادق ببطء حتى لا يراه ووقف خادع على رأس الخادمين الأخرين وهم يحفرون بجانب البئر ويخرجا جثة زينب وما أن أخرجاها حتى تبعوا خادع إلى الصحراء في منطقة مهجورة خارج القبيلة وأخذوا يحفرون حفرة عميقة ليواروا جثة زينب تحت رمال الصحراء.

يالها من مسكينة هي لا تدري لماذا قُتلت وما الذي ارتكبته لتلقى هذا المصير ولم يحس خادع بأي ندم وهو يرى وجهها الذي تخضب بالدماء وملابسها التي تقطعت من أثر نزول السوط عليها ولم يبالِ بمصير حفيدها من ولدها الذي قتله رجال الملك منذ عام ذلك الولد ذو العشرة أعوام والذي ربما هو ينتظرها الآن لتأتي له بطعامه

والذي لم يعد له من يعوله وبعد أن مر وقت طويل قذف رجاله بجسد زينب في الحفرة التي حفروها وشرعوا في ردمها وما أن اطمأنَّ خادع لما يحدث تركهم وعاد إلى منزله بعد أن أخبرهم بأن يتأكدوا من إخفاء معالم آثارهم من المكان.

سار صادق بمفرده في الصحراء متجهًا إلى بيت الشيخ ثابت ولا يزال خادم خادع يتبعه بحذر ومن بعيد التفت صادق خلفه فجأة بعد أن أحس أن هناك حركة خلفه وأخذ يتأمل الظلام المعتم في حين أن خادم خادع توارى خلف صخرة وأخذ يراقب صادق الذي يأس أن يرى شيئًا في هذا الظلام وأكمل طريقه وبعد أن اطمأنَّ الخادم أن صادق لم يره تبعه حتى دخل إلى منازل وخيم قبيلة السلام ثم إلى بيت الشيخ ثابت، التف خلف البيت الذي كان يحرسه عدة رجال يحملون مشاعل من نار وبين ثنيات نافذة شبه مغلقة خلف البيت نظر الخادم إلى داخل البيت ليجد العديد من الرجال الذين لا يعرف معظمهم ولكن ما أثار انتباهه وجود الشيخ ثابت كبير قبيلة السلام والشيخ عبدالقادر العوني كبير قبيلة المواريد وبلال وأسامة أبناء الشيخ القواني كبير قبيلة الخُلج والذي قتل منذ شهور قليلة بيد رجال الملك وعرفهم الخادم لشهرتهم بين أبناء القبائل الأربعة.
جلس الرجال يتوسطهم صادق الذي لايزال لم يلتقط أنفاسه بعد في حين بادره الشيخ ثابت يقول له وهو يربت على كتفه
- علمنا ما حدث للمرأة وأطفالها اليوم...حادثة مفزعة ولكن ما الذي دعى تلك المرأة على الإقدام على هذا الأمر..ذلك يعد كفر برحمة الله
بلع صادق ريقه وأخذ نفسًا من الهواء وهو يقول:
- الجوع. يا شيخ ثابت..الكفر برحمة البشر وليس رحمة الله ثم لا تنسَ أن الناس في قبيلتنا أكثر الناس ابتلاء من جُل قبائل المملكة، كسرهم الجوع والخوف وقلة الحيلة وقتلهم الخوف على أطفالهم
قال الشيخ ثابت:
- ولكن هذا ليس كافيًا أن تقتل نفسك وأولادك
وهنا قاطعه الشيخ عبدالقادر العوني الشيخ المسن ذو اللحية البيضاء العريضة المختلطة بالحمرة الذي بلغ عامه السابع بعد المائة في رصانة وهدوء الخبير
- عندما يقف رجل بسكين عريض حاد يريد أن يقتل أبناءك في بيتك وأمام باب البيت ذئب جائع وفي السماء طائر جارح سيختطف أبناءك عندئذ ستقفز في البئر يا شيخ ثابت.
لم يفهم الشيخ ثابت ما أراد أن يقوله الشيخ عبدالقادر ولكنه واحترامًا لسنه لم يشأ أن يناقشه في الأمر ولكن صادق ابتسم للشيخ عبدالقادر وقد فهم ما أراد أن يقول وأضاف:
- نعم يا شيخنا لقد حاصرها الخوف والجوع والحزن والألم فقفزت في البئر وأنا أرجو من الله أن يتغمدها في واسع رحمته وفضله.
تعالت أصوات الرجال دعاءً لسندس وأبنائها بالرحمة وهدأت الجلسة حتى قال بلال بحماس منقطع النظير:

- والآن فلنكمل حديثنا حول ما سيحدث بعد غد.
وتابعه في حماسة لا تقل عنه أخوه أسامة:
- نعم نفسي تطوق للانتقام.
كان الخادم لا يزال يستمع للحديث بانصات وهو يتكئ على النافذة ولما استغرق في الاستماع وكان البرد قد خالج أنفه فعطس ولما عطس التفت إليه الرجال داخل الغرفة وفتحوا النافذة ليجدوه قد قطع الطريق جريًا موليًا دبره ناحية الصحراء فأمر الشيخ ثابت رجلين من الرجال الواقفين أمام المنزل ملاحقة الرجل وأمرهم ألا يعودوا إلا به وارتبك الرجال وظنوا الظنون فقال أحدهم: لا بد أنه أحد بصاصي الملك وسيخبر الملك بكل شيء وقال آخر:أنه ربما أحد المجاذيب وكان يدور بين القبائل يلتمس طعامًا.
ولكن الشيخ ثابت هدأ من روع الجميع وقال إنه لا خوف عليهم من هذا الأمر وحتى لو كان هذا الرجل أحد بصاصي الملك فإنهم لم يسترسلوا في أي شيء وسيظل الأمر مبهًما
وبعد مرور قليل من الوقت عاد الرجلان وكانا لا يستطيعان التقاط أنفاسهما وقال أحدهم أن الرجل دخل إلى حدود قبيلة الرعاع ولما حاولا الدخول إلى القبيلة طاردهما عسكر الملك وهربا منهم بأعجوبة بعد أن دخلا في الصحراء وأتيا من طريق آخر لتضليل العسكر وهنا قال صادق وقد بدت الدهشة والقلق على وجهه
- عندما كنت في الطريق إلى هنا أحسست أن أحدًا يسير خلفي ولكن الظلام، اللعنة على الظلام تمعنت النظر خلفي ولكن لم أرَ شيئًا، لابد أن أحدهم تبعني حتى وصلت إلى هنا، هذا أمر جد خطير، لو كان هذا أحد بصاصي الملك فقد عرف على الأقل مكان اجتماعنا وسيصبح اجتماعنا هنا غدًا غير محمود العواقب أو...
سرح صادق بخياله للحظات ثم قال بصوت ضعيف وكأنه يحدث نفسه
- أو ربما هو شخص آخر..نعم ولمَ لا؟
فقال بلال في قوة:
- لم يعد يخيفنا شيء ولا تقلق نحن وراءك وفي ظهرك حتى النهاية
فقال صادق وقد بدا متوترًا:
- الأمر لم يعد في ولا فيكم الأمر أصبح مستقبل المملكة كلها
الآن لابد أن نغادر جميعًا إلى بيوتنا وبعد غد موعدنا كما نحن أما غدًا فسأرسل للشيخ ثابت والشيخ عبدالقادر وأسامة وبلال رسالة خاصة مكتوبة توضح ما بقي من أشياء ما زالت غائبة .المهم أن يتأهب الجميع وليكن الله معنا
تعالت الأصوات جميعها..ليكن الله معنا..

رجع صادق من طريق مختلفة غير الذي أتى منه وقد كان أكثر حذرًا هذه المرة وينظر حوله كثيرًا وجلس بجانب صخرة منتظرًا أن يعود عسكر الملك إلى طريق

البئر ليتسنى له الدخول مرة أخرى وظل منتظرًا عند الصخرة حتى وجد من يرتطم بالصخرة من خلفه فجأة ففزع صادق ونظر للرجل المتلحف ولا يظهر منه إلا عيناه اللاتان ينبثق الشر منهما انبثاقًا جعل قلب صادق يوجل بعض الشيء وقال بهمس:
- من أنت يا رجل؟ وماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟
أجابه الرجل بصوت غليظ:
- هذا ليس من شأنك ولكن ما دام نحن هنا أنا وأنت مختبئين خلف الصخرة نفسها ونغطي وجوهنا بنفس الطريقة فغالبًا أنت لص أما أنا فلص أيضًا ولكن الفارق بيني وبينك أنك تسرق بعض الشعير بعض القمح بعض كسرات الخبز أما أنا فأسرق الأرواح.
نظر صادق ناحية جنود الملك وكان يريد أن يقبض على هذا الرجل أو يمنعه على الأقل من الدخول إلى القبيلة ولكنه لم يستطع أن يفعل فسأله ليتبين أمره:
- ما هو اسمك يا هذا؟
- لا أحتاج أن أذكر اسمي فعينايا تفضحاني دائمًا ولكن من الواضح أنك لست من هذه البلاد وإلا لعرفتني.
مد الرجل يده وكشف عن ملامحه المرعبة وشاربه الكث وشفتيه الغليظتان وقال وقد اشرأبت رقبته وازداد صوته غلظة:
- أنا مكران.
عرفه صادق قبل أن يلفظ اسمه بمجرد أن أبعد الغطاء عن وجهه وقد تملك الغيظ منه وقد أراد أن يفتك به ولكنه لم يستطع لوجود رجال الملك فقال مكران وهو موشك على الرحيل:
- أنصحك أن تذهب من هنا هذه أفقر قبيلة في كل قبائل المملكة وربما مت من الجوع أنت الآخر لو ظللت تبحث طوال الليل عن أي شيء تأكله فحتمًا لن تجد.
ذهب مكران في اتجاه آخر ورأه صادق يدخل القبيلة من الجهة المقابلة وقد كاد صادق أن يلحق به لولا أن رأى عسكر الملك يتحركون ناحية البئر فخاف أن يراه أحدهم فدخل إلى القبيلة نحو بيته.
وقبل أن يُخرج مفتاح البيت فُتح البيت من تلقاء نفسه، إنه مخلص أخو قاسم، قابله بوجه مبتسم وهو يقول له:
- الشباب في انتظارك منذ ساعتين أو يزيد.
دخل صادق إلى بيته ليجده عامرًا بشباب القبيلة الذين تأهبوا لبعد غد.
وقبل أن يقول كلمة قال أحد الشباب المتحمسين:
- الذي فعلته بخادع اليوم أفضل ما رأيت في حياتي لقد زدتُ بك إعجابًا وزدتُ بأفكارك تمسكًا.
جلس صادق يلتقط أنفاسه ونظر حوله في عيون شباب القبيلة الذين يبلغ أكبرهم سنًا أكثر بقليل من عشرين عامًا وأقلهم خمسة عشر عامًا أو يزيد وابتسم وهو يقول:
- أنتم مستقبل هذه المملكة بيدكم سيحدد كل شيء، أنا فخور بكم وبوقفتكم
وما دام ستتمسكوا بالحرية حتى الموت لن تنخفض جباهكم أمام جبروت ظالم ولن تركعوا إلا للذي فطر السماوات والأرض.

ولتعلموا جميعًا أن ما فعلته اليوم لم يكن شجاعة مني فقط ولكن لعلمي أنكم جميعًا معي وأنكم مخلصون لقضيتكم مؤمنون بها وسواء أنا موجود أم لا لا بد أن تَعِدوني أنكم ستكملون الطريق لآخره مهما كان صعبًا ومهما وضعوا لكم من عثرات.
إيمانكم سينقذكم من أهوال الوقوع في فخ العبودية ولا سبيل لكم للنجاة إلا بنيل الحرية ولا حياة تلذ بالأغلال حول الرقاب والأيدي والأرجل.

كانت كلمات صادق دائمًا بمثابة طوق النجاة بالنسبة لهؤلاء الشباب الذين كفروا بظلم الملك واحتكار خادع للسوق وكانوا يكرهون خادع أكثر مما يكرهون الملك وكانوا جميعًا يتفقون أن خادع هو أظلم من الملك لأنه هو الذي ضيق على الناس عيشتهم وجعلهم لا يستطيعون جمع الضرائب على الرغم أنه منهم وهو كبير عائلة من أربع أضلاع في القبيلة لذلك حفزت كلمات صادق أحدهم أن يقف ويقول:
- أنا أرى أن يُقتل خادع قبل الموعد فهو لا شك سيخبر الملك بكل شيء وأنا سأفعل ذلك بنفسي لو أمرتني.
قالها ونظر لصادق الذي ابتسم له وقال:
- لو أردت أن أقتل خادع لفعلت منذ زمن وقد كنت اليوم قريبًا من ذلك بعد أن رفع أسعار البضائع وقذف بسندس إلى طريق الموت ولكني أحتاجه وأحتاجه بشدة فهو جزء مهم في الخطة.
قال مخلص بعد أن فكر قليلًا:
- كنت أتحدث مع قاسم أمس وقد قال إنه يشك في أن خادع له علاقة وطيدة برجال الملك ومن مصلحته أن تستمر تجارته هنا ويبقى المستفيد الأول من إفشال الخطة هو خادع نفسه فلن يسكت وسيخبر الملك في أقرب وقت:
قال صادق بابتسامة:
- أتعرف يا مخلص أن أخاك قاسم هذا أكثر من يحيرني لم أرى في حياتي أنبل منه ولا أحقر منه لم أرى قلبًا طيبًا مثل قلبه ولم أرى في قسوته في موضع آخر، أحيانًا يكون أشجع الشجعان وأحيانًا أخرى يكون أول الفارين! احترت في أمره كثيرًا!

تنهد وأكمل:
- ولكن اطمئن ولا تخف من خادع إن شاء الله لن يضيعنا الله، فقط لا بد أن يلتزم كل واحد منكم بما أُوكل له ولا يخشي شيئًا إلا الله.
والآن هناك أمر خطير يسري في القبيلة الليلة أريد منكم أن تنتشروا بين بيوت القبيلة وخيمها وتحرسوا القبيلة وتكون عيونكم كالصقور وآذانكم تسمع دبيب النمل لأني رأيت رجلًا يدعى مكران يدخل إلى القبيلة ولم أستطع منعه وهذا الرجل قاتل يستأجره الناس ليقتل بلا قلب.
أنا أعلم أن هذا الأمر ليس له علاقة بخطتنا ولكن مهمة تأمين القبيلة من الشرور هي مهمتنا أيضًا ومهمتكم أنتم بالذات معشر الشباب أن ينام الناس آمنين في ظل وجودكم لتأمينهم لهو شيء ستفخرون به طوال حياتكم وحين تشرق الشمس فلتذهبوا لبيوتكم جميعًا وموعدنا غدًا في الليل لمراجعة كل شيء.

وقف الشباب وتأهبوا لتنفيذ ما أراده صادق وخرجوا كما تعودوا دون إصدار صوت، واحد بعد واحد حتى لا يراهم أحد وانتشروا هذه الليلة في شوارع القبيلة يحرسونها وقد نام الجميع وقد أحسوا إحساسًا رائعًا ينتابهم فهم يؤدون ما عليهم من واجب تجاه عائلاتهم ويقفون وقفة لم يقفها رجال في أضعاف أعمارهم.
وكان مخلص قد تجرأ وذهب ناحية بيت خادع لأنه كان يعلم من داخله أن جميع الشرور التي حدثت في القبيلة وسوف تحدث في المستقبل لا بد أن يكون وراءها خادع أو على الأقل هو الذي ينفخ في النار لتشتعل ولذلك ذهب متسللًا إلى بيت خادع يرقب الطريق عن بعد وما لبس حتى وجد وهو مختبئ رجلًا ملثمًا يطرق بيت خادع بطرقات قوية، علم مخلص من فوره أن هذا هو مكران الذي أخبرهم صادق عنه وسرعان ما فتح الباب ودخل مكران إلى البيت ليخرج بعده خادع ينظر يمينًا ويسارًا ليتأكد أنه لا أحد يرى ما يحدث.أغلق الباب بعدها وبعد لحظات تحرك مخلص مقتربًا من البيت محاولًا أن يستمع لما يحدث ولكن بيت خادع كان شاهقَ الطول يبدو بين بيوت وخيم القبيلة كقصر ولما يأس مخلص أن يستمع إلى شيء حاول أن يتسلق والتف حول البيت يبحث عن أي شيء يحاول أن يستند عليه وبالفعل وجد قطعة خشبية ليست قوية بالقدر الكافي ولكنها ستحمل جسده الضعيف وحاول جاهدًا أن يتسلق لكنه وقع في أول مرة ولما حاول مرة أخرى نجح بصعوبة وحينما حاول أن يقترب من أقرب نافذة ووقف خلفها يستمع لما يحدث سمع كلمات غير واضحة وحوار بين رجلين أو ثلاثة.. زينب...دفن الجثة.. صادق وبيت الشيخ ثابت.يدبرون أمرًا ما !
تلك الكلمات جعلت قلب مخلص يدق بسرعة رهيبة وبدا الأمر كأن كل شيء انكشف ولكن ما علاقة زينب الخادمة بكل هذا؟ هكذا قال في نفسه وهو يكاد يقع متمسكًا بقطعة من الخشب وبعد أن يأس أن يسمع كلامًا محددًا نظر من بين فرقات النافذة ليكتشف أن هذه الغرفة ما هي إلا غرفة خدم خادع، استاء من الأمر أشد استياء ونظر إلى نافذة متاخمة لهذه النافذة ووجد بصيصًا من نور يأتي من خلالها وبدأ يتحرك ناحيتها عسى أن يجد خادع ومكران في هذه الغرفة وما كاد يتحرك خطوة حتى سقط على ظهره مرتطمًا بالأرض بشدة، تألم أشد الألم ولحسن حظه أنه استطاع أن يكتم تأوهاته ولم يسمع مَن بالداخل صوت ارتطامه بالأرض، ولما حاول أن يقف على قدميه لم يستطع، هدأ قليلًا وبدأ يفكر وسرعان ما بدأ يزحف على الأرض عدة خطوات وهو يتألم بشدة وما كاد يكمل طريقه حتى وجد من يقف عند رأسه، رفع مخلص رأسه ليجد قاسم يمسك بلجام حماره ويجر عربته وينظر لمخلص بغضب:
- ماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة يا مخلص؟
- حملني أولًا وسوف أخبرك بكل شيء في البيت.
- ولماذا تزحف هكذا وتتأوه؟
- لقد وقعت من فوق بيت خادع.

بدت الدهشة والارتباك على وجه قاسم ونظر حوله في قلق وسرعان ما حمل أخاه إلى العربة المحملة بالفاكهة والقمح متجهًا إلى البيت.
كان مخلص مستلقيًا على ظهره ينظر للسماء الملبدة بالغيوم ثم تحسس أسفل منه وأمسك بتفاحة نظر إليها وقال لأخيه المشغول في قيادة العربة بينما يلتفت خلفه وينظر يمينًا ويسارًا بخوف:
- أين كنت في هذه الساعة المتأخرة يا قاسم ومن أين حصلت عل كل هذه الأشياء
قال قاسم بجرأة:
- أخذتها من مخازن خادع.
باستغراب قال:
- الآن في هذه الساعة!
قال قاسم بغضب:
- أنا أفتح المخزن بمفتاح معي في جيبي ولا أتسلق بيوت الأوغاد وينكسر ظهري وأنا أقوم بذلك..ماذا كنت تفعل؟ أصادق أمرك بهذا؟
- لا يا أخي لم يأمرني أحد إنما أمرنا صادق أن ننتشر في القبيلة لنحميها من رجل يدعي مكران دخل إليها في الليل.
- مكران القاتل؟
- نعم.
أنت قلت أمرنا من تقصد أيضًا؟
ارتبك مخلص وحاول أن يغير الموضوع، فقال بسرعة:
- لقد وجدت مكران يدخل بيت خادع.
توقفت العربة من تلقاء نفسها والتفت قاسم لأخيه وقد اتسعت عيناه وظل ينظر إليه وفي عينيه خوف وطال تفكيره وهو لا يزال ينظر لأخيه الذي بادره:
- عندما تسلقت البيت سمعت الخدم يتحدثون عن زينب الخادمة وعن جثة ما؟
زاد اندهاش قاسم وقال بغضب:
- اسمع يا مخلص من الآن وحتى بعد غد غير مسموح لك أن تغادر البيت.
فرد مخلص في لهفة:
- لا لا.لا أستطيع لا بد أن أخبر صادق بكل شيء.
- اطمئن سأخبره أنا بدلًا منك.
لا شك وبرغم خوف صادق على أخيه الصغير إلا أنه كان مبهورًا بما يفعله طفل في الخامسة عشرة من عمره ومن جرأته وسلامة منطقه وأحس قاسم لبعض الوقت بأن نمط حياته الذي يعيش وطريقة تفكيره لابد أن تتغير.

وفي تلك الأثناء كان خادع يجلس بجانب مكران وأمامهما وليمة أعدها الخدم
كان مكران ينهش في اللحم بنهم ويأكل كما يأكل الأسد وكانت تعلو شفتي خادع ابتسامة وقد أدرك أنه سيطر على كل شيء وأن ما رغب فيه طوال حياته قد حان أن يحدث وبعد أن فرغ مكران من طعامه أتى الخدم بطبق فاكهة لا يُرى إلا في قصور الملوك، أمسك مكران بتفاحة وقضمها وهو يقول:

- إذن مَن تريد أن تقتل ومتى؟
اقترب خادع منه وقال:
- متى؟ الليلة أو غدًا على أقصى تقدير. ومن؟

أمسك بثمرة فاكهة أخرى وناوله إياها بابتسامة:
- صادق
قضمها مكران مبتسمًا:
- أحب هذا الشر الصافي الذي في عينيك لكن أنت تأخرت كثيرًا في طلبك هذا فقد ظننت أنك ستطلبه مني منذ عام أو أكثر.
أسند خادع ظهره وتنهد:
- كل شيء بأوانه.
- نعم أعلم أن كل شيء بأوان، فأنا خادمك الأمين ولكن الثمن هذه المرة مختلف.
- سأعطيك مائة قطعة ذهبية.
ضحك مكران ضحكة عالية وهو يقول:
- هذا ثمن دفعته أنت في شيخ عائلتك رحمه الله الذي أمرتني أن أقتله وأصبحت أنت زعيمًا للعائلة.
أما صادق فبموته ستصبح أنت زعيم القبيلة كلها وسينتهي أمر من يقف أمام سياساتك في السوق إلى الأبد.
فكر خادع قليلًا قبل أن يقول:
- وماذا تريد؟
وضع مكران بعض حبات العنب في فمه وقال:
- ألف.

لم يقل خادع أي شيء ظل يفكر وهو يرقب عيني مكران الثاقبتين ويراقب حركة شفتيه وهي تلتهم الفاكهة بنهم ثم قام إلى داخل البيت وغاب قليلًا وأتى وفي يديه سرر ممتلئة بالقطع الذهبية رماها أمام مكران.
ثم قال:
- قبل فجر غد تزف جثة صادق إلى القبر.
حمل مكران المال بين يديه ولف الغطاء على وجهه وقبل أن يرحل مد يده وتناول ثمرة أخرى وهو يقول بتصنع:
- رحمك الله يا صادق نعم الرجال أنت.
وغادر من فوره.

أرسل خادع في طلب خادمه الذي مشي وراء صادق ولما مثل أمامه وكان مرتبكًا لأنه وبرغم مكوثه مدة ليست بالقصيرة يستمع للحوار الدائر بين صادق والرجال

الذين كانوا معه إلا أنه لم يستوعب شيئًا مما كان يحدث ولما لم يتحدث نهره خادع وأمره بالكلام فقال بتلعثم:
- لقد تتبعته حتى وصل إلى بيت الشيخ ثابت وهناك كان يجلس مع رجال كثر لم أعرف منهم إلا الشيخ عبدالقادر العوني والشيخ ثابت كانوا يتحدثون عن المرأة التي انتحرت وأبنائها في البئر اليوم ولم أتبين شيئًا آخر.
قام خادع وأمسك خناقه وهو يقول:
- لقد مكثت هناك وقتًا طويلًا وأظنك عرفت أكثر تذكر جيدًا وإلا قتلتك.
قال وهو لا يكاد يستطيع أن يتنفس
- لم أستطع أن أتبين شيئًا آخر لقد كادوا أن يمسكوا بي لولا أني هربت في آخر لحظة
تركه خادع وقد تغيرت ملامحه واتسعت عيناه:
- هل رأك أحد؟
أجابه الخادم في سرعة
- لا لا لم يرني أحد لقد فررت منهم ولم يعرفني أحد.
جلس خادع وفكر قليلًا ثم قال بصوت ضعيف:
- لم يعرفك أحد لكن عرفوا أن هناك من يراقبهم!
أخذ يعبث في لحيته ويحدث نفسه بصوت يسمعه الخادم:
- الشيخ ثابت يعني قبيلة السلام كلها والشيخ عبدالقادر يعني قبيلة المواريد كلها ولابد أنه كان يحضر الاجتماع أسامة وبلال ولم يتعرف عليهم الخادم
قاطعه الخادم:
- عذرا يا سيدي لقد تذكرت كان أسامة وبلال أبناء الشيخ القوني يحضرون أيضًا
- أسامة وبلال أي قبيلة الخُلج بأكملها أيضًا، الثلاث قبائل وقبيلة الرعاع
قاطعه الخادم مرة أخرى:
- كانوا يتحدثون عن شيء سيحدث بعد غد ولم يسع لي أن أسمع أكثر.
اتسعت عينا خادع وأمر الخادم أن ينصرف وأخذ يفكر وظل مشغولًا طوال الليل وقد تلاعبت به الظنون وكان لا يفهم كيف أقنع صادق القبائل الأخرى بمغادرة المملكة أيضًا وهي قبائل تعيش في شيء من الرغد والأمان وبعيدين عن بطش الملك ولو قليلًا لذلك استبعد أن يكون هذا هو سبب اجتماعهم ولكنه لم يصل لشيء آخر وهدأت نفسه عندما تذكر أن أيًا كان ما سيحدث فسيهدم حين يقتل صادق وستفشل جميع خططهم.
وكان خادع لا يعنيه ما يحدث في القبائل الأخرى ما دام أن الأوضاع في قبيلته لن تتغير وإن كان فكر غير مرة أن يتوسع في تجارته ويفتح دكاكين في القبائل الأخرى ولكن الصراع الدائم بينه وبين صادق شغله عن ذلك.

في صباح اليوم التالي وقبيل أن تشرق الشمس أخذ قاسم عربته وحماره واتجه إلى بيت صادق الذي كان لا يزال نائمًا ظل يطرق الباب لوقت طويل إلى أن أيقظ صادق الذي قابله بوجه لا يزال يحتاج لقليل من النوم حيث أن الليلة السابقة كانت طويلة.
وقف صادق ولم يتحرك لوقت ليس بالقصير فلم يعتد أن يزوره قاسم في بيته من قبل ولا سيما في هذا الوقت الباكر ولكن قاسم بادره بأن قال:
- ألن تسمح لي بالدخول؟
فتح صادق الباب على مصراعه وأشار لقاسم أن يدخل دون أن يتكلم ولما استقر قاسم في داخل البيت وجلس أمامه صادق قال:
- جئتك في أمر هام للغاية آثار الشكوك في قلبي ولم أنم طوال الليل بسببه
نظر صادق له باستغراب وتسائل في نفسه عما قد يقوله قاسم وما الداعي لقوله في هذا الوقت الغريب واستطرد قاسم:
- ولكن أجبني أولاً هل تخطط أنت وعشرات الشباب الذين يأتون لك هنا كل ليلة لشيء ما؟
ظهرت الصدمة على ملامح صادق ولكنه سرعان ما تماسك وقال بعد أن اعتدل في جلسته وتنحنح وبشيء من الجدية:
- هل تراقبني يا قاسم؟
ضحك قاسم وقال:
- لا سمح الله يا أخي ولكنك تعلم أني أمتلك في وجهي عينين حادتين كعيون الصقر وداخل جمجمتي عقل أفكر به أم تراني مثل آخرين بدون عقل؟
صمت صادق طويلًا ولم يجب فبادره قاسم:
- لا تؤاخذ تدخلي فهذه صفة غير محمودة عندي فأنا قوي الملاحظة وهذا خارج عن سيطرتي واطمئن لم يعلم أحد بعد بهذا الأمر ولطالما أبعدت عنكم عيون رجال خادع.

ابتسم صادق وقال بتهكم:
- أولست أحد رجاله؟
قال بحده:
- لا لا لست كذلك، ولكني ودائمًا ما تجدني مع ما تؤول إليه مصلحتي أولًا ومصلحة القبيلة ثانيًا فلا تتعب نفسك أنت في تقيمي كإنسان فكل منا يعيش كما يرى
أنت ترى نفسك على الحق وبالمناسبة أنا أراك كذلك أيضًا وأرى نفسي بالطبع على حق ولكن بطريقة أخرى.
تنهد ثم استطرد:
- على العموم هذا أمر نناقشه في وقت آخر وأما عن موضوع الشباب فما دمت أنت حريصًا على كتمانه ولم تجبني فلن تجدني إلا مخلصًا أمينًا على سرك ولكن

فلتحرص في المرات القادمة فلن أستطيع أن أبعد عنك خدم خادع إلى الأبد ناهيك عن عسكر الملك.
نظر حوله ثم قال:
- ألا يوجد عندك شربة ماء.
قام صادق وناوله كوبًا من الماء تجرعه وأكمل:
- هذا ليس سبب وجودي هنا وإنما جئتك في أمر آخر خطير.
نظر صادق إليه باهتمام:
- مخلص رأى مكران يخرج من بيت خادع أمس.
ظهرت الصدمة والمفاجئة على وجه صادق ولاحظها قاسم فقال:
- أرى أنك تفاجئت، إن خادع لو اضطر أن يقتل أباه في مقابل أن يحافظ على تجارته الناجحة والتي تعود عليه بآلاف القطع الذهبية لما تردد وأنت تعلم جيدًا لماذا كان مكران هناك.
فقال صادق والصدمة مازالت ترتسم على وجهه:
- أتقصد أنه يريد أن يقتلني؟
بابتسامة:
- خلتك تعلم هذا من البداية وتوقعت أن تكون منتظرًا ذلك الأمر.
وقف صادق وظل يسير ببطء في قلق أمام قاسم ثم قال:
- اعتقدت أنه من الممكن أن يخبر عسكر الملك عني أما أن يدفع لمن يقتلني فهذا ما لم أكن أتوقعه افترضت أنه لن يستطيع وإن كانت دناءة نفسه وحقارة أخلاقه تسمح له بذلك ولكني كنت أشك أن يفعل لأنه بذلك سوف يجعل القبيلة كلها في تناحر وستفسد تجارته جراء ذلك.
- هذا لو علم أحد بأنه هو القاتل:
جلس صادق ومازال في صدمة وأخذ يفكر وظل على هذا النحو لدقائق حتى قال قاسم:
- حاول مخلص أن يتسلق بيت خادع عندما رأى مكران يدخل هناك ولكنه وقع وهو يحاول ذلك على ظهره وقد تركته في البيت طريح الفراش.
تجرع قاسم ما تبقي من كأس الماء ووقف وتحرك حتى ذهب عند باب البيت ونظر إلى خارجه وكان الشارع هادئًا ولا أحد فيه وقال وهو موشك على المغادرة:
- أرجو ألا تدخل مخلص فيما تنوي أن تفعله مهما كان فإن الولد لا يزال صغيرًا لن أسامحك لو حدث له مكروه.
لم يجبه صادق فقد علم أنه ليس هناك جدوي أن يخبر قاسم بمدى عظمة ما يفعله مخلص ورفاقه من الشباب فلذلك آثر الصمت حتى قال قاسم:
- بالمناسبة..
ومال إليه كأنه سيقول له سرًا ما وبابتسامة أكمل:
- لقد نقل خادع بضاعة المخازن إلى بيته لكي يذهب الناس ليأخذوا ما فرضته عليه أمس من المخازن فلا يجدوا شيئًا وبذلك يكون هرب من هذا المأزق.
قال كلماته وما زالت الابتسامة معلقة على فمه وغادر.

وفي بيت راضي كان لا يزال نائمًا حينما امتدت يدا زوجته مريم تهزه بعنف شديد حتي فتح عينيه وقام مصروعًا يتسائل عما حدث فأجابته مريم في فتور.
- الإفطار.
تنفس راضي الصعداء وقال لها بصوت متهدج:
- يا مريم إني أتساءل في نفسي دائمًا هكذا أنتِ توقظيني لأتناول وجبة الإفطار فكيف ستوقظيني لو نزلت بنا صاعقة من السماء أو انشقت الأرض وابتلعت بيتنا
وأشار بيديه بحركة دائرية وقال وعينيه مغلقتين:
- أهناك فرق؟
فلم تجبه مريم وخرجت إلى صالة البيت.
فقال محدثًا نفسه:
- ربما ستوقظني حينها بالسكين!
وبعد لحظات كان راضي يجلس وأبناؤه السبعة وزوجته على طاولة عليها بعض كسرات الخبز وطبق كبير من اللبن وبعض الجبن والغريب أن أبناءه السبعة لم يكن أحدهم يشبهه على الإطلاق وكان يعرف ذلك فقد أخذوا من أمهم كل شيء لذلك جلسوا جميعًا دون كلام وكان راضي ينظر إلى أبنائه وتعتريه لحظات أسف عليهم ولحظات خوف على مستقبلهم.
كان أكبرهم يبلغ إحدى عشرة سنة وتوأمتان مازالتا في السنة الأولى من عمرهما وأربعة أبناء آخرين بين السادسة والعاشرة.
هرعت الأيدي نحو الخبز والجبن واللبن تتناوبه حتى نفد في لحظات ولم يكن راضي قد مد يده بعد لذلك نفض يده سريعًا وقام وهو يحمد الله بصوت مسموع وبعدها بدقائق خرج الأطفال نحو الشارع يلعبون أمام المنزل في حين أن راضي دعا زوجته للحديث فجلسا في زاوية من زوايا البيت يتحدثان وما لبست مريم أن تذكرت شيئًا ما وهرعت إلى الداخل وجلبت ثوبًا في يدها وظلت تحيكه بجانب زوجها وما أن رأها راضي على هذا النحو حتى قال لها بنبرة هادئة وقد ظن أنه بهذه الطريقة سيستطيع أن يبلغها بما يريد:
- يا مريم غدًا في الليل سوف ترحل القبيلة عن بكرة أبيها من هنا وسنرحل نحن معها، كل ما أريده منك أن تحملي كل ما تستطيعن حمله من طعام وشراب لتكفي أبناءك في الرحلة إلى المكان الذي سنذهب إليه هل هذا واضح بالنسبة لك؟
لم تجبه مريم كعادتها وظل ينظر لها طويلًا وكاد أن يغضب لولا أن أمسك زمام نفسه في أخر لحظة وأكمل في هدوء بعد أن ربت على كتفها:
- يا مريم الملك سوف يقتلني لا محالة لأننا لا نملك الضرائب التي يجب أن تدفع بعد أيام قليلة من الآن وكذلك معظم أبناء القبيلة لذلك سنرحل في الليلة القادمة إلى مكان به أشجار الفاكهة والمياه الجارية العذبة وهناك سأبني لك بيتًا كبيرًا وسنزرع الأرض ونعيش عيشًا رغدًا ولكن لكي نفعل ذلك يجب أن نتحمل أعباء الرحلة نفسها وبما أني ربما أكون مشغولًا لأني كما تعلمين مسئول عن العائلة بأكملها فإني أوكل إليك مهمة

بسيطة وسهلة أحضري ما تستطيعن حمله من طعام وشراب فقط هذا ما أريده منك فهل هذا صعب؟
نظرت مريم إليه وقالت:
- غدًا سأذهب إلى أمي وسأبيت عندها أنا والأطفال فلتجعل هذا الأمر بعد غد أو في الأسبوع القادم.
فتملك الغضب من راضي ومد يده نحوها ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة وهو يعض على شفتيه وقال في هدوء الكاظم:
- يا مريم القبيلة كلها سترحل غدًا وأمك من أبناء هذه القبيلة كما أبوك لذلك لن تستطيعي زيارتها غدًا لأنها راحلة.
سرحت مريم بخيالها قليلًا تفكر وما لبست أن قالت:
- لا بأس سأزورها بعد غد.
فضرب راضي يده على فخذه وقد كاد يفقد وعيه وقال بصوت عال:
- يا مريم اذهبي لأمك اليوم وغدًا اجمعي ما تستطيعن حمله من طعام وشراب لأننا راحلون غدًا أهذا واضح؟
- نعم واضح لا داعي لعلو الصوت أتظنني غبية.
- لا لست غبية أنا الغبي أنا الغبي.
وصمتا الاثنان وانشغلت مريم في حياكة الثوب الذي في يدها

نزل صادق من بيته وهو لايزال مشغولًا يفكر في أمر خادع ولم يكن قد عزم على أمره بعد ولما دنا من السوق وقد عج بالناس الجوعى الذين يأملون في أن يرجعوا إلى بيوتهم مجبورو الخاطر أحس عندها أنه لا يجب أن يذهب هؤلاء إلى بيوتهم جوعى وأنه وبرغم الحيلة التي فعلها خادع ولكن لابد من إيجاد طريقة ما يستطيع من خلالها أن ينفذ وعده وفي نفس الوقت يكون خادع في مأزق من أمره فلا يستطيع أن يتصرف.
كان صادق يقف في السوق وحوله الناس ينظرون له ولسان حالهم أطعمنا كما وعدت أيها الرجل وبعد لحظات كانت فكرة قد قفزت في ذهن صادق فجمع الناس من خلفه في مشهد مهيب وتوجه ناحية مخزن خادع الكبير وفي الطريق كان الناس يمشون وراء صادق ببطون فارغة وملابس ممزقة يعتريهم الحزن والألم ففي كل خطوة يخطونها وبرغم أنهم ذاهبون لقضاء حوائجهم إلا أنهم ومن كثرة الظلم الذي وقع عليهم طوال السنين الفائتة والذي لم يمر عليهم فيها يوم جيد لم يحسوا أنهم بطعام يومهم هذا أو الأيام القادمة سوف تحل جميع مشاكلهم ففي قرارة كل واحد منهم أنه لابد أن هذا اليوم الذي قد يأكلون فيه سينجلي وتعود أيام الظلم والجوع مرة أخرى وكان خادع قد اصطف وخدمه أمام المخزن الكبير ينتظرون الناس وعلى وجوههم ابتسامة خبيثة ولما جاء صادق ومن معه انفرجت أسارير خادع أكثر وأكثر ولكنها سرعان ما انطفأت ابتسامته عندما مر صادق والجمع الغفير الذي معه من أمام المخزن ولم يقفوا وسرعان ما وجد خادع نفسه ينساق بين الجموع وخدمه ويمشون في شوارع القبيلة إلا أن وصلوا إلى بيت خادع.

كان خادع غير مصدق ولم يفهم لماذا لم يقف صادق عند المخزن ووقف عند بيته وسرعان ما انهالت عليه الإجابات من فم صادق الذي وقف في الناس يقول:
- لقد خاف أخوكم خادع على ما قسمه لكم أمس من الطعام وأصر أن ينقله إلى بيته الواسع ليستطيع أن يعطي كل واحد منكم مطلبه بهدوء وسعه.

ولما انتهى صادق من كلماته هتف الناس باسم خادع ولم يجد خادع مفرًا إلا أن يتقدم وقد تملكه الغضب وأحس بقشعرية الهم تنتاب جسده بالمفتاح ودسه في باب البيت ويده ترتعش وأخذ وقتًا طويلًا في فتح الباب ولما فتح الباب هجم الناس على البضائع المكدسة في مدخله يخطف كل واحد منهم ما يستطيع أن يخطفه دون مراعاة لأدب أواستحقاق عادل وهتك الجمع حرمة البيت وكادوا أن يقتلعوا جدرانه من مكانها ولم يستطيع صادق ولا خادع أو خدمه أن يقتربوا من الناس التي انقلبت إلى شبه مصعورة من يعض رغيفها الآن فربما مزقوه إربًا.
وفي خضم هذه المعركة الدائرة أمسك صادق خناق خادع وأخذ يتراجع به حتى صدمه في جدار سورالبيت ولم يرهم أحد ولما كاد خادع أن يختنق تركه صادق وهو يقول له:
- أيًا كان ما تخطط له أيها الحاقد فسينقلب عليك.
تلعثم خادع وهو يقول:
- ماذا تقول أنا لا أخطط لشيء أنت ترى بنفس كل ما أمرت به يحدث
وانظر بنفسك للناس الذين انتهكوا حرمة البيت وكادوا يهدمونه.
اقترب صادق منه مرة أخرى وهمس:
- ماذا كان يفعل مكران عندك في الليل.
ارتبك خادع وانعقد لسانه وأخذ يردد كلمات غير مفهومة وأخرى غير منطقية
- لقد أتى لأنه يريد أن يشتري الدكان فأنت تعلم أننا راحلون وقلت في نفسي أبيعه قبل أن نرحل.
- أتظن أني أصدق هذا الكلام الفارغ الذي ينطلق به لسانك بئس الرجال أنت ووالله لولا ما نحن مقدمون عليه غدًا لقتلتك الآن بيدي.
تركه صادق وعدّل من هندام نفسه ثم استطرد:
- كل ما تفعله أو تنوي فعله لن يؤثر في شيء لقد انتهى زمنك إلى غير رجعة انتهى زمن خادع إلى غير رجعة. أتفهم؟

التفت صادق نحو الجموع الجائعة وأشار نحوهم.
- انظر إلى هؤلاء الناس ماذا فعلت بهم انظر لضعفهم انظر ما فعله الجوع بهم لقد أخذت محاصيلهم وبخست أثمانها وبضائعهم وأكلت حقوقها وضيقت عليهم عيشتهم ورفعت أثمان الطعام والشراب واحتكرته أنت وضرائب الملك الوضيع من اتجاه آخر.
كان لابد أن تقف بجانبهم تعين المحتاج وتعطي للفقير وكانت ستزدهر تجارتك أيضًا ويعم الخير على أبناء جلدتك، هل ترى هؤلاء الرجال إنهم أبناء عائلتك وأولاد

عمومتك ألم يعتريك يومًا حزن بسببهم؟ ألم تئن يومًا من موت طفل من الجوع أو ترى بنفسك أجسادهم العارية فتكسيهم؟ ألم تفطن لأمر هؤلاء الرجال الذين أصبحوا رعاعًا بيدك وبيد سيدك الملك؟
أم تراني لا أعلم أن هناك علاقة وطيدة بينك وبين رجال الملك.
إن كان هؤلاء القوم الذين أعياهم الجوع وأنهكهم الظلم صامتين فلن يصمتوا إلى الأبد.
تنهد صادق واقترب من خادع مرة أخرى واستطرد:
- الآن لابد أن تفهم أن ما سيحدث غدًا سيحدث مهما حِكت له من مؤامرات ومهما فعل مكران الذي استأجرته لأن الأمر أيها الغبي لم يكن يومًا في يد صادق وإنما في يد هؤلاء الرعاع حين يصبحون رجالًا.
غادر صادق وترك خادع في حيرة من أمره وظل هكذا حتى فطن إلى ما يحدث في بيته فأمرخدمه وحراسه أن يطردوا ما تبقى من الناس من المنزل ويأخذوا ما في أيدي من تبقى منهم ولكن الجُل الغفير كانوا قد أخذوا ما أرادوا ورجعوا لبيوتهم
وسرعان ما نادى خادع على خادمه هيمن وأمره أن يذهب إلى مكران في الجبل ويخبره أن يؤجل ما اتفقا عليه وسرعان ما انطلق هيمن إلى مكان مكران في الجبل ولم يجده فطفق إلى خادع في عجل يخبره بذلك وكأن صاعقة نزلت على خادع من السماء وزاد ارتباكه فقد فطن إلى أن صادق علم كل شيء عما حدث بينه وبين مكران ولم يعد يستطيع أن يقتله الآن لأن صادق لابد أن يكون قد أخبر غيره بهذا الأمر وستشير أصابع الاتهام نحوه لا محالة لذلك أرسل ثلاثة من خدمه وثلاثة من حرسه يتعقبون مكران حتى يخبروه بتأجيل ما بينهما وانطلقوا في إثره طوال اليوم
ولما رجع خادع إلى دكانه لم يجد من يشتري منه ثمرة واحدة طوال اليوم وكان السوق شبه فارغ إلا من مارة قليلين فقد أخذ الناس الطعام وذهبوا لبيوتهم وربما ظن معظمهم أن القليل من الشعير أو القمح وبعض الفاكهة والخضروات هي وليمة قد لا يراها طوال حياته بعد ذلك ولما عاد خدمه وحراسه ولم يجدوا مكران أرسلهم مرة أخرى وأخبرهم ألا يعودوا إلا به حتى لو انتصف الليل.
كان قاسم يراقب ما يحدث من بعيد داخل الدكان ولاحظ ارتباك خادع وإرساله لكل من عاد من خدمه أو حراسه مرة أخرى ولما اقترب منه وجده يتصبب عرقًا فقال له بعد أن نظر حوله:
- لابد أن تجمع عائتك اليوم وتخبرهم بما سيحدث غدًا.
- إليك عني يا قاسم الآن.
- كما تريد ولكن اعلم أن صادق لو لم تخبر أفراد عائلتك بما سيحدث ووجد تأخيرًا من قبلك غدًا ستكون عاقبة ذلك وخيمة.
انطلق خادع يقول في غيظ:
- أتظنني أخاف من صادق هذا، أنا لا أخشاه وإنما أخشى أن يهد كل شيء على رأسي وتنتهي تجارتي إلى الأبد ولولا ذلك لما صبرت على ما يفعل لحظة واحدة.

- أرجوك لا تغضب أنا أعلم أنك تستطيع أن تتصدى له ولكنك تخشى أن تنقلب العائلات على بعضها وتتقاتل القبيلة وأعلم أيضًا أنه عندما أمسك بخناقك اليوم في عقر دارك لم ترفع يده عنك لأنك تخشى أن تسوء تجارتك.
لحظات صمت ونظرات متبادلة ثم بخبث قال قاسم:
- لماذا كان صادق يمسك بخناقك اليوم هكذا؟
بلع خادع ريقه وقال بخوف:
- هل رأى الناس ما حدث؟
ابتسم قاسم:
- لا لم يرى أحد غيري ما حدث ثم عن أي ناس تتحدث الناس كانوا مشغولين في سرقة بضائعك أأ أقصد بأخذ الهبة التي أعطيتها لهم.

تنحنح خادع ثم قال:
- لقد كان خلافًا بسيطًا وانتهى على خير.
أشار خادع إلى عامل في الدكان كان جالسًا على الأرض من أهل القبيلة فأتي مسرعًا
- اذهب إلى بيت بيت من بيوت عائلتي وأخبرهم أني أريدهم الليلة في بيتي بعد منتصف الليل وبعد أن ينام الناس، الرجال فقط وخذ خاتمي هذا ليصدقوك
وخلع خاتمه وأعطاه للعامل الذي انطلق من فوره.
ابتسم قاسم في خبث وذهب ناحية البضائع فقال خادع وقاسم يتحرك
- ألن تخبر عائلتك؟
- أخبرتهم منذ أول أمس وسنجتمع الليلة أيضًا وكذلك صادق وراضي اطمئن سوف يسير كل شيء على خير ما يرام.

وبعد أن انتصف الليل كان راضي يجلس في بيته هو ومجموعة من رجال عائلته الصاخبين الذين يتكلمون كأنهم يصرخون وكان ذلك الصراخ أو الكلام يثير زعر راضي كلما نطق أحدهم بكلمة كان يوبخة ويكاد يضع يده على فمه ولا يكاد يجلس والنقاش دائر، كان كل بضعة ثوانٍ يتجه ناحية باب البيت يفتحه بهدوء بضعة سنتيمترات ينظر من خلاله إلى الشارع المظلم الذي انفض الناس منه ويرجع مرة أخرى يُسّكت الناس ثم يتجه ناحية النافذة ينظر من بصيصها ويتأمل قليلًا ثم يعود ويُسّكت الناس وفي آخر مرة رجع فيها وأسكتهم تكلم بصوت لا يكاد يسمعه أحد

- ليس هناك حل آخر، كل السبل تؤدي إلى مقتلنا جميعًا يوم جمع الضرائب إلا هذا السبيل الذي ربما هو المخرج الوحيد لنا لذلك لو كان عند أحدكم حل آخر أتمنى أن أسمع وإلا فلتجهزوا أنفسكم وعائلاتكم لأننا راحلون غدًا في الليل
استجمع أحدهم شجاعته وقال بصوته الجهوري:
- ولكننا هكذا
ولم يكمل كلامه حتى أطبق راضي على شفتيه وأنفه معًا وكاد الرجل أن يختنق قبل أن يقول راضي:

- ولكننا هكذا وبهذا الصوت سوف نستدعي عسكر الملك لكي يرحلوا معنا غدًا

تركه والرجل في صدمة واستطرد:
- ألم يخبرك أحدهم يا رجل أن صوتك كأنه صوت عشرة رجال مجتمعين في حنجرة واحدة، أنا أرى ألا نرحل ونأخذك للملك تتحدث في وجهه كلمتين فيموت ولا داعي لرحيلنا بعد ذلك، إن كنت تريد أن تتحدث فلتتحدث دون استخدام حنجرتك بشفتيك فقط وبصوت هامس أسمعت؟
أومأ الرجل برأسه ثم تنحنح وهو يحاول أن يتحدث بصوت ضعيف لا يكاد يستطيع أن يخرجه من فمه:
- ولكننا هكذا سوف نترك أرضنا التي تربينا فيها وبيوتنا التي تأوينا
فقال رجل آخر يبدو عليه العقل والحكمة:
- ولو مكثت هنا وقتلت يوم جمع الضرائب ماذا ستفيدك الأرض وماذا سيهبك البيت ستدفن بجوار من سبقك من المقتولين ظلمًا أما أنا فأرى أن الرحيل هو أقرب الحلول التي قد نحتفظ بسببها بحياتنا ولو لفترة نستطيع خلالها تجميع شتاتنا وقوتنا.
قال راضي:
- إذن هل أنتم موافقون جميعًا على الرحيل غدًا في المساء؟
فتعالت الأصوات بحماس بالموافقة فوجل راضى وهو يقول في نفسه يبدو أننا لن نرحل عن هذا البيت وأشار لهم للمرة العاشرة هذه الليلة بخفض أصواتهم

ولم يجد أحد الرجال الثلاثة المتبقين أي اعتراض من قبل أفراد عائلاتهم فالجميع كان مرحبًا بالفكرة لأنها آتية من صادق أولًا وثانيًا أنها الأمل الأخير للإبقاء على حياتهم كان قاسم أسهل الثلاثة في إقناع عائلته حيث لم يأخذ الأمر منه إلا بضع دقائق ولم تعلو الأصوات ولم يتناقش الرجال حيث أن عائلة قاسم كانت أصغر العائلات الأربعة وأكثر العائلات التي قتل الملك منها أما صادق ولثقة الناس به كانوا لا يناقشونه اعتراضًا وإنما أملًا في فهم ما يريده أكثر مع وجود ثقة مطلقة فيه لا من قبل رجال عائلته فقط وإنما من قبل القبيلة كلها ولم تكن المهمة مستعصية على خادع أيضًا ولكنه هو نفسه لم يكن مقتنعًا بأنه راحل وإنما ظل وبرغم إخباره لأفراد عائلته بأمر الرحيل ظل على أمل لآخر لحظة أن يحدث شيء ما يغير الأوضاع وتنتهي خطة صادق إلى الأبد ولكنه اضطر في النهاية إلى جمع عائلته وإخبارهم بما سوف يحدث غدًا في الليل بعد أن حذره قاسم من عواقب ألا يفعل ذلك.

انطلق صادق ناحية بيت الشيخ ثابت في القبيلة المجاورة كعادته متلحفًا بغطاء يسير بين شوارع القبيلة ينظر كثيرًا حتى لا يراه أحد ولكن تلك المرة كانت مختلفة لم يكن الخوف قريبًا منه حتى، كان يمتلئ فرحًا وشوقًا لليلة غد وعلى الرغم من أنه كان قد قال لشيوخ القبائل الأخرى أنه لا داعي لاجتماعهم وسيرسل إليهم خطابات يكمل فيها ما أراده إلا أنه آثر أن يلتقي بهم للمرة الأخيرة لذا أرسل أحد الشباب في الصباح بعد أن انتهى من أمر خادع يخبر الشيخ ثابت أن الاجتماع في بيته سيكون في موعده ويخبره بضرورة حضور مشايخ القبائل للمرة الأخيرة، وفي أثناء خروج صادق من حدود قبيلته كان مكران يدخل إلى القبيلة يتسلل كأنه ذئب جائع متعطش لإراقة الدماء تسلل في خفاء بعيد عن أعين العسكر ولحسن الحظ أنه لم يقابل صادق اتجه مكران من فوره ناحية بيت صادق وبدأ يدور حوله عدة دورات قبل أن يتسلق البيت من الخلف ويدخل شاهرًا سكينه ليتفاجأ أن صادق غير موجود لذلك اختار لنفسه مكانًا مناسبًا يختبئ فيه منتظرًا رجوع صادق لبيته ليلقى مصيره، وقبل أن يصل صادق إلى بيت الشيخ ثابت صعد فوق تل وقد تسللت إلى أذنه أصوات معازف أتية من قصر الملك في آخر المملكة تهتك ستر الليل ويسمع أصوات ضحكات ماجنة أثارت غيظه وما لبس أن غادر مغتاظًا نحو بيت الشيخ ثابت

وفي قصر الملك كانت الراقصات يرقصن على أنغام المعازف وتدور الخادمات بكؤوس الخمر على الملك ورجاله الذين أسكرتهم الخمر وذهبت عقولهم في تلك الليلة فترى تصرفات غير محمودة من بعضهم تجاه الخادمات وكان الملك يرى هذه الأشياء ويترك فاعلها قائلًا في نفسه هكذا يجب أن أرضي رجالي فيرضوني وكان الملك يختار دائمًا كل خدم قصرة من النساء أما خارج القصر فكانت تعلق زخارف مرصعة بالياقوت والذهب وينحت النحاتين تمثالًا للملك أمام القصر وكان القصر على غير عادته حيث أن غدًا هو يوم ميلاد الملك وهو يوم يحتفي به كل ساكني القصر والبيوت الفارهة التي بنيت حوله وكان الملك جالسًا غير عابئ بما يحدث حوله حتى دخل عليه وزير الضرائب وهي وزارة ابتدعها هو وأوكل أمورها إلى رجل شديد البأس غليظ القلب يدعى خشخاش بجانب قيادته للجيش أيضًا

دخل خشخاش إلى الملك مباشرة وجلس بجانبه وهو يقول:

- لقد تم كل شيء يا مولاي سيكون غدًا يوم عظيم ككل عام دعونا رجال المملكة المقربين كلهم وقد عزموا على أن يأتوا محملين بالهدايا الثمينة الفاخرة

تناول الملك ما تبقى من كأس كان معه وغمغم:

- وهل يجرؤ أحدهم أن يأتي بيد فارغة تلك أمور محسومة ولا جدال فيها فبفضلي سكنوا القصور وناموا على أسرّة من حرير وتنعموا فيما اشتهت أنفسهم سنين طويلة المهم هل جهزت العسكر والسيافين لجمع الضرائب؟
- كل شيء على خير ما يرام يا مولاي لقد أعددت بنفسي كتيبة من العسكر شديدي البأس لا قلوب في صدورهم ولكني يا مولاي أقترح هذه المرة أمرًا ولكن الأمر بيدك في النهاية.
نظر له الملك بعين تكاد تغيب وأشار له أن يتحدث.
- أقترح يا مولاي ألا نسرف في القتل هذه المرة وخاصة مع قبيلة الرعاع لقد أوشكوا على الفناء.
فتح الملك عينيه عن آخرهما وحدقه في غيظ:
- ماذا لو ذهبت غدًا لقبيلة الرعاع هذه وأخذت في جمع الضرائب وحدثت المعجزة ووجدت الجميع يدفعون ما عليهم من ضرائب فماذا تفعل؟
ابتسم خشخاش:
- سوف أثني عليهم وأعود محملًا بالقطع الذهبية.
اعتدل الملك في جلسته وهو يقول بنبرة قوية:
- بل تقتل منهم حينها عشرة رجال من أقوى رجالهم وأقدرهم.
شغر خشخاش فيه وهو يستمع للملك الذي استطرد:
- العبرة ليست في جمع الضرائب وفقط، هذه القبيلة ألزمت نفسها بما لم تُلزم به القبائل الأخرى ألزمت نفسها بالقتل لو تركناهم يقيمون أنفسهم في المرة القادمة فلن تراني على كرسي الحكم بعدها وربما علقوا رؤوسنا على أبواب القصر، لا بد أن يعلموا أن ما فعلوه وإن كان في الماضي لا بد أن يدفعوا ثمنه طوال حياتهم وحياة أولادهم إن كان لزامًا علينا أن نفعل حتى يكونوا عبرة لأنفسهم ولباقي المملكة.
- أمرك يا مولاي.
- لقد عينتك في منصبك هذا ولبست عليك من الجاه والأُبهة لأني علمت أنك ذو قلب صلب لا يتسلل إليه ضعف ولا وهن وكلامك هذا جعلني أشك في أمرك.
ردد خشخاش متلهفًا:
- لا لا يا مولاي لقد غاب عني ما قلت الآن وأنت تعلم أن عقولنا الصغيرة ليست كمثل عقلك الراجح ومنك نتعلم سيكون كل شيء كما ترغب وأكثر.

- بعد أن تنتهي حفلة غد أريد منك أن تنشر العسكر داخل القبيلة وضاعف أعدادهم هذه المرة واجعلهم يضايقونهم ويمررون عليهم عيشتهم حتى يوم جمع الضرائب ولتوصيهم أن يفتحوا عيونهم جيدًا ويجمعوا ما يستطيعون من معلومات وأخبار من بصاصيّ هناك حتى يتسنى لك يوم جمع الضرائب أن تعرف ما يتوجب عليك فعله واحذر غدر الرعاع.
أسند الملك ظهره إلى مخدعه واستطرد:
- ولكن هذا كله بعد ليلة غد حتى لا يقول الناس أن ملكهم قتل منهم أو ضايق نفر من رعيته يوم ميلاده.

اجتمع رجال القبائل في بيت الشيخ ثابت للمرة الأخيرة يتحدثون فيما سوف يحدث في يوم غد وأثار بعضهم تخوفات وأسئلة وكان صادق يجيب على الجميع ويطمئن الخائفين ويربت على أكتاف المتحفظين وما كادوا أن ينتهوا حتى وجدوا أن الفجر قد بزغ ولذلك اضطر صادق أن ينام عند الشيخ ثابت على أن يرحل إلى قبيلته في الصباح وفي تلك الأثناء كان مكران لا يزال في بيت صادق الذي تأخر وكان ينظر من النافذة المطلة على الشارع كل بضعة دقائق حتى يتسنى له أن يفاجأ صادق بنصل سكينه ولكنه تأخر وأوشك الفجر أن يبزغ فهم مسرعًا إلى خارج البيت على أن يعود في وقت آخر وفي نفس وقت خروجه من القبيلة كان آخر رجال خادع قد عاد من الخارج بعد رحلة بحث عن مكران دامت اليوم كله ولما أخبروا خادع أنهم لم يستطيعوا أن يجدوا له أثرًا، اضطرب وكاد يخنقه التفكير ولما كثر اضرابه لاحظت حسناء حزنه وقلقه فواسته ولكنه لفظها فسكتت من فورها بعد أن قالت له تذكره أنه لابد أن يخبر الملك بكل شيء قبل فوات الأوان.

كانت القبيلة على غير عادتها في هذا اليوم، الناس ليسوا كعادتهم في الشوارع ولا في السوق ولم يذهب الفلاحون إلى حقولهم ولا الصناع إلى دكاكينهم ما زالوا ملازمين بيوتهم رغم أن الفجر لاح والصباح أشرق وما كاد صادق أن تطأ قدماه القبيلة ورأى هذا الأمر حتى غضب فقد كان بمفرده في سوق القبيلة وأطال النظر في الدكاكين المغلقة وإلى الشوارع الفارغة من المارة وما لبس أن سمع صوت عربة قاسم عرفها من صوت ارتطام الأشياء في الدرج الذي صنعه قاسم بالعربة سار قاسم حتى وقف عند صادق وهو يتأمل هو الآخر الدكاكين المغلقة والشوارع الفارغة ترجل من عربته وسار ناحية صادق وهو يقول:

- هؤلاء القوم لا يفقهون شيئًا على الإطلاق، ألا يعرفون أنهم هكذا سيلفتون النظر إلينا لو جاء أحد العسكر الآن أو أحد بصاصي الملك ووجد السوق فارغًا هكذا سيشك في الأمر لا محالة وربما أبلغ أسياده عن هذا الأمر.

أومأ صادق برأسه بيأس:

- وكيف تفكر العقول والبطون فارغة؟

- بل البطون عامرة ببضاعة خادع لذلك أثقلتهم.

ضحك صادق ضحكة ساخرة وقال:

- أتستكثر عليهم ليلة يبيتون فيها من دون أن يجوعوا وتظن أن وجبة من الخبز وبعض الخضروات ستثقلهم عن أداء ما عليهم من واجبات؟ لا يا قاسم إنما لم يفطنوا للأمر فقط.

- ولكن الآن ماذا سنفعل؟ سيفتضح أمرنا!

نظر صادق ناحية مدخل القبيلة وسأل:

- هل عاد العسكر أو البصاصون بعد؟

فأجابه قاسم بالنفي فتنحى قليلًا وأخذ يفكر حتى عاد وهو يجذب قاسم من يده نحو العربة وصعدا إليها وتحركت العربة ناحية بيوت القبيلة وأخذ قاسم وصادق ينزلان إلى بيوت القبيلة بيتًا بيتًا يطرقونها وعندما يخرج أحدهم من تلك البيوت يأمرونهم بالتوجه إلى أعمالهم وليجعلوا الأمر طبيعيًا حتى لا تُلفت إليهم الأنظار وما لبس أن ضجت الشوارع بالناس وفتحت الدكاكين وذهب الفلاحون إلى حقولهم كما اعتادوا كل يوم، وبعد مرور بعض الوقت ظهر خادع بمفرده أمام دكانه يفتح الدكان بنفسه وليس معه من رجاله أحد نظر قاسم ناحية الدكان ولما وجد خادع بمفرده اندهش لأن هذه أول مرة يأتي خادع بمفرد إلى دكانه وتساءل في نفسه أين ذهب العمال والخدم والحرس؟ وعلم قاسم في قرارة نفسه أن خادع ربما يدبر لأمر ما أو قد دبر..

ولما لم يستطع أن يصل لشيء طرد الهواجس من عقله وذهب ناحية الدكان بعربته ثم ترجل منها ووقف في الدكان كعادته ولم يتحدث إليه خادع بل ظلا جالسان لوقت طويل دون حديث وأما صادق فقد ذهب إلى بيته ليستريح قليلًا وبعد ساعة خرج إلى بيت قاسم ليزور مخلص، قابله مخلص بترحاب شديد وكان قد بدأ يشفي مما كان فيه إلا أنه ما زالت قدمه مصابة بعض الشيء وبادره صادق حين رأى قدمه:
- أظن أنك لن تستطيع أن تفعل ما اتفقنا عليه يا مخلص؟
قام مخلص من مكانه وأخذ يتمشى أمام صادق وهو يكاد يضرب قدميه في الأرض ضربًا ويقول في حماس:
- من قال هذا؟ لقد شُفيت تمامًا من كل شيء وسأكون ملازمًا له بمجرد أن تغرب الشمس.
- أخشى من أنك لن تستطيع أن تفعل فقدمك ما زالت على غير ما يرام ثم إنني أرى انحناءة بسيطة في ظهرك.
قال صادق هذه الكلمات وهو مبتسم ليراقب ردة فعل مخلص الذي ازداد حماسه وأخذ يقفز في الهواء وهو يردد:
- قلت لك إنني بخير. انظر..انظر..توكل على الله ثم عليَّ لن أخذلك وسأراقب خادع إلى أن يبلغ الملك بأمرنا.
ظلت الابتسامة معلقة على وجه صادق وهو يتأمل شجاعة مخلص ثم قال بهدوء:
- جائني قاسم أمس وهو يحذرني أن أستخدمك في أي شيء له علاقة بما ننوي فعله متحججًا أنك ما زلت طفلًا ولكني أرى أمامي رجلًا مكتمل الرجولة يحمل عبأ أمته ومستقبلها لأجلك أنت وأمثالك أنا مستعد أن أقدم نفسي رخيصة لتحيوا بكرامة.
قام صادق وقبل أن يرحل نظر لمخلص وهو يقول:
- اطمئن كل شيء يسير كما خططنا ولا تنسَ موعدك بعد غياب الشمس وبمجرد أن يذهب خادع لقصر الملك تأتي وتخبرني فورًا ولا تحاول أن تتلصص عليه كالمرة السابقة.
وخرج صادق من البيت فتبعه مخلص وهو يقول بصوت عال:
- شكرًا لأنك أمنتني على سرك وجعلتني الوحيد الذي أعلمه لن أخيب ظنك أبدًا طوال حياتي.
ابتسم صادق لمخلص وهو يسير بعيدًا عنه ثم اختفى عن ناظريه.

ما زال قاسم جالسًا في الدكان بجانب خادع صامتان يرمقان بعضهما بنظرات حائرة ويملك كل واحد منهم تساؤلات عدة أبرزها كان في عقل قاسم أين ذهب الرجال يا خادع؟
ولكنه لم يجروء على الحديث حتى بادره خادع:
- هل كل شيء بشأن الليلة على خير ما يرام؟
أطرق قاسم رأسه وهز كتفيه:
- كل القبيلة ستخرج الليلة إلى الأرض التي أُخبرنا عنها أما ما الذي سوف يحدث هذا في علم الله.

هز خادع رأسه ثم سأل:
- ماذا كان يفعل صادق في السوق في مثل هذه الساعة الباكرة من الصباح؟
- تخيل أن الناس كانوا قد عزموا على ملازمة بيوتهم اليوم وهذا سيكون عواقبه وخيمة لو لاحظ أحد العسكر أو البصاصين ذلك.
استمر خادع في هز رأسه حتى قال قاسم:
- أين ذهب الرجال؟
ارتبك خادع في البداية وسرعان ما تماسك ولكنه لم يستطع أن يقول شيئًا منطقيًا فقال:
- ربما قد تأخروا في النوم.
تبع كلام خادع ضحك شديد من قاسم وظل يضحك لوقت طويل حتى هدأ وصمت وأغلق نافذة الحوار مع خادع حين قام من مكانه وخرج أمام الدكان وهو يقول:
- ربما.

أقبل الليل وسكن الناس إلى بيوتهم وبدأوا في تجهيز أمتعتهم وبعض الطعام الذي قد يُعينهم في سفرهم الذي لا يعلمون وجهته وكانت شوارع القبيلة هادئة وداخل البيوت، تعم الجلبة والفوضى في بعض البيوت الأخرى يجمع الناس بعض الأمتعة التي لا تثمن ولا تغني من جوع فترى أحدهم قد جمع في ركن بيته بعض أواني الفخار وآخر أحضر كرسيًا أو اثنين، وآخرين أحضروا قطعًا خشبية ضخمة لا أحد يدري ما هي ولا فيما تستخدم ولكنها بالنسبة لبعض أهل القبيلة هي كنز لا يترك وفي الوقت نفسه لم يكن في بيت خادع جلبة ولا ضوضاء وإنما هدوء تام حينما جلس مخلص متخفيًا عن الأنظار بجانب البيت ينتظر خروج خادع من بيته وكأن خادع غير عابئ بما يحدث أو أنه لن يرحل مثل باقي القبيلة، جلس بمفرده في البيت في هدوء وقد رحل جميع خدمه وزوجته ونضبت مخازنه عن آخرها ولا يعلم أحد أين ذهبت البضائع أو أين ذهب الخدم والحرس وبدأ حرس الملك والبصاصون ينتشرون في القبيلة كعادتهم ولكنهم لم يكونوا بعددهم المعتاد وإنما نقص عددهم إلى النصف تقريبًا وقد جلب بعضهم بعض زجاجات الخمر وجلسوا على أطراف الشوارع وفي حدود القبيلة يتسامرون وتُسمع ضحكاتهم المجلجلة وقد سُمع من بعيد صوت ضوضاء أتية من قصر الملك وبعض الأنغام العذبة التي تهتك ظلمة الليل وتجلب دفئًا على نفوس البسطاء من أهل القبيلة.

وقبل منتصف الليل بقليل وجد عسكر الملك المنتشرون في شوارع القبيلة من يقف على رؤوسهم يحملون سيوفًا حادة تقتلع الرقاب فسلموا أسلحتهم على الفور ومشوا أمامهم ناحية بيت صادق، وفي بيت صادق كان الشباب قد جمعوا العسكر من الشوارع وبصاصي الملك المعروفين وسجنوهم داخل البيت وانتشر شباب القبيلة على نواصي الشوارع وفي السوق وحول البيوت وكان عددهم يفوق الألف شاب وعلى رأسهم صادق.

قاد صادق مجموعة من الشباب نحو حدود القبيلة متسللين حتى وصلوا عند البئر ومجموعة أخرى ناحية مدخل القبيلة الآخر يحملون سيوفهم وملابس أشبه بالملابس العسكرية هجموا هجمة قوية على الحرس الموكل بحراسة حدود القبيلة ودارت معركة ليست بالقوية قتل فيها حارس واحد من بين الحرس العشرة بعد أن أصر على عدم الاستسلام وحاول أن يهرب ليستنجد بحرس آخرين وحينما سيطر صادق والشباب الذين معه على القبيلة وقف على تبة في نهاية حدود البئر وأصدر صوتًا يشبه صوت أحد الطيور وبعد لحظات سُمع صوت مشابه له يأتي من قبيلة السلام وبعدها بلحظات دوى نفس الصوت من أماكن أبعد ربما تأتي من قبيلة الخلج أو قبيلة المواريد وبعدها دوى صوت آخر وحينما سمع صادق الأصوات الثلاثة اطمئن وأمر بعض الشباب بالمكوث في مكانهم متخفيين عن الأنظار حتى إشعار آخر وأمرهم أن يمسكوا بكل من يحاول أن يخترق حدود القبيلة من الجانبين إلا خادع وأن يرسلوا من يتم الإمساك به مع ثلة منهم إلى بيته حتى يسجن هناك إلى أن ينتهي الأمر

رجع صادق إلى بيته ليجد قاسم قد وقف مجادلًا أحد الشباب وقد علا صوته وهو يأمره بإطلاق سراح حرس الملك على الفور ويحذره من مغبة ما يفعل ولكن صادق حين أقدم نحوه أفهمه أن هذا الإجراء كان لابد أن يحدث حتى يتسني لهم التحرك بحرية داخل القبيلة ونقل الناس إلى وجهتهم دون أن يعترضهم أحد وكان قاسم منبهرًا بما يحدث ولم يكن يعلم أن الأمر سيكون منظمًا بهذه الطريقة وبرغم أنه كان متخوفًا من وقوع كارثة إلا أنه اطمئن بعدما رأى من عزم شباب القبيلة وشجاعتهم وكان صادق قد أمر الشباب بأن من يقترب من البيت من خدم خادع أو حراسه يسجن هو الآخر حتى لا ينتشر الخبر قبل أوانه وذلك لأن معظم خدم خادع ليسوا من أبناء القبيلة وربما خانوا القبيلة بدم بارد ولم يكن صادق يتحدث عن خادع أمام الشباب بشكل سيء رغم علمهم بأساليب تجارته المنحطة وخداعه وعلمهم أنه ربما يكون أحد أهم أسباب تدني المستوى المعيشي لأهل القبيلة حيث يحتكر رزقهم ويشتري بضاعتهم بأثمان باخسة.

وبعد مرور بعض الوقت انتصف الليل وبدأت بيوت القبيلة تُفتح بيتًا تلو الآخر وكان يخرج من بعض البيوت النساء والأطفال فقط دون أن يخرج رجل واحد حيث قتلوا في قت مضي.

تجمعت العائلات الأربعة أمام بيت صادق وتشكل جمع غفير يزيدون عن العشرة آلاف فرد فضاق المكان بهم فأمرهم صادق أن يتحركوا نحو السوق ويفترشوا الأرض حتى يحين موعد الرحيل وأمرهم أيضًا أن يتركوا كل ما عدا الطعام والشراب فترك بعضهم ما جلبه من أشياء وتمسك آخرون بما قد جلبوا وكان راضي

وقاسم وصادق كل منهم على رأس عائلته ينظر في أمرهم ويتحرى غياب بعضهم ولم يغب عن الجمع الغفير إلا مخلص وخادع وطفل صغير يدعى زيد لا يعلم أحد عنه شيئًا.

انتشر الشباب حول قومهم بالسيوف يحرسونهم وبث ذلك الاطمئنان إلى قلوبهم وهم في انتظار الخروج من قبيلتهم كان بعضهم يبكي بحرقة وأخرون تملكهم الخوف وأخرون ينظرون إلى شوارع القبيلة بأسىً وحزن ورأى صادق رجلًا كبيرًا يحمل ترابًا من الأرض يشمه كأنه المسك وتتساقط دمعاته عليه ولسان حاله يقول هنا ولدت وتربيت وكبرت وكنت أتمنى أن أدفن أيضًا. أثر ذلك المشهد في صادق ولكنه تحامل على نفسه وأخذ قاسم وذهبوا ليبحثوا عن زيد؛ آخر المفقودين وتركوا راضي على رأس القبيلة، وقف راضي يبحث عن زوجته وأبنائه ولكنه فشل أن يجدهم في هذا الجمع الغفير ولكنه اطمأن لوجودهم إذ إنه من غير المعقول أن يكونوا غير موجودين ووقف يخطب في الناس في وسط جلبة وصوته لا يكاد يسمعه أحد:
- غدًا سنبدأ حياة جديدة والليلة هي طريق الوصول إلى هذه الحياة فأرجوا من عائلتي أولًا ومن العائلات الأخرى الاطمئنان والثقة في غد أفضل وحياة كريمة.
ولما تأكد أن أحدًا لا يستمع إليه سكت.

ذهب صادق ومعه قاسم إلى ناحية بيت زيد وقد حمل قاسم مشعل نار ودخلوا البيت في حذر وقاسم ينادي بأعلي صوته يا زيد ولما لم يجبهما قرروا الرجوع إلا أن صوت بكاء مكتوم سمعه صادق أوقفهم وأخذ الشعلة من قاسم واتجه ناحية غرفة في الداخل ليجد زيدًا قابعًا في طرف الغرفة مغطيًا رأسه بيده وقد شرع في البكاء فتوجه ناحيته واحتضنه بحنان وهو يقول له:
- أنت زيد أليس كذلك؟
أومأ زيد في رعب له فربت صادق على كتفه:
- لاتخف يا زيد أنا هنا الا تعرفني؟
فأومأ زيد برأسه أنه يعرفه فابتسم له صادق وأخذه في حضنه في حنان وهو يخاطب قاسم.
- ابن من زيد يا قاسم؟
وقبل أن يفتح قاسم فمه جاوبه زيد بصوت متهدج:
- ابن زينب
وهنا وضع قاسم يده على رأسه وهو يردد زينب، فقال صادق:
- زينب من؟
- خادمة خادع وظنها الناس رحلت مع خادع لذلك التمسوا زيد ولما لم يجدوه أبلغونا بغيابه ولكنها جدته وليست أمه.
- وماذا في ذلك؟
وخاطب زيد.
- أين جدتك يا زيد؟

- لا أعرف ولكنها لم تعد منذ أول أمس.
- ومن كان يطعمك؟
- لم أكل منذ أول أمس.
وهنا حمله صادق مسرعًا إلى السوق مرة أخرى وهو يستمع لقاسم الذي ظل يردد
- زينب خادمة خادع ربما يكون آه آه لا لا يمكن !
فأمره صادق بالكلام فقال:
- لقد سمع مخلص خدم خادع يتحدثون عن...
واقترب منه هامسًا في أذنه حتى لا يسمع الولد:
- جثة زينب
فتوقف قاسم وما كاد يمتلك أعصابه ولكنه سكت كاظمًا غيظه.

دب الخوف في نفس قاسم من خادع فجأة بعد أن عرف أنه قد يكون قتل زينب وأنه بعد وقوع هذا الأمر تأكد أنه لم يعرفه حق المعرفة ولكنه تساءل في نفسه لماذا قتلها؟ زينب الفقيرة المعدمة العجوز التي لا تملك أي شيء في الدنيا لتقدمه لخادع ليأخذ روحها مقابلًا له ولما أقدموا كان صادق على أشد ما كان من الغضب ولكنه وبرغم كل هذا الغضب كان يبتسم في وجه زيد ويمرر يده على شعره في حنان ولما دخلوا إلى السوق أمر صادق لزيد بطعام وشراب وأدخله إلى أهله في كنف زوجته ومع طفليه نور الدين وفاضل.

وبعد مرور بعض الوقت قدم مخلص وهو يعرج ولا يكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه وقف أمام صادق ولم ينبس وإنما هز رأسه له وبمجرد أن فعل نادى صادق في الناس أنه حان وقت الرحيل وقام أهل القبيلة محدثين جلبة عالية وقد انتشر حولهم شباب القبيلة يحملون سيوفهم وآخرون يحملون مشاعلًا تضيئ الطريق وتحركوا وأمامهم صادق وقاسم وراضي دون خادع ولم يسأل عنه أحد.
ولما دنوا من مخرج القبيلة نحو الصحراء عرج بهم صادق والشباب ناحية قبيلة السلام فلم يفهم قاسم ولا راضي ماذا يحدث وتعالت الأصوات متسائلة ولكن الناس اتبعوا صادق إلى حيثما قصد أما راضي فقد كادت عيناه تخرجان من مكانهما وهو يسير في رعب ولا يكاد يستطيع أن يتنفس وزاد الطين بلة هذا القرار المفاجئ من تغير الوجهة وأخذ قاسم يسأل صادق:
- أين نذهب؟ ماذا يحدث؟ لقد قلت لك إنك تخطط لأمر ما!
وكان صادق يجاوبه بابتسامة ولم يكن قاسم حزينًا لأجل التغير المفاجئ ولكنه حزن لأنه لم يتم إخباره بما يحدث وفي الطريق إلى قبيلة السلام تناثر الغبار في الجو من سير آلاف البشر عليه وسكت قاسم وهو يسير وقد بدا عليه الحزن فمال عليه صادق وهمس:
- لم أقصد أن أخبئ عليك شيئًا وإنما كان ذلك من أجل السرية وسوف تعلم ما هو قصدي في حينه.

ولما وصلوا ناحية القبيلة كان في انتظارهم أهل قبيلة السلام سلموا عليهم بحرارة وأخذت النساء نساء قبيلة الرعاع والأطفال إلى بيوتهم وتجمع الرجال في مدخل القبيلة وقد استقبلهم جيش كبير من القبائل الأربعة يحملون سيوفًا ومشاعل وآخرون يقفون دون أسلحة متأهبين وعلى رؤوسهم الشيخ ثابت وأسامة وبلال والشيخ عبدالقادر العوني.
ولما رأى قاسم ذلك فهم ما كان يعده صادق من قبل وعلم أنه لم يكن في نيته يومًا الخروج من القبيلة وإنما كان في نيته فقط تصحيح أوضاعها.
ولما فرغ الناس من السلام وهدأوا صعد صادق فوق صخرة ضخمة يخطب فيهم بكلمة وسط هدوء تام:

- أيها الرجال.. أيها المعذبون في الأرض.. أيها الصابرون.. أيها المنتظرون ليوم الخلاص.. ويا أيها الصامتون، مضى زمن الصمت ولى إلى غير رجعة، وإن كان بصمتكم وصلنا لما نحن فيه الآن ولكن الليلة هي فرصتكم لتثبتوا لأنفسكم ولأبنائكم وللأجيال القادمة التي ستحمل أسماءكم أنكم كنتم رجالًا وقفتم في وجه الطاغوت وضحيتم بكل غال ونفيس لأجل الحرية.
يا رجال قبيلة الرعاع: قبيلة الرجال من الآن وصاعدًا هو اسمكم كما كان في الماضي حافظوا عليه الليلة ثم إلى باقي الزمان، لم أنوِ يومًا أن أترك أرضنا التي تربينا فيها وترابها كون لحمنا ودماءنا، دونها الموت، وإنما كانت الخديعة لنخدع أعداءنا لنستطيع هزيمتهم، والليلة سنواجه الملك الظالم سنكسر ظلمه ونحطم سيفه الظالم وسننهي كل ذلك بأيدينا، لن يأتي أحد لينقذنا مما نحن فيه إلا قوتنا وشجاعتنا وتمسكنا بحريتنا.

بعد قليل سنهجم على مخازن السلاح الملكي ومن منكم لا يمتلك سلاح فسيكون معه إن أراد بعد أن نهجم على المخازن ولا تقلقوا قد تدبرنا أمورنا ولن تكون هناك مشقة في هذا وسترون ذلك بأنفسكم وأما من يأبى منكم أن يفعل ذلك فمكانه هنا بين النساء أما نحن فسنحرر أرضنا وأنفسنا من مغتصبيها.

وهنا أصدر الناس أصواتًا عالية في حماسة وقد فرحوا بما قال صادق ولما كثر الحماس أشار إليهم صادق فصمتوا وأكمل:

- أخشى ما أخشاه عليكم أن لا تعضوا بنواجذكم على الحرية إن اكتسبتموها الليلة وأن تتراجعوا بمرور الوقت عن حماستكم هذه وكل ما أريد أن أوصيكم به أن تتمسكوا بالحرية لآخر نفس في أصغر طفل فيكم أن تعلموا أن مهما سيحدث اليوم إنما هو فقط البداية وسواء أن انتصرنا أو لم ننتصر سواء صادق بينكم أم لا أرجو أن تظلوا دائمًا هكذا أحرارًا.

تسلل القلق إلى قلب خادع وهو واقف أمام قصر الملك وحوله مجموعة من الجنود السكارى ولولا هندامه المنظم لتحرشوا به ولناله منهم ما ينال جميع الرعية من تحرش العسكر بهم ولما طال انتظاره وهو يخشى أن يدخل إلى القصر لمح جنديًا يعرفه فنادى عليه ولما رأه الجندي أقبل عليه يترنح وهو يحاول أن يتماسك أمامه في فشل فأخبره خادع أنه يريد أن يرى الملك ولما أخبره الجندي أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك أمر الجندي أن يرسل في طلب خشخاش وزير الضرائب وقائد الجيش وقد كان خشخاش شريكًا لخادع الذي يدفع له القطع الذهبية في مقابل حماية تجارته من بطش الملك ومن الرعاع في آنٍ واحد ودخل الجندي إلى باب القصر العملاق ولكنه لم يستطع أن يدخل لذلك أشار ناحية خادمة تربطه بها علاقة آثمة فمالت إليه وهي تضحك ظانة أنه يريدها لغاية أخرى ولكنه قال لها في حزم بأن تذهب ناحية الوزير خشخاس وتخبره أن خادع يريده في الخارج لأمر ضروري فذهبت الخادمة آسفة ودخلت إلى قاعة القصر ولما اقتربت من الوزير خشخاش وكانت جميلة ضمها إليه في عنف وقد لعبت الخمر بعقله وكاد يذهب وكان الملك في تلك الليلة قد خلع وقاره وأخذ يشرب بكثرة ويرقص بين الغانيات ورجاله كأنه رجل فقد عقله.

ولما هم خشخاش بالخادمة اقتربت من أذنه وأخبرته أن خادع في انتظاره بالخارج فتغيرت ملامحه ودفع الخادمة وقام مترنحًا محاولًا الخروج من باب القصر العملاق ولما خرج ضربته نسمات الهواء فاستفاق قليلًا واقترب من خادع في قلق وأخذه من يده إلى مكان بعيد عن الجنود السكارى الذين افترشوا الأرض وهو يقول

- ما الذي أتى بك إلى هنا أيها المجنون؟ أتريد أن تتسبب في مقتلنا نحن الاثنين؟

إن الملك وصفوة رجاله في الداخل ولو علم أحدهم أن شيئًا ما بيني وبينك فلن يترددوا لحظة واحدة أن يأكلوا أموالنا إلى كروشهم ثم يقتلعوا رؤوسنا من رقابنا بعد ذلك.

قال خادع دون أن يعبأ بكلمة مما قالها خشخاش:

- أريد أن أقابل الملك فورًا ودون نقاش ودون أن تسألني لماذا؟

- أجننت يا خادع لن يقابل الملك أحد الرعاع مهما امتلك من المال.

وقعت الكلمة في صدر خادع فآذته وقال في نفسه رغم كل ما تملك يا خادع ما زلت من الرعاع وأردف يقول:

- الأمر لا يحتمل أي تأخير لابد أن أقابله وإلا لانتهى نظام حكمه إلى الأبد، أتفهم إنه أمر جد خطير.

تغيرت ملامح خشخاش ونظر في عيني خادع فوجدهما صادقتين إلى أبعد حد فتسلل القلق إليه وقال له:

- أخبرني أولًا ماذا هناك؟

فقاطعة خادع:

- الأمر لا يحتمل الحكي الطويل فقط قابلني به لدقائق معدودة.

تنهد خشخاش وأخذ يفكر ثم غمغم:
- سأحاول وسأقول إنك أحد البصاصين جئت لتخبره بأمر ما ولكن ليس الآن لو انشقت الأرض وابتلعت المملكة كلها فلن يعبأ بها الملك فقط بعد انتهاء الحفل وأظن أنه أوشك على الانتهاء.
نظر خشخاش حوله ثم أردف:
- انتظر هنا حتى لا يراك أحد وبمجرد انتهاء الحفل سأرسل في طلبك.
أومأ خادع برأسه في قلق وجلس منتظرًا على أرضية معشوشبة خارج القصر، وانطلق خشخاش عائدًا إلى صالة القصر.
وبعد مرور بعض الوقت وأثناء الحفل الصاخب غلب الملك النعاس فانفض الجمع من فوره وذهب الأعيان والوزراء إلى بيوتهم تاركين الملك ليستريح، بعد ذلك خرج خشخاش وأدخل خادع إلى القصر بنفسه ثم أرسل جنديًا كان يرتعد ليوقظ الملك
اختفى خشخاش بعد ذلك وتقدم الجندي من الملك في رعب ومد يده يوقظه وهنا فتح الملك عينيه ليرى الجندي أمام عينيه يقول بتلعثم وخوف.
- أحد البصاصين يريد أن يقابلك لأمر خطير يا مولاي.

أنجز خادع مهمته بنجاح وعاد إلى القبيلة فلم يجد أحدًا وظن أنهم رحلوا لذا عاد إلى الصحراء بحصانه الذي كان يركب ومشى ناحية الشرق من المملكة حيث كان هناك بيته الذي شيده منذ فترة وقد أرسل خدمه وحرسه مع أمواله وبضائعة إليه وقف أمام حرسه وما أن رأوه حتى أقدموا عليه وأخذوا منه فرسه وترجل هو إلى داخل القصر نحو زوجته حسناء وما أن رأته حتى أقبلت عليه بوجه بشوش، وبابتسامة قالت:
- أأخبرت الملك؟
تنهد ثم ارتمى على كرسي:
- نعم أخبرته..الآن فليحدث ما يحدث نحن بعيدين عن كل هذا وحينما يمسك بهم الملك نكون نحن في مأمن ولو استطاعوا الهروب سنلحق بهم بعد أيام بعد أن نطمئن أن كل شيء على خير ما يرام أو لا نفعل فقط سنستطيع ان نتدبر أمرنا.

تحسست زوجته كتفيه وهي مبتسمة:
- ما فعلته هو أحسن الحلول وأرشدها وصبرك على ما فعله صادق لهو خير دليل على ذكائك وحنكتك ودهائك.
- لا تذكري اسم هذا المخلوق هنا أتسمعين؟
في شيء من الارتباك قالت:
- نعم نعم إنه لا يستحق ذلك بالفعل ولكن ماذا لو حدث شيء لم يكن بالحسبان ماذا سنفعل عندها؟
بابتسامته الخبيثة المعتادة أخبرها:
- لا تقلقي فأحد رجالي هناك لو حدث شيء ما سينسل من بينهم عائدًا ليخبرني فلا تقلقي من ذلك.

تحرك جيش الملك في جنح الظلام حاملين عدتهم العسكرية كاملة كأنهم ذاهبون لملاقاة جيش من الأعداء ويحمل بعضهم المشاعل لإنارة الطريق وكان صادق ومن معه يسمعون صوت أقدام الجيش وزمجرته وهو يتحرك ناحية القبيلة وقد دب الخوف في بعضهم ولما رآهم صادق هكذا صعد إلى تل ومعه لفيف من الرجال وقد أطفأوا ما معهم من نار حتى لا يراهم جنود الملك وراقبوا الملك وجنوده وهم يدخلون إلى قبيلة الرعاع في ظلام الليل ولما رآهم مخلص وكان يقف بجانب صادق قال في حماس:
- الآن لابد أن نهجم على مخازن السلاح ونسلح باقي الرجال لملاقاة هذا الجيش الجرار.
فشد قاسم أخاه من يده وهو يقول:
- ليس من شأنك أن تتحدث في هذا الأمر الآن هذا هو شأني أنا أما أنت فاجلس هنا مع من هم في مثل سنك.
فكاد مخلص أن يستشيط غضبًا ويرد على أخيه ولكن قاطعه صادق
- قاسم معه كل الحق يا مخلص أنت هنا مع الرجال الذين سيحرسون نساءنا وأبناءنا حتى نعود منتصرين بعون الله
وأما عن تساؤلك فاعلم أننا لو هجمنا الآن على مخازن السلاح وعلى القصر فحتمًا ستحدث معركة وإن كانت صغيرة مع ما تبقى من جيش الملك هناك وحينما يسمع الملك وجنوده أصوات القتال فسيكون من السهل عليهم الرجوع بسرعة لقتالنا
أما ما نريده حقًا الآن هو أن يعتقد الملك ورجاله أننا خرجنا من القبيلة إلى الصحراء فيذهبوا للبحث عنا وذلك سيمكننا من السيطرة على المملكة بسهولة وما علينا الآن إلا أن ننتظر وندعو الله أن تسير الأمور كما خططنا.

دخل الملك وجيشه إلى القبيلة في ترقب وبمجرد دخولهم أنارت مشاعلهم شوارع القبيلة الضيقة والبيوت البسيطة المصنوعة من الطين وكان الملك يمشي ويتأمل المنظر وهو غير مصدق فلم يكن يتصور أن هناك من يعيش في هذه البيوت التي تشبه المقابر على حد ما دار في خلده وكان يمر على أشيائهم التي تركوها في سوق القبيلة وهو قانع بأنهم قد غادروا بالفعل ولكن ما زاد تأكيده أن الجنود الذين أرسلهم للانتشار في القبيلة كلها قد أتوا بجنوده وبصاصينه الذين قُيدوا في بيت صادق فوكز جنديًا منهم فقال في خوف وعجلة وبتلعثم:
- القبيلة كلها خرجت إلى الصحراء نحو مكان ما لأ أعلمه سمعتهم يتحدثون أمام البيت وصادق هو زعيم هذا التمرد وقد خدعونا جميعًا يا مولاي.
فقال الملك وهو على ظهر فرسه.
- هل يحملون سيوفًا؟
- القليل منهم ربما هم أقل من مائة رجل.
وأكمل الملك:
- ألا يعلم أحدكم أين ذهبوا؟

فأومأ بعضهم برؤوسهم أن لا وصمت الباقون وتأملهم الملك ثم نظر ناحية خشخاش وقال:
- يُقتلون:
وما أن لفظها حتى سمع صراخ البصاصين والحرس واستنجادهم بالملك وقد أمر خشخاش رجاله بقتلهم فانفجر الدم من عروق البصاصين والعسكر ونزل على الأرض وأغرق ملابس قاتليهم.
وما أن انتهوا حتى دفع الملك فرسه ناحية الصحراء شاهرًا سيفه إلى السماء وتبعه باقي جنده إلى خارج المملكة ومازال الظلام يسدل ستائره على المكان.

سمع صادق الضجيج الذي أحدثه الجيش وهو خارج إلى صحراء المملكة فبدت منه ابتسامة وارتعش جسده دون أن يراه أحد وهو يدعو الله في سره وما أن فرغ من الدعاء حتى نزل من التل ومعه من كان معه من الرجال وكان قد أمر بلال وأسامة الذين أوكل إليهم مسئولية الجيش بترك بعض الرجال بكامل عدتهم في قبيلة الخُلج وآخرين في قبيلة المواريد وضعفهم في قبيلة السلام ليحموا النساء والأطفال وتجمع الجيش الجديد الذي تشكل من رجال المملكة المخلصين وذهبوا ناحية القصر ومنطقة الأعيان وهجموا على مخازن السلاح هجمة قوية انتزعوا خلالها أغلال المخازن وتسلح ما تبقى من الرجال بحراب طويلة مدببة وسيوف قوية مسننة وانطلقوا إلى قصر الملك وما أن اقتربوا حتى وجدوا عشرات الجنود يصطفون أمام القصر وقد أيقظتهم الجلبة التي أصدرها الجيش ولكنهم كانوا سكارى لا يستطيعون الوقوف بثبات لذلك أوقف صادق الجيش وقال للعسكر بهدوء:

- نحن شعب المملكة جئنا لاستعادة وطننا من سارقيه ولا نريد قتلكم فإن استسلمتم الآن نجوتم بأرواحكم وإلا فهذا ما اخترتموه بأنفسكم.
همس أسامة في أذن صادق وكان شابًا مفتول العضلات يمتلئ غيظًا من العسكر يقول:
- لماذا يا أخي هؤلاء قتلة لابد أن يقتلوا؟
فجاوبه صادق بابتسامة:
- هناك قضاء يبت في ذلك بعدل نحن لسنا مثلهم لكي نفعل ما يفعلون الذي يحدث الآن يحدث بأخلاقنا نحن لا بأخلاقهم.
نظر الجنود لبعضهم طويلًا إلى أن أقدم أحدهم ورمى سلاحه في خوف وتبعه باقي الجنود وما أن فعلوا حتى أخذهم بعض الرجال ناحية أحد مخازن السلاح التي أفرغت عن آخرها وحبسهم فيها لحين البت في أمرهم وعين عليهم حرسًا وانتشر الرجال في منطقة الأعيان دون عناء ودخلوا إلى البيوت كما أمرهم صادق لتأمينها والتأكد من خلوها من العسكر والسلاح دون المساس بسكانها بأي سوء ولما انتهوا دخل صادق وقاسم ومعهم بلال إلى القصر وانبهروا بما رأوا من أبهة وزخارف وأرائك مطلية بماء الذهب وقطع مرصعة بالياقوت والألماس وجدران مزخرفة

برسومات ومفروشات حريرية وروائح ذَكية لم تعتد أنوفهم على شم مثلها من قبل وأردف قاسم بتهكم:
- يالا عربتي المسكينة لو كانت معي الآن لحملت في درجها من كل هذا.
ضحك صادق بمفرده دون بلال الذي لم يفهم أي شيء ثم قال:
- هذه نقودنا التي سرقت هذه الزخارف التي ترى يا قاسم هي ثمن دماء رجال القبائل الأربعة.
وما لبس أن دخل أسامة إلى القصر وكان يتصبب عرقًا وهو يقول:
لقد تمت السيطرة على المنطقة بأسرها وانتشر الجيش في كل منطقة الأعيان وسيطروا على ما تبقى من حرس الملك وحبسناهم جميعًا في عدة مخازن أفرغناها من السلاح ولم يتبقى إلا ما تأمر به أخي صادق.
نظر صادق إلى أسامة وقال بابتسامة:
- أنت قائد عظيم وشجاع يا أسامة وسوف تكون قائدًا إلى النهاية.
وتنهد ثم أكمل:
- بقي آخر خطوة وأهم خطوة، لم يتبقَ إلا المعركة أحشد الجيش في الساحة الكبرى.

خرجوا جميعًا ناحية الساحة وأمر أسامة فاصطف الجيش في الساحة يحمل السلاح وكان قد جلب بلال وأسامة من اسطبلات الملك ما تبقى من الخيل وركبها من يعرف ركوبها من أبناء المملكة وقد صنعوا بذلك ما يشبه سلاح الفرسان وإن كانوا أقل تنظيمًا وأقل خبرة من سلاح فرسان الملك.
كان الجيش أكبر من جيش الملك بثلاثة أضعاف على الأقل ولكنهم غير مدربين بالشكل الكافي وبمقارنة بعسكر الملك المدربين على استخدام السلاح فستكون ملاقاتهم أشبه بكارثة لو صح الظن وكان صادق يعرف ذلك وقد اعتمد على أمرين أولهما أنه في هذه الظروف فلا مفر لهؤلاء الرجال من الانتصار لأن بهزيمتهم ربما سينتهي أمرهم وعائلاتهم إلا الأبد لذلك عرف صادق أنه لابد أن كل واحد منهم في قرارة نفسه قد عزم على القتال بكل ما أوتي من قوة وثاني الأمرين أنه قرر أن يطلب من جيش الملك والذين هم في النهاية بشر ربما أُرغموا على فعل أمور خاطئة بغير حول منهم ولا قوة أن يستسلموا حقنًا للدماء وسوف يتم الإعفاء عنهم مقابل ذلك
هذا ما كان ينتويه وقد كان صادق يعلم أيضًا أن الجيش الذي سيرهق طوال الليل في البحث في الصحراء عن المجهول سيرجع وقد خارت قواه وربما سيكون ذلك فرصة أخرى للنيل منهم وسيكون ذلك سببًا في دحض عزيمتهم ويرغبهم ذلك في الاستسلام والتخلي عن الملك.
نشر صادق رجاله فوق الجبل يراقبون قدوم الجيش الملكي، وافترش جيش صادق الأرض يتناولون بعض الطعام منتظرين قدوم جيش الملك ومنتظرين المعركة الأخيرة وقد لاح الصباح وأشرقت الشمس.

وفي القبائل الثلاثة كان القلق على أوجه ولكن الإيمان بالقضية كان أقوي وحُلم الخلاص من الظلم يبعث في القلوب الشجاعة والقوة ولم تكن النساء أقل من الرجال

حماسًا وأخذ الصبية ينتشرون في الشوارع ويمسكون بعصا الأشجار ويلعبون مع بعضهم كأن العصا التي في أيديهم سيوفًا وترى ابتسامتهم وضحكاتهم تعلو وجوههم كأن شيئًا لا يحدث أمامهم بأمتار قليلة وكان راضي قد تسلل بين الرجال الذين أوكل إليهم حماية قبيلة الرعاع وقبيلة السلام وعثر على سيف وأقحم نفسه بينهم هروبًا من الحرب فلم يكن راضي ذلك الرجل الذي يستطيع أن يحمل سلاحًا ويقف في وجه عدو وقد كان يفعل ما يفعل من أمر الخروج على مضض وزادت مصيبته مصيبة حين علم بخطة صادق التي انتوى أن يفعل.
دار راضي بين بيوت قبيلة السلام يبحث عن زوجته مريم وأبنائه بين النساء ولكنه فشل حتى دلته إحدى النساء على تجمع كبير لنساء وأطفال قبيلة الرعاع في ساحة بيت الشيخ ثابت فذهب إلى هناك ليجد تجمع من الرجال العجائز الذين لم يقدروا على الدخول في المعركة وعلى رأسهم كان يجلس الشيخ ثابت والشيخ عبدالقادر العوني وما أن رأهما راضي حتى التف راجعًا إلا أن الشيخ ثابت تبينه ونادى عليه فوقف وعلى وجهه حمرة الخجل ثم نفخ صدره وحمل السيف عاليًا ودخل إلى الجمع سلم عليهم وقال في شيء من الكبرياء المتصنع.
- لقد تركني أخي صادق لأكون على رأس القبيلة حتى يرجع.
وتساءل الجمع في أنفسهم لمَ قال ذلك ولم يسأله أحد؟ ولاحظ هو نظراتهم لذلك استطرد يسأل:
- هل هناك أخبار عن المعركة؟
تنهد الشيخ ثابت وقال:
- نعم جاءنا الرسول وأخبرنا أن جيشنا سيطر على القصر الملكي ومنطقة الأعيان بأسرها واحتشد في الساحة الكبرى لمواجهة جيش الملك الذي لا يزال في الخارج وإن شاء الله النصر لنا.
وقال الشيخ عبدالقادر في تؤدة:
- الظلم لا يدوم مهما كثرت أيامه ومهما طال الليل فلابد أن ينجلي ويأتي الصباح بأنفاسه العطرة ورياحينه الزاهرة وقد كنت والله وبرغم كل الأيام العصيبة التي مرت بها المملكة عندي أمل أني لن ألقى ربي حتى أرى نور الحرية لأبنائي وأحفادي كان في قلبي يقين أني لن أقبل على الموت حتى أرى رغيف العيش سهل المنال حتى أرى الظلم يُذبح بأيدينا وأرى موازين القسط توضع بأيدينا وها أنا أرانا اليوم قد شرعنا في هذا وإن شاء الله النصر حليفنا ما دمنا مؤمنين بقضيتنا.

تعالت الأصوات تصديقًا لكلام الشيخ ولكن راضي قاطع هذا الصخب الحماسي الدائر بأن قال بعد أن تنحنح:
- قالوا لي أني ربما أجد زوجتي وأولادي السبعة هنا في بيت الشيخ ثابت.
فأشار له الشيخ ثابت أن يلتف إلى الساحة في الخلف حيث النساء والأطفال وحينما التف وجد جارتهم العجوز سلسبيل فسألها عن زوجته وأولاده وأخبرته أنها لم ترهم بين النساء قط منذ ليلة أمس فازداد قلقًا وطفق يبحث عنهم بين بيوت قبيلة السلام مرة أخرى.

وفي تلك الأثناء وأثناء تجمع الرجال في بيت الشيخ ثابت تسلل خادم خادع وجاسوسه من بينهم بعد أن عرف كل شيء وسرق حمارًا كان في بيت من بيوت القبيلة وركبه واستطاع أن يخرج من القبيلة دون أن يره أحد وفي أثناء خروجه إلى صحراء المملكة شرقًا رأى جيش الملك راجعًا من بعيد إلى المملكة فضرب حماره وانطلق ناحية قصر خادع مهرولًا وما أن دنى منه حتى قفز من فوق الحمار تاركًا إياه يجري دون أن يوقفه ودخل إلى القصر وهو ينادي بأعلي صوته.

- سيدي خادع سيدي خادع

وما أن وقف أمامه حتى أخذ يقول بنفس متقطع لا يكاد يستطيع أن يأخذه:

- صادق جمع الرجال في القبيلة وكون جيشًا واستولى على قصر الملك.

فقاطعةخادع بصرامة وقد بدت المفاجأة على وجهه:

- ماذا تقول أيها الأخرق كيف حدث ذلك وأين جيش الملك.

- لقد خرج جيش الملك لملاحقة القبيلة ظنًا منه أنها خرجت إلى الصحراء ولكن شيئًا من هذا لم يحدث وإنما قادهم صادق نحو قبيلة السلام وأسكنهم هناك وجمع جيشًا من القبائل الأربعة وقد رأيت الملك مقتربًا من الرجوع إلى المملكة هو والجيش وسيقابل جيش صادق لا محالة.

لم يصدق خادع ما سمع ونزل عليه الخبر كالصاعقة ولكنه تماسك وسأله:

- هل سيطر صادق على القصر ومنطقة الأعيان؟

- نعم واستولى على مخازن السلاح وأعطى لكل رجل يستطيع سلاحًا وجيشه إن صح ظني يقدر بأربعة أضعاف جيش الملك.

وضع خادع يده على رأسه يفكر وقد كاد يجن من جراء سماعه للخبر وانتبه لما قاله الخادم فجأة فقال في تسرع:

- هل دخل الملك إلى المملكة بعد؟

- لا

إذن لابد من تحذيره اركب الآن ومجموعة من الحرس إلى الملك.

وصمت خادع ثم أردف:

- لا لا تفعل اجمع كل الخدم والحرس في الحال وسأذهب معكم إلى الملك نحذره من الوقع في الفخ.

وسرعان ما انطلق خادع في مائة من خدمه وحرسه يحملون السيوف ناحية جيش الملك ليلحقوا به قبل أن يدخل المملكة وكان قلب خادع ينبض بشدة كلما اقترب من الدخول إلى هناك ولم يكن يعلم لأول مرة ماذا يفعل حيال تلك المعضلة إلا أنها تعقدت أكثر وأكثرحينما دخل المملكة ليجد أن الملك والجيش قد اقتربوا من الساحة الكبرى.

وفي هذا الوقت كانت أصوات الرجال الذين وضعهم صادق فوق الجبل قد تعالت بقرب قدوم الملك وجيشه فتأهب الرجال وأمسكوا بحرابهم وسيوفهم ووقف صادق وبلال وأسامة أمام الجيش وتراجع قاسم للخلف حين انتبه لوجود مخلص بين صفوف الجيش مرتديًا درعًا كان قد أعده منذ فترة ويحمل سيفًا فرجع إليه يعنفه بشدة إلا أن

مخلص رفض أن يرجع إلى القبيلة كما أمره أخوه وأصر أن يقاتل معهم فتراجع به قاسم إلى الصفوف الأخيرة ووقف بجانبه ظنًا منه أنه يستطيع أن يحميه بهذه الطريقة ولما أقدم الملك وجيشه ورأى ما رأى أصابته الصدمة وعلم في قرارة نفسه أن اليوم الذي كان يخشاه ويفعل كل ما يتوجب عليه لكي لا يأتي أتى رغمًا عنه ولما رأى خادع الجيشين تسلل إلى جبل عالٍ هو ورجاله ووقف عليه يراقب الموقف دون أن يره أحد
وأقبل الملك وهو يظهر بعض التماسك أمام جيشه الذي توقف ومعظم الرجال لا يعلمون ماذا يحدث وترجل عن فرسه وقال بصوت مسموع يسمعه الجيشان
- أرى أن رجالًا من رعيتي قد حملوا السيف عليَّ وقد احتلوا قصر الحكم رمز المملكة وهذا عيب كبير ولكني عفو غفور كما تعلمون وسأسامح الجميع لو رحلوا الآن.
تقدم صادق بقوة ظاهرة وباطنة وقال بصوت عال:

- لست ملكنا ولسنا رعيتك أيها الظالم الأشر، اليوم ستدفع ثمن أخطائك أنت وكل خائن خان وطنه لأجلك وأجل حفنة من ذهب.
أعملت في رعيتك التي تزعم القتل ولم تكتفِ بذلك بل قتلتهم جوعًا وكمدًا لابد أن تخرج روحك ألف مرة حتى يشفى غليلنا.

كانت كلمات صادق مرعبة للملك وجيشه وأُطلقت من فمه كَسَهم أصاب الملك في مقتل فلم يستطع جوابًا إلا أن قال في عنجهية وكبر:
- أنا ملكك وملككم كابر عن كابر هذا القصر كان ملك أبي وجدي وآل إليَّ عنهم وسيرثه أبنائي من بعدي لا محالة.
ضحك صادق بصوت عال فأثار ضحكه ضحك بعض الرجال وبث بضحكه الاطمئنان لقلوبهم والرعب والخوف إلى قلوب أعدائهم وأردف يقول:
- أنت لا ترى ما أنت فيه الآن أيها الرجل؟ إن خدك يرتعش من الرعب.
فمد الملك يده يتحسس خده فازداد ضحك الرجال وفقد فجأة هيبته بين رجاله وأكمل صادق.
- اليوم لا يجب أن تتحسس خدك وإنما عليك أن تتحسس رقبتك، أما أنتم أيها الرجال فلطالما كنتم يده التي يبطش بها وسيفه الذي قتل رجالنا ويتم أطفالنا ولكننا وتجاوزًا عما فات من يُقبل منكم الآن إلينا مستسلمًا، له من الأمن والآمان والغفران ما يطمئن له ومن يكابر معه ووزراؤه وحاشيته التي ارتكبت الجرائم فسيكون مصيره مجندلًا تحت التراب.
علت الضجة في جيش الملك وكثر الكلام وكان قد أعيتهم الليلة ولم يستطيعوا أن يأخذوا قرارًا، كانوا ينتظرون أن يفعلها أحدهم فيقبلوا من خلفه فارين من الموت
وطال الصمت وطال الانتظار حتى قال صادق:
- إذن أنتم ترفضون إلا أن تموتوا على ظلمكم إذن هذا اختياركم.

ورفع يده نحو السماء فتأهب الجيش وتأهب الجيش الآخر إلا أن شيئًا حدث أذهل الجميع، اخترق سيفًا طويلًا ظهر الملك خارجًا من بطنه فتألم الملك بشدة وحاول أن يلتفت ولكنه لم يقدر على ذلك إلا أنه لمح خادع يمسك بالسيف ويضغط به بقوة وظل الملك يشير إشارات غريبة نحو خادع وقد خرج الدم من فمه وسط ذهول الجميع وسقط الملك صريعًا وظهر من خلفه خادع مومئًا إلى خشخاش الذي أومأ له بدوره وهو يقول وسط ذهول صادق بصوت جهوري:
- هذا هو الملك الظالم قد قتلته وجنبت أبناء المملكة أن يقاتلوا بعضهم لأجله.

وفجأة عم الفرح في أوساط الجند وارتبك صادق ومن معه ونظر قاسم من الخلف نظرة نحو خادع تحمل معنىً واحد فقط وهو أحسنت أيها الخبيث.
ولما فاق صادق من غفوته التي استمرت للحظات أمسك سيفه في غيظ وأخذ يخترق جموع الناس الذين أفرطوا في الفرح بشكل غريب وكأن شيئًا لم يحدث وراقبه قاسم ومخلص من دون الناس وكاد يصيح صادق في الناس أيها الحمقى الأمر ليس في الملك فقط لكنه علم أن أحدًا لن يسمعه وسط هذه الضجة العالية لذلك قرر أن يخترق الصفوف إلى خادع يرديه قتيلًا حتى يقطع عليه ما فعل وظل يبحث عنه بين الناس ويدفع هذا ويصرخ في وجه هذا حتى لمحه واقفًا بجانب جثة الملك واضعًا قدمه عليها مبتسما ابتسامة خبيثة أزاح الناس من أمامه وأقبل عليه شاهرًا سيفه مقدمًا عليه عازمًا قتله إلا أنه ارتطم بصدر رجل مبتسم ينظر إليه ولاتزال الابتسامة تعلو شفتيه وعندما حاول صادق أن يزيحه من طريقه وقف الرجل ولم يسمح له بالمرور فنظرإليه صادق وتأمل في ملامحه وعرفه إنه مكران أجيرخادع وقبل أن يتحرك كان خنجر مكران يضرب صادق عدة ضربات رآها قاسم ومخلص وكاد مخلص أن يصرخ من هول ما رأى إلا أن يد قاسم أمسكت فمه وأغلقته والدموع تنزل على عينيهما وسقط صادق على ظهره يخرج الدم من فمه والدموع من عينيه وخبأ مكران خنجره وغادر من فوره ومازال الناس فرحين يتقافزون في الهواء في حين أقبل خادع ناحيته ونظر له مبتسمًا ولم يقل شيئًا ولفظ صادق أنفاسه الأخيرة وكان آخر ما رأى هي ابتسامة خادع الشامتة

كانت الطرقات فارغة من المارة تمامًا ومخلص يحاول أن يتخلص من قبضة أخيه صارخًا وتختلط صرخاته بحزن عميق ودموع منهمرة ولكنه لم يقدر أن يفلت منه وكلما حاول كان قاسم يسحبه من يده بشدة ناحية عربته التي أوقفها في مكان بعيد في الصحراء الفاصلة بين قبيلتي الرعاع والسلام، ولما دنايا منها حمل قاسم أخاه إلى العربة وقد دنا من أن يفقد وعيه لذلك افترش على ظهر العربة باكيًا في صمت حتى وصلا إلى بيتهم في قبيلة الرعاع المهجورة وحمل قاسم أخاه مرة أخرى إلى الداخل وكان قد غلبه الإرهاق فنام وكان يستيقظ فزعًا كل برهة ولكنه سرعان ما كان يغفو مرة أخرى حتى أفاق من الصدمة وجلس يرمق أخاه بنظرات حادة رأى فيها قاسم بداية كره وخذيان ولذلك سرعان ما تحدث إليه تجنبًا لغضبته:
- لقد رأيت حرس خادع وخدمه ينتشرون فوق الجبل حاملين سهامًا كانت ستجد ضالتها لو تفوهت بكلمة ولو أخطأوا فلن يخطئك مكران لو أمره خادع أبدًا

نظر له مخلص واغرورقت عيناه بالدموع وهو يهمس (صادق) ثم دنا من أخيه ورمقه بنظرة غاضبة:
- أنت خائن
- لا لست خائنًا ولكني أخ أكبر وأب، خشيت عليك الهلاك.
- ربما كانت ستتغير أشياء لو..
قاطعه قاسم:
- لم يكن ليتركك خادع لتنبس ولو بكلمة
- اخترت حياتي مقابل حياة صادق.
- وأختارك مقابل حياتي أنا أيضًا، هناك لحظات ينتصر فيها الظلم ومن الحمق أن تقف أمام الموج العالي وأنت لا تستطيع السباحة.

نظر قاسم لأخيه نظرة تأمل فيها ملامحه واستطرد بنبرة حزينة:
- لقد كنت أحب صادق وأعلم مدى إخلاصه وشجاعته وقد وقفت بجانبه أمام خادع في الاجتماع الأول واخترت رأيه عن رأي خادع رب عملي الذي لولا عملي عنده ربما كنا أمواتًا بسبب عجزنا عن دفع الضرائب طيلة الأعوام الماضية وربما لهلكنا جوعًا أيضاً ولكن الذي حدث اليوم لم يكن بالحسبان وانقلب الأمر في لحظات ولم يكن بيدي ولا بيدك شيء.
وصرخ مخلص بصوت عالي فجأة:

- لقد كان جيش القبائل الأربعة معنا.
- لم أكن لأغامر بحياتك.
- أنت جبان.
- ليكن.. ولكني نجوت بك.
وقبل أن ينبس مخلص:
- إن كنت تحب صادق بالفعل فعلينا الآن أن نخرج عائلته زوجته وأبناءه فورًا من المملكة لأن خادع لن يتركهم وشأنهم أبدًا وأنت تعلم ذلك.
- لماذا تتحدث وكأن الأمر قد انتهى ما زالت الثورة قائمة وسيتغير كل شيء
ابتسم قاسم في سخرية وربت على كتف أخيه:
- ربما ولكن اجعلنا نتوقع السيئ فلنُخرج عائلة صادق أولًا ثم نرجع ونراقب من بعيد حتى لا يطولنا سيف الظالم.
- هذا طريقك تراقب من بعيد أما أنا فطريقي مختلف عنك كما بين السماء والأرض سأكمل للنهاية.
- دعنا لا نستبق الأحداث إن كنت حقًا تحب صادق فلنخرج عائلته قبل أن يتذكرهم خادع ولا تنسَ أن ماحدث اليوم من وزير الملك السابق وتركه خادع ليقتل الملك ليس بأمر يحدث بسهولة إلا إن كان خادع وثيق الصلة مع هذا الوزير ومنذ زمن.

وفي ليل نفس اليوم كان صادق محمولًا على أعناق رجال القبائل الأربعة الذين غلبتهم دموعهم وحزنهم وانكسرت قلوبهم برغم تبدل الأوضاع وموت الملك الظالم إلا أن موت صادق أطفأ فرحتهم وغير نفوسهم من نفوس فرحة إلى نفوس يملأها الألم وكان يتقدم المشيعين خادع وزعماء القبائل بلال وأسامة والشيخ ثابت ولم يستطيع الشيخ عبدالقادر العوني أن يحضر الجنازة لعدم استطاعته السير لتلك المسافة وكانت دموع راضي الذي ذاب في جموع المشيعين حاضرة وكان أكثرهم تأثرًا بموت صادق على الرغم من فقدانه زوجته وأبنائه وكان لتلك اللحظة لا يعرف مكانهم ولكن أنساه موت صادق هذا الأمر وشغلته أحزانه ولم يرَ في القبائل الأربعة جنازة كالتي لصادق ولا حزنًا على رجل كالحزن الذي شغل القلوب لموت صادق ونعاه الجميع بكلمات مؤثرة حتى خادع وقف على رأس جسد خادع قبل أن يدفن وخطب في الناس مدعيًا البكاء ومدحة كما يمدح الملوك وأثنى على إخلاصه للمملكة وحبه لشعبها وادعى أن أكثر من كان يستحق كرسي الحكم بعد الملك الظالم كان صادق لأنه كان سيعيد العدل وينتصر للمظلوم ويوفر للناس متطلباتهم الأساسية وتأثر الناس بكلمات خادع وانخدعوا بما قال وجعل بعضهم يقول إن خادع هو أكثر الناس حبًا لصادق وآخرون ربما هو أقدر الناس على حكم المملكة.
وانزوى ثلة من الشباب أتباع صادق يبكونه وقد أحسوا أن الحُلم الذي حلموا به معه قد ذاب برغم موت الملك إلا أنهم رأوا أن الحياة بعد صادق لن تتحقق أمانيهم فيها كما رغبوا أثناء حياته وأن كلامه عن الحرية والعدل قد ذاب وانتهى مع أول قطرة دم نزلت منه وتسلل اليأس إلى نفوسهم.

وفي تلك الأثناء كان قاسم ومخلص يحملان زوجة صادق وولداه نورالدين وفاضل وخرج معهم زيد حفيد زينب المغدورة وانطلقت العربة وسط الصحراء دون أن يراهم أحد لانشغال الناس في دفن صادق وكانت الزوجة مصدومة تنهمر دموعها وسط سكون الليل ووحشة فقدان الحبيب ولكنها استسلمت لقاسم ومخلص لمعرفتها مدى حب صادق لمخلص وثقته فيه وحكي لها قاسم في الطريق ما حدث من خادع وأخبرها أن ما يحدث ما هو إلا تأمينٌ لحياتهم من غدر خادع وكان زيد يستمع لكلام قاسم وقد وقع في قلبه شيء من هذا الكلام وعزم في قرارة نفسه أن يعود لينتقم لهذا الرجل الشريف في يوم من الأيام وانطلقت العربة في الصحراء مصدرة ضجيجها المعتاد إلى وجهة لا يعلمها أحد إلا قاسم.

وبعد انتهاء دفن صادق انطلق الناس إلى بيوتهم وعاد رجال قبيلة الرعاع إلى بيوت قبيلة السلام مرة أخرى وقد تركوا بيوتهم مهجورة ولكنهم رجعوا إلى أهلهم الذين تركوهم في قبيلة السلام ولما فقد راضي أبناءه وزوجته وهاله حزنه على صادق آثر أن يعود وحيدًا إلى بيته ليبيت ليلته فيه لينطلق في الصباح باحثًا عن زوجته وأبنائه
ولما دخل إلى القبيلة أصابته وحشة وهو يرى بيوتها المهدمة وليلها الصامت الموحش ورأى أشياء الناس المحطمة والمنتشرة في شوارع القبيلة وفي السوق وانهمرت دموعه فجأة وبكى بحرقة وبصوت عالٍ ومر أمام بيت صادق فتأمله وجلس أمام بابه مجهشًا في البكاء وظل يبكي حتى خيل إليه أن يدًا امتدت وربتت على كتفه ولما التفت وجد صادق ينظر إليه وهو مبتسم ويقول لا تقلق مهما طال الليل لابد أن يأتي النهار ففزع راضي من ذلك ووقف متراجعًا للخلف وتأمل فلم يجد أحدًا خلفه وعلم أنه في صدمة وحمل همومه من أمام بيت صادق إلى بيته ووقف أمامه يبحث عن مفتاحه فلم يجده وكان قد أهمله لأنه لم يتوقع أن يرجع مرة أخرى وأخذ يعبث في باب البيت ويحاول دفعه وأثناء ذلك فُتح باب البيت فجأة ليجد أمامه مريم ممسكة بقميص تخيط فيه كعادتها ونظر إلى داخل البيت فوجد أبناءه ملتفين حول منضدة صغيرة يتناولون طبقًا من جبن وبعض الخبز وتركته مريم ودخلت وجلست على كنبة في صالة المنزل وتبعها بنظره وقد فتح فمه واتسعت عيناه غير مصدق ما يرى ودخل إلى المنزل بخطوات هادئة مترقبة وقد ظن في بادئ الأمر أنه يتوهم كما توهم أمام بيت صادق وحملته قدماه ناحية الكنبة التي تجلس عليها زوجته وجلس بعيدًا عنها قليلًا وأطفاله يجلسون على الأرض فمد يده وتحسس شعر أكبرهم ليتأكد أن ما يراه حقيقة ثم نظر وبخوف قال بتلعثم لزوجته:
متي عدت؟
فتأملته زوجته وكأنها لم تفهم ما قال وغمغمت:
- عدت من أين؟
فأشار بإصبعه ناحية الباب ولم يتحدث وأطرق رأسه وقد أحس أنه فهم الأمر وقال في شيء من التردد:

- أتتذكرين ليلة أمس عندما قلت لك إن القبيلة راحلة وأننا لابد أن نرحل معهم وقد أمرتك أن تُعدي بعض الطعام وتأخذي أطفالنا متبعة بقية القبيلة لأني سأكون مشغولًا في تلك الليلة.
فتأملته زوجته لبعض الوقت ثم ابتسمت وقالت:
- لقد نسيت هذا الأمر تمامًا غدًا سأفعل.
فاتسعت عيناه:
- يعني ذلك أنك لم تخرجي من البيت أنت ولا أبناؤنا منذ أن تركتكم أمس.
- لقد انشغلت في حياكة هذا القميص.. انظر.
وفردته أمام عينه ولكنه أصابه شيء من الزهول وأطرق رأسه هازًا إياها في أسف ولم يستطع أن يغضب منها رغم أنه كان يريد ذلك ولكن أرهقه الحزن والأسى الذي تغلغل في نفسه فتركها وأوى إلى فراشه لينام.

وبعد ثلاثة أيام طلب خادع الاجتماع مع رؤوس القبائل الأربعة على أساس أنه وبعد رحيل صادق أحدهم وفي بيت الشيخ ثابت اجتمعوا جميعًا من دون قاسم وكان يتوسطهم الوزير خشخاش مما جعل بلال وأسامة والشيخ عبدالقادر العوني متأففين ويكاد يفتك بمن حولهم غضبهم لوجود وزير الملك السابق معهم وضحك الشيخ عبدالقادر وهو يرتكز على عصاه وقد أوشكت عيناه أن تغلقا وقال:
- الوزير خشخاش يد الملك النجسة وسيفه الظالم البتار الذي خنق به الرعية وسفك دماءهم يجلس بين من اجتمعوا وخاطروا بحياتهم لإزاحته يا لها من مزحة قوية.

كاد الدم أن ينفر من عروق خشخاش وقد كان في السابق لا يسمح أن يخاطبه أحد الرعية أو يتحدث إليه وهو يطيح برأسه أو يقتل أحد أبنائه وقال في نفسه إنه قد جاء اليوم الذي يجلس بين هؤلاء الرعاع ولما كاد يختنق ويصيح بأعلى صوته غاضبًا وضع خادع يده على يده ونظر في عينيه محذرًا إياه من التصرف بحمق وأردف خادع يقول:
- نحن لسنا بصدد محاسبة الوزير خشخاش على الماضي نحن الآن نرتب للمستقبل وما حدث في الماضي قد حدث اضطرارًا منه لطاعة ملك ظالم خاف على نفسه منه وأذعن إليه ولكن لا ينكر أحد أن الوزير خشخاش هو أحد أهم أعمدة الثورة ولولاه لما سُمح لي أن أتوغل في جيش الملك وأقتله تجنيبًا لنا من ويلات الحروب.
فانتفض بلال واقفًا وهو يقول:
- لو كان كلامك صحيح إذن من قتل صادق؟
ونظر في عين خشخاش موجهًا حديثه له:
- قل لي يا أيها الوزير العظيم من قتل صادق أليس أحد أفراد جيشك؟
قال خشخاش وقد وقف هو الآخر:
- لم يرَ أحد منكم ولا منا كيف قُتل صادق أو من قتله وربما قتله أحد أفراد عصابتك أقصد جيشك دون قصد فلا داعي لإلقاء الاتهامات دون دلائل.
وقاطعه خادع بصوت عال:

- لا أحد أحرص على إيجاد من قتل صادق منا نحن معشر قبيلة الرعا.. الرجال أليس ذلك صحيحًا يا راضي؟
رفع راضي رأسه ببطء ورمق خادع وهو يومأ برأسه دون أن يتكلم.
وقام الشيخ ثابت وكان أهدأ الناس وأحرصهم على نجاح هذه الجلسة وقال:
- لا أحد بيننا يريد لهذا اليوم أن يمر كما مر الثلاثة أيام السابقة فأحوال العباد في تدهور ولابد من إيجاد حلول للموقف الراهن ولا أحد بيينا لا يعلم أن صادق وهو أشجعنا وأقدرنا على تنظيم الأمور قد مات ونحن لسنا بصدد التحقيق فيمن قتله اليوم ربما في وقت لاحق أما اليوم فلابد أن يأكل الناس لابد أن تسير الحياة وإلا فنحن مقبلين على كارثة محققة.
الناس في الشوارع في فوضي وقد أُخبرت أن لصوصًا جاءوا من خارج المملكة وكثرت السرقات في الأيام السابقة فلابد أن ترجع الأمور إلى نصابها أولًا ثم بعد أن نهدأ وتستقر أمور المملكة عندها نحقق في مقتل صادق وأنا أكاد أجزم أنه لو كان صادق بيننا لما خالف كلامه كلامي قيد أنملة.
فساد الصمت بين الجميع وعلق أسامة باكيًا:
- كان لابد أن يرى حلمه يتحقق أمام عينيه، من هذا الوغد القذر الذي غدر بك يا صادق، من الذي قتلك؟
وقال الشيخ عبدالقادر:
- أنا رجل طاعن في السن وقد مرت بي سنين كثيرة وأعلم عن الدنيا أكثر منكم جميعًا وأنا أقولها بكل ما أملك من قوة لن نفلح أبدًا لو تركنا الماضي دون محاسبة لن تستقيم لنا حياة ولن ينصلح حالنا قبل أن يقتل خشخاش على ما سفك من دماء ويقتل كل من قتل ويحاسب كل من ظلم ولولا تفعلوا فقد خسرتم كل شيء.

ووقف خشخاش من فوره وقد تملك الغضب منه وكاد زمام الأمور أن يتفلت من الجميع لولا أن صاح خادع مسكتًا الجميع:
- إذن لا مفر من البوح بسر صادق.
فرمقة الجميع باهتمام وانتظروا للحظات وهو يفكر قبل أن ينبس.
- انتم تعلمون أن صادق كان يخطط للثورة منذ فترة طويلة وكانت له خطط جانبية لا يعلمها الجميع فأمن هذا على سر ما وآخر على سر آخر ولولا ذلك لما نجح مخططه ومن أهم أسراره التي استودعني إياها هو خشخاش فخشخاش هو رجلنا في القصر نعم يا سادة خشخاش هو رجل صادق الذي كان يخبره عن طريقي أنا بكل ما يحدث في القصر.

تفاجأ المجتمعون وظنوا الظنون في صدورهم ولم يكذبوا خادع وإنما وقع في أحد ظنونهم أنه ربما يكون ذلك الأمر قد حدث وخاصة أن صادق بالفعل قد أودعهم كل على حدة بأحد أسرار مخططه ولكن الشيخ عبدالقادر لم يصدق حرفًا مما قاله خادع ونظر في عيون بلال وأسامة والشيخ ثابت غير مصدقًا لتصديقهم هذا الكلام الفارغ من وجهة نظره وقال وهو يقف منتفضًا:

- الآن عرفت من قتل صادق؟
وغادر الشيخ عبدالقادر وتبعه الشيخ ثابت إلى الخارج وبعد لحظات عاد الشيخ ثابت وهو يقول أن الشيخ عبدالقادر غادر وقال إن قبيلته لن تشارك في تلك المهزلة على حد وصفه حتى يغادر الوزير خشخاش وأردف الشيخ ثابت:
- إنه شيخ طاعن في السن وسوف يهدأ مع مرور الوقت ونحن كلنا ثقة في شريك صادق وابن قبيلته خادع.
وغمغم راضي في نفسه وقد بدت ابتسامة على شفتيه أيها الجهلاء إن خادع هذا كان ألد أعداء صادق وكان يقف في وجهه على طول المواجهة ألا تغادروا كما غادر شيخكم ولكنك لم تغادر أنت أيضًا أيها الجبان بئس الرجال أنت.
ولما هدأ الجمع تحدث الوزير خشخاش بنبرة قوية:
- لا أحد يستطيع أن ينكر أن الملك الظالم الذي رحل بسيف خادع كان أظلم من جلس على هذا الكرسي ولولا السيف الذي مده على رقاب الناس وعلى رقبتي مثلكم لكنت تخلصت من ذله منذ زمن ولكني وعندما خاطبني خادع وأخبرني بخطة صادق اخترت بمحض إرادتي أن أكون في صفكم وأن أنحاز لكم رغم مقدرتي حينئذ على النيل من صادق وأتباعه وكان لخادع أكبر الفضل في ذلك ولا شك وبصفتي رجل دولة أن الأمور لن تحل إلا بجلوس رجل على العرش يدير أمور المملكة ويكون هذا الرجل ولأول مرة منكم تعرفونه ويعرفكم تصلون إليه بسهولة ويختلط دمه بدمائكم وهذا الرجل ولا شك كان سيكون صادق ولكن بموته استحال ذلك الأمر لذلك أنا أرى أن يكون خادع هو ملككم الجديد لأنه هو أكثركم قربًا من صادق وهو رجل غني يمتلك المال ويستطيع المساعدة في إعلاء شأن المملكة.
كانت كلماته بمثابة الصدمة على آذان الجميع ولا سيما راضي الذي اندهش وعقد لسانه ولم يستطع أن يتكلم وصمت الجميع ولم يعطِ أحد جوابًا حتى قال أسامة.
- نحن لا نستطيع أن نبُت في هذا الأمر حتى يكون الشيخ عبدالقادر بيننا ولا ننسى أن القبائل الأربعة لابد أن تختار الملك وليس ثلاثة قبائل فقط وهناك شروط لابد أن توضع قبل ذلك.
وقبل أن يتفوه أحدهم بكلمة قال الشيخ ثابت:
- أنا أرى أن ينفض جمعنا اليوم على أن نجتمع بعد أيام للبت في هذا الأمر وبوجود الشيخ عبدالقادر وهي فرصة لكي أجلس معه وأحاول إقناعه.

تفرق الجمع على أن يستأنف الحديث في وقت آخر وفي تلك الأثناء عادت قبيلة الرعاع إلى بيوتهم بعد مكوثهم عدة أيام ضيوفًا عند قبيلة السلام وقد كانت أيامًا عصيبة حيث إن قبيلة السلام وإن كانت قابلتهم في الأيام الأولى بشيء من الترحاب إلا أن الأيام التي تلت تغيرت فيها المعاملة وشح الطعام وعاد فريق من القبيلة دون إذن من أحد إلى بيوتهم ولحق بهم من تبقى منهم وفريق بعدهم بيوم وآخرون بعدهم بيومين وكانت حالة القبيلة يرثى لها وانتشر الناس في السوق وفي الشوارع المجاورة يجمعون أشياءهم التي تركوها وسرقت معظم تلك الأشياء وضاعت أشياء أخرى وما من بيت من بيوت القبيلة إلا وانتابه القلق على الأيام المقبلة وما سيحدث فيها وكان

الجوع قد بدأ يطرق الأبواب فانتفض الناس في قبيلة الرعاع وهجموا على دكان خادع ومخازنه بل وبيته ولكنهم صدموا عندما وجدوها خاوية على عروشها وبدأ بعضهم في التقاط حبات القمح والشعير المبعثرة من الأرض وبعض الفاكهة والخضروات التي ذبلت وكثر الهرج والمرج وعمت الفوضى في القبائل الأربعة وانتشرت عصابات السرقة في أرجاء المملكة كلها وحدثت عدة حوادث قتل أشعلت المملكة كلها وكان أبرزها مقتل الشيخ عبدالقادر العوني في عقر داره وبين أفراد قبيلته، دخل عليه أبناؤه فوجدوا حبلًا ملتفًا على رقبته ويخرج لعابه ودم من أنفه وتبينوا جحوظًا في عينيه وأشتعلت قبيلة المواريد وخرجت عن بكرة أبيها بسيوفهم وحرابهم لمقتل كبيرهم وساعدهم جيش أسامة وبلال وبعض الرجال من قبيلة الرعاع وقبيلة السلام وبدأت التحقيقات والأسئلة تكثر ولكن بغير جدوى ولم يتوصل أحد لمن قتل الشيخ عبدالقادر العوني إلا أن راضي ارتاب في خادع وعلم أنه لا مصلحة من مقتل الشيخ إلا لخادع وخشخاش ولكنه خاف أن يتكلم كعادته وصمت صمت المقبور
وبعد مرور شهر من يوم الثورة عاد قاسم ومخلص إلى المملكة بعد أن اطمأنوا على زوجة صادق وأبنائه ولما دخلا لم يصدقا ما وجدا وكانت الصدمة بادية على وجهيهما فقد استحالت القبيلة إلى الفوضى وعم في الجو روائح خانقة وانتشر التلوث وبدت القبيلة كأنها خارجة من مصيبة ما وليس ثورة حررتهم من ذل الظلم وجور الفساد ولكن قاسم لم يستغرب من هذا كله وتساءل في نفسه ترى كم هي المكاسب التي كسبها خادع في تلك الأيام التي غاب فيها؟ ومرا على سوق القبيلة وقد بدأ بعض الصناع في فتح متاجرهم دونما فائدة لانعدام الزبائن ولكنهم لم يجدوا مفرًا من فتحها وعندما مر قاسم أمام دكان خادع انتابته الحيرة وتساءل لماذا لم يفتح خادع دكانه حتى الآن؟ ولكنه قال لنفسه أنه ربما خاف خادع من الفوضى وفقر الناس وقلة المال في يدهم، وتوجها الاثنان ناحية بيتهم ولما أغلق قاسم الباب ذهب مخلص ناحية غرفته وغاب قليلًا ثم عاد وهو يحمل أوراق مخطوطة بخط اليد وهم أن يخرج من البيت إلا أن قاسم منعه من ذلك ولما لمح الأوراق في يده سأله عن ماهيتها وأخبره أنها أوراق خطها صادق بيديه وأخبره أن يسلمها للشيخ عبدالقادر العوني في حضور رؤوس القبائل وذلك في حال أصابه مكروه وأصر قاسم أن يرى الأوراق ولكن مخلص نهاه عن ذلك وأخبره بوصية صادق التي قال والتي تنص على عدم فتح الأوراق إلا بيد الشيخ عبدالقادر وفي وجود ممثلي القبائل وانتاب قاسم القلق وحاصر أخاه وأقسم عليه أنه لن يدعه يخرج إلا أن يرى الأوراق ويطمئن لما فيها ومنعه مخلص بشدة وأصر على ذلك ومنعه قاسم من الخروج وجلسا في الليل يتأملان بعضهما ولا يتحدثان وما لبس حتى انفجر مخلص وهو يرى الابتسامة على وجه أخيه.

- لماذا يجب أن ترى تلك الأوراق وتصر أن تخرق وصية صادق وهو صديقك؟

تنهد قاسم ومازالت الابتسامة بادية على شفتيه؟

- لماذا ترى أنت أنني برؤيتي لهذه الأوراق أخون صادق؟

- لأنك تضرب بوصيته عرض الحائط.

- أنت لا تفهم شيئًا الأوضاع الآن تغيرت وربما ما تحويه تلك الأوراق يضر بك وأنا لا أسمح أن يمسك سوء وأنت تعلم ذلك.
- وماذا لو كان بها شيء رأيت أنت أنه سيضر بي فهل ستمنع وصية الرجل أن تنفذ لقد كنت منذ أيام مغامرًا بحياتك لكي تنقذ أسرته ما هذا التناقض؟
- إنه ليس تناقضًا وإنما عقل وخبرة أصبتُها من سنين عشتها في هذه الحياة وأعتقد أن تلك السنين أكثر منك بكثير.
نظر مخلص لأخيه وقد بدت عليه الحيرة وتأمله للحظات وبادل نظراته بين أخيه وبين الأوراق التي أمسكها بيديه ثم قال في حزم:
- لن يحدث لن تكسر وصية صادق ولو على رقبتي.
ودخل غرفته في غضب حاملًا أوراقه.

وبعد مرور ثلاثة أيام من منع قاسم خروج أخيه استسلم لقراره أخيرًا وتركه دون أن يرى ما في داخل الأوراق بشرط واحد أن يسلم الأوراق للشيخ عبدالقادر ويطلب منه عدم إخبار الناس أن تلك الأوراق كانت معه ووافق مخلص على الفور إلا أن خبر مقتل الشيخ عبدالقادر العوني هز قاسم وزاد قلقه أكثر عندما جلس مع راضي في إحدى الليالي وقص عليه ما حدث في الاجتماع الأول واعتراض الشيخ عبدالقادر على وجود الوزير خشخاش وربط قاسم من فوره مقتل الشيخ بهذا الأمر مما جعله يصر على ملازمة مخلص في ليل نفس الليلة وهو يسلم الأوراق لأسامة وبلال في قبيلة الخُلج بعد إصرار من مخلص على عدم تسليمه للشيخ ثابت برغم قرب قبيلته من قبيلة الرعاع وكانا وهما في الطريق قد لمحا وزير الملك خشخاش وحرسه وهو يخرج من بيت الشيخ ثابت وهو يودعه بحرارة أمام بيته ولما رأيا ذلك ارتابا في الشيخ ثابت وغمغم قاسم وهو مبتسم.
- لا فائدة سوف يلتفون على ما حدث.
وتأمله مخلص بشيءمن الحزن وهو يقول في نفسه (لولا أمثالك يا أخي لما استطاعوا) وتابع لأخيه بصوت مسموع:
- أثق أن هذه الأوراق قد تعدل الموازين مرة أخرى.
فنظر له قاسم وقال بسخرية:
- ربما.
وسأله مخلص:
- لما أرى في عينيك هذه السخرية ألا تؤمن بشيء مما فعلنا؟
- أؤمن به كله ولكن هذه الأوراق لن تغير من شيء حتى لو كان بها طلاسم سحرية الذي يغير دئمًا هم الناس وإرادتهم وحميتهم ولا شيء غير ذلك ونفوس ناسنا يا مخلص قد غيبها اليأس وقلة الحيلة والجبن ولا أستثني نفسي.
وصمتا إلى أن وصلا إلى بيت أسامة وبلال ودعاهما قاسم للخروج ووقفا على بعد من منزلهما وسلمهما مخلص أوراق صادق وأخبرهما بوصيته ألا تُفتح إلا أمام ممثلي القبائل ولم يغادرا حتى أكد قاسم عليهما ألا يخبرا أحدًا أن مخلص هو من

سلمهما تلك الأوراق ولم يتركهما حتى حلفا له وقبل أن يرحل وقف قاسم وفي صدره كلمات لهما وتردد قليلًا حتى قال بتصرف ودون وضوح وهو ممسك بيد أسامة
- القوة دائمًا هي من تتحدث فلا تتخلى عن قوتك.
وغادرا قبيلة الخُلج في شبه تسلل كأنهما لصوص كذلك أضعف قاسم من شجاعة أخيه وكاد ينال منها إلا أن مخلص قاوم قباحة جبن أخيه وتعلم من الخير الذي يظهر في قلبه بين الفينة والأخرى.

اختلف أبناء قبيلة المواريد أبناء الشيخ عبدالقادر العوني على من يخلف أباهم وحتي أنهم أختلفوا على من يحضر اجتماع التنصيب وتطور اختلافهم حتى كادوا يتقاتلون إلى أن زارهم الوزير خشخاش في جمع من الأعيان وخادع واتفقوا معهم بعد موائمات سياسية ومكاسب محتملة وعدوا بها على تفويض الوزير خشخاش للتصويت نيابة عنهم وكتبوا له مخطوط بذلك وختموه بختم الشيخ عبدالقادرنفسه ويالا العجب وفي بيت الشيخ ثابت وبعد مرور عدة أيام حضر إلى البيت الوزير خشخاش ومعه خادع وقد صحب خادع قاسم وراضي كممثلين عن قبيلتهم وقد أتى الوزير خشخاش بحرس مفتولي العضلات وقفوا خارج البيت وقد وقفوا حولهم كأنهم محاصرين وقد أدخل ذلك الأمر الخوف في نفس راضي وكاد يفقد وعيه إلا أن قاسم حاول أن يجعله يتماسك وهو يهمس في أذنه (اهدأ يارجل لا تفقد وقارك)

وقد فطن قاسم لما يدبره خادع والوزير وقرر في نفسه أنه لن يخالف ما يقوله خادع اليوم وقد أمسك بسيف بتار وهو لا يستطيع أن يقاوم السيوف ولا حامليها وقد همس في أذن راضي بذلك أيضًا ولم يكن راضي في حاجة إلى ذلك فقد عزم على ذلك في قرارة نفسه منذ مقتل صادق ولكن أشياءًا كثيرة تغيرت حين حضر بلال وأسامة في لفيف من الجنود الأقوياء والذين كانوا أكثر عدداً من جنود الوزير خشخاش وهال ذلك الأمر خادع بشدة ونظر هو وخشخاش لبعضهما في فتور ودخل أسامة في ملابس عسكرية يتبعه أخوه رافعًا الرأس ولما وجدا الوزير خشخاش اعترض بلال من فوره وقال إنه لا يصح حضور وزير الملك الذي قاموا عليه بثورة في اجتماع تنصيب ملك الشعب الذي سيخرج منهم ولما أظهر لهم خشخاش الورقة التي أوكل له من خلالها حق التصويت من جانب قبيلة المواريد أسكتهم ذلك الأمر إلا أن بلال غمغم وابتسم بسخرية وهو ينظر للورقة.

- أنظروا ختم الرجل الذي غادر المكان لوجود الوزير على الورقة التي سمحت للوزير بالبقاء بين عامة الشعب ورجال ثورته يالا سخرية القدر!

ونظر له خشخاش بابتسامة حادة يغلب عليها الغضب وتحدث الشيخ ثابت بمقدمة أشار فيها إلى ما حدث من أحداث وأثنى على صادق والرجال الذين خاطروا بحياتهم وفتح باب الترشح لمن يرغب في أن يكون الملك وحينما رفع خادع يده التفت الجمع لجلبة في خارج البيت وبعد قليل دخل إلى البيت بعض الشباب الذين كانوا مع صادق من قبيلة الرعاع ومن القبائل الأخرى وكان بينهم مخلص وما أن رأه قاسم حتى بلع ريقه وقد تسلل الخوف إلى قلبه ولما رآهم الشيخ ثابت رحب بهم وأجلس بعضهم ووقف آخرون ولما عرفهم إلى الجمع احمرت عينا خادع وكأنهما يطلقان الشرر ولم

يكن يعلم بأمر هؤلاء الشباب من قبل ونظر لخشخاش نظرة غضب يملأها العتاب ولسان حاله كيف لم تخبرني بأمر هؤلاء لنتدبر أمورهم.
وأكمل الشيخ ثابت كلامه ورفع خادع يده وهنا حدث ما كان يخشاه قاسم تقدم مخلص من بين الجميع وقال بصوت يسمعه الجمع.
- بأي حق تتقدم لتكون ملكًا علينا؟
وهنا وقف قاسم وقال لأخيه:
- اصمت يا مخلص.
ولكن مخلص تجاهل أخاه وأكمل بابتسامة:
- أنت زعيم عائلتك في قبيلة الرعاع فبأي حق تتحدث باسم القبيلة كلها كما يفعل أسامة وبلال الذين ورثوا أباهم أو كما يفعل الشيخ ثابت زعيم قبيلته أما أنت فنظام قبيلتنا مختلف ليس هناك زعيم أوحد لقبيلتنا بل هم أربعة عائلات بأربعة رجال وأنت ضلع واحد من هؤلاء الأربعة.
ونظر مخلص لأخيه وهو يقول في نفسه وبعينيه ها هو الأمر يأول لك يا أخي أرفض ترشح خادع وينتهي الأمر وفطن خادع لما قاله مخلص ونظر حوله فرأى الجمع في ترقب وقد اقتنعوا بكلام ذلك الشاب الصغير ولما لم يجد مفرًا قال:
- أنت محق ولكن لم يفت الأوان بعد، هذا راضي وهذا أخوك قاسم الضلعين الباقيين من أضلع القبيلة الأربعة كما تقول وأنا أطلب منهم وأمام الجميع أن يرشحاني للتحدث والترشح باسم قبيلة الرعاع أقصد الرجال عذرًا فلم يتعود لساني على الأمر بعد.
والتفت الجميع إلى قاسم وراضي وكانا يتصببان عرقًا وينظران لعيني خادع ولم يمر وقت طويل حتى قال راضي بصوت لا يكاد ينطلق من حنجرته وبحشرجة رافعًا يده
- أنا أوافق.
ونظر الجمع لقاسم وترك قاسم كل الناس وكأنهم ذابوا من حوله ونظر لأخيه الصغير الذي كان ينظر إليه في شيء من اللهفة والانتظار وعينيه تشجعانه بشدة على رفض خادع ومر وقت طويل أحس قاسم أنه قرنٌ من الزمان وتمنى لو يستطيع أن يخرج من المكان لينطلق بعيدًا عن عيني أخيه ولما نظر خادع له وقال في حدة:
- هيا يا قاسم أبدي رأيك فليس أمامنا اليوم كله.
نظر له قاسم ثم نظر لخشخاش الذي كان يرمقه بعين حادة ورجع ببصره لأخيه ثم رفع يده وهو يقول:
- أنا أيضًا أوافق فخادع خير ممثل لنا.
ورمق أخاه الذي بدت المفاجأة واضحة على وجهه والصدمة بادية في عينيه وكان ذلك اليوم هو اليوم الذي جعل مخلص ينفصل عن أخيه ويعيش في بيت لأبيه كان قد تركه منذ أن مات تاركًا قاسم يعيش بمفرده.

وتابع الشيخ ثابت:
- إذن فخادع من حقه الترشح هل هناك من يرغب في ذلك غيره؟

ولما لم يقم أحد ويبدي رغبته تحضر التصويت باسم القبائل الأربعة وصوت خادع لنفسه والوزير وصوت الشيخ ثابت أيضًا له ولما جاء دور أسامة قال:
- لن يكون هناك ملك إلا أن ينفذ ما جاء في تلك الأوراق أوراق تركها صادق بنفسه وبخط يده.
وظهرت جلبة بين الشباب الحاضرين وفرحوا بذلك وفتح أسامة الأوراق المغلقة بإحكام وقرأ بصوت عال يسمعه الجميع:
(إلى رجال وقفوا أمام الطغيان وأظهروا شجاعة لا مثيل لها إليهم فقط تلك الكلمات وهذه الكلمات إن كانت تتلى على أسماعكم فأنا لا شك لست بينكم وهذا ليس أمرًا خطيرًا لو تمسكتم بعقولكم وما علمتّكم إياه أيام الظلم والجور لا تفقدوا أبدًا ما اكتسبتم ولا تجعلوهم يخدعونكم بخداعهم المعتاد فهم لن يتخلوا عن كراسيهم ولو زال ألف ملك، لن يتخلوا عن أموال سرقوها منكم ولا عيش رغدٍ عاشوه على حساب أرواحكم وظلمكم وذُلكم ولن يبرحوا أمكانهم إلا أن تنفد حيلهم ويتشتت بتجمعكم وإصراركم وإخلاصكم جمعهم الملعون ولن يحدث ذلك إلا أن تكون الحرية هي مبتغاكم ومرادكم وليس لقمة ترمى لكم ولا رغيف عيش يكسر جمعكم ولا طمعًا في منصب زائل أو مكاسب شخصية تلهيكم عن مبتغاكم، الحرية تضمن الكلمة وصوت الأمة. العقلاء لو لم يخرسوا لن يلتف عليكم أحد حتى لو سلط عليكم بألف سيف وحتى لو حاصر طعامكم وشرابكم فلن تذلوا أبدًا ما دمتم أحرارًا، ولذلك ليس المهم من هو ملككم ولكن الأهم أن يكون هناك دستورًا لا عوج فيه ولا تُكسر مبادئه ولا تترك دون حراسة من الأحرار والشجعان بينكم، ولكي تفعلوا ذلك لابد أن يفهم العامة معنى الحرية لابد أن يتعلموها، فاصرخوا بها حتى يفهموها ويعقلوها وعلموها لأولادهم وللأجيال القادمة. أما ما أوصي به فبنود خمسة تكون بمثابة انطلاقة لنيل ما هو أفضل منها في المستقبل ولكن ليس أقل منها أبدًا مهما كانت الظروف ولا يحق لأحد ولو كان الحاكم نفسه أن يخالفها مهما اضطر لذلك وأي رجل اخترتموه ليكون حاكمًا لابد أن يوافق عليها دونما اعتراض لأنه لو اعترض عليها فلن يكون مخلصًا لكم ولا للمملكة كلها)
وفي ورقة منفصلة كتب صادق بنود خمسة:
(1- إذابة الفوارق والحدود بين القبائل الأربعة وتوحيدهم تحت راية واحدة وتجريم الانفصال مهما تعاقب الزمان.
2- التعليم فرض عين على الدولة وتوفير الطعام والشراب ولا يجوز لأحد منع الحصول على المعلومات أو البحث أو القراءة دون قيود.
3- منع الاحتكار وتجريمه واعتباره كجريمة عظمى سواء من قبل الحاكم أو أحد أفراد الشعب.
4- الضرائب التي تفرضها الدولة لا تزيد عن عُشر دخل الفرض.
5- ممنوع تقيد حرية الكلمة وحرية الأفراد ما لم تضر الآخر أو القتل أو السجن من قبل الحاكم لإبداء الأراء والجهر بها.
تتلي هذه البنود على مسامع الأمة كل يوم لمدة شهر وتكتب واضحة في أماكن متعددة في أرجاء المملكة وذلك قبل تنصيب الملك الجديد).

هكذا انتهت كلمات صادق وأصابت الجميع بدهشة ودعا أسامة للتصويت على هذه البنود ورفع جميع من في البيت أيديهم وقد انتابت مخلص نوبة فرح أنزلت دموعه ونظر خادع للوزير خشخاش في أسى واضح ولم يرفعا يدهما حتى قام خادع ودار بين الناس وهو يقول:
- لا شك أن هذه البنود التي وضعها صادق وكلامه كله محل احترام ولكن الناس في هرج وقد كادوا يبيدوا بعضهم ولاشك أن شهرًا من الآن قد يُدخلنا إلى الخطر ذاته وقد لا نستطيع السيطرة على الأمور بعد ذلك ولذلك فأنا أرى أن يؤجل هذا الأمر فقط لبضعة أيام حتى يتسنى لنا السيطرة على المملكة مرة أخرى، وقاطعه مخلص في حدة:
- هذا الذي تقوله هو ما حذرنا منه صادق في خطابه منذ قليل لابد أن يعلم العامة هذه البنود حتى لا يستطيع أن يلتف عليها أحد.
بهتت كلمات مخلص خادع وتملك الغيظ منه ولم يستطع جوابًا حتى قال: خشخاش نحن نوافق بشرطين..
أولهما: أن يتم انتخاب الملك اليوم وإرجاء التنصيب الرسمي حتى يمر الشهر الذي قال عنه صادق.
وثانيهما: أن يتم نزع السلاح من يد الناس وإرجاعه لمخازن الجيش ليتسنى لنا تسليح الشرطة لتوفير الأمن في المملكة في فترة الانتظار.
ولما بدا على أسامة وبلال امتعاض واضح أكمل خادع في سرعة:
- على أن يتولى أسامة منصب قائد الجيش ليتسنى له إدارة الأمور وتنفيذ رغبة صادق وأن يكون بلال هو مسئول تنفيذ البنود الخمسة ويكون الشيخ ثابت هو شيخ القبائل الأربعة حين تتوحد.
ظهرت علامات الرضا على وجه أسامة وبلال والشيخ ثابت وأظهر قاسم وراضي تخوفًا مما قد يفعله خادع واحتار مخلص فيما يفعل ويقول ولكنه اختار أن يغادر التجمع في النهاية ومعه معشر الشباب مع اعتراضهم الواضح على اختيار خادع ملكًا، ذلك الرجل الذي ساهم في تجويع الناس في العهد البائد وتم التصويت لخادع ليصبح أول ملك من عامة الناس مع تغيير لقبه من ملك البلاد إلى حاكم البلاد دون توريث لأحد والتعهد بعدم مخالفة البنود الخمسة.
وفي اليوم التالي خرج المنادون ينادون في الناس بالبنود الخمسة بأمر خشخاش ولكن خادع أمرهم بإنهاء حديثهم للناس بإخبارهم بتولي خادع أمر الحكم في المملكة وجعل ذلك الأمر معظم الناس يتحدثون عن تولي خادع للملكة بعضهم بدأ في الدعاء له بالفعل وبعضهم تخوف منه ولكن أكثر ما لفت الانتباه أن الناس نسوا أو تناسوا البنود الخمسة التي أُطلقت كدستور لهم يحميهم من تكرار ما حدث في الماضي، وأخذ مخلص والشباب وبعد مرور أيام على عاتقهم تنفيذ بناء صغير أشبه بتمثال مجوف في وسط كل قبيلة نُقشت عليه البنود الخمسة ونُحتت ببراعة من قبل أحد الشباب الذي يعمل في النحت ولم يجد خادع وعسكره بدًا في النهاية من ترك تلك الأبنية قائمة وخاصة أن الناس بدأوا في الالتفاف حولها وأخذ الذين يعرفون القراءة منهم يقرأونها

للناس وأخذ مخلص ومعشر الشباب الذين معه يجلسون مع العامة ويشرحون لهم البنود وما عليهم وما لهم وما هي إلا أيام قليلة حتى عاد النظام إلى القبائل الأربعة مرة أخرى ورجع الفلاحون إلى حقولهم وفُتحت الدكاكين في أرجاء المملكة كلها مرة أخرى وانتشر بين الناس شعور جديد ولكنه راسخ في نفوسهم ونُفض عنه التراب ذلك الشعور هو أنهم بشر لهم حقوق لا يستطيع رجل أن ينتهكها ماداموا متحدين ويعلمون حقوقهم وواجباتهم وترى في عيونهم للمرة الأولى منذ زمن ثقة تولدت من هواء جديد استنشقوه يشبه إلى حد ما هواء الحرية النقي ولكنه لم ينقَ بالقدر الكافي بعد فما زال هناك خطواط أخرى يجب أن تنفذ.

وفي تلك الأثناء دخل خادع القصر الملكي لأول مرة في حياته وتتبعه حسناء مذهولة مما ترى وقد انتشر الخدم والحرس في أرجاء القصر المزين بالحرير والمُطلى بماء الذهب والمرصعة ستائره بالأحجار الكريمة والوسائد الناعمة وارتمى خادع متكئًا على إحدى الوسائد وتبعته حسناء ضاحكة وهي تقو:ل
- قلت لك إنك ربما ستفعلها وتكون ملكًا في يوم من الأيام.
فرمقها مبتسمًا:
- كان الأمر شاقًا ولم يكن بهذه السهولة.
فبادلته الابتسامة وقالت بثقة:
- بل كان سهلًا وأشد سهولة مما توقعت ولكن الأمر الصعب فعلًا هو الحفاظ على هذا الكرسي في ظل هذه الظروف.
فتململ خادع وهو ينظر في عينيها مبتهجًا:
- أنت لا تعرفينهم أما أنا فأعرفهم جيدًا إنهم حفنة من الرعاع يعشقون العبودية ويرغبون فيها يتملكهم الخوف دائمًا من المجهول ويعشقون العيش فيما يعرفون حتى لو كانوا عبيدًا فيه فاطمئني المسألة مجرد وقت وينتهي كل هذا.
- الخطر الحقيقي في شيوخ القبائل وفي البنود الخمسة:
- لا الخطر الحقيقي في اعتقاد الناس أنهم أحرار أما لو أقنعناهم بأنهم كانوا رعاعًا وسيظلون إلى الأبد فهذا سيكون المكسب الحقيقي.
وتأملت حسناء في سقف القصر العالي والنجف المرصع البراق الآخاذ وسرحت بعينيها فيه وقالت لخادع:
- لا تنسَ أننا من هؤلاء الرعاع من أصلابهم ودماؤهم تجري في عروقنا.
اعتدل في جلسته ورمقها بنظرات ثاقبة:
- كنا كذلك حتى صرنا هنا وقادنا قدرنا إلى هنا ولابد أن نعمل على ألا نرجع هناك ولا تنسي أن البشر جميعًا رعاع إلا من شذ منهم وسلك إما طريق الأحرار أو طريق الثراء وهكذا اخترنا أن نسلك أنا وأنت طريق الثراء فالرعاع زائلون والأحرار مقتولون أما نحن فموجودون لآخر الحياة وإلى أن ينتهي الزمن.

ودخل خشخاش على حين غفلة منهم وهو ينهر أحد حراس خادع الذي حاول منعه من الدخول ولما دخل ومثل أمامهما ووجدهما ممددان على الأرض يتحدثان ويتبادلان الابتسام قال بأعلي صوته ودون احترام لخادع:
- يا رجل أنت هنا تتمطى والرعاع قد فتحوا عيونهم على أشدها وانتبهوا لكل شيء ماذا سنفعل الآن والأعيان غاضبون وخائفون على أموالهم وتجارتهم.
وهنا وقف خادع بملابسه الملكية الجديدة وأشار لحسناء فانصرفت وذهب نحو كرسي الحكم وحوله اثنان من حرسه ضخام الجثة ملثمان عاريان الصدر ثم بهدوء أشار لخشخاش أن يتقدم نحوه وتقدم خشخاش مستغربًا ما يحدث وظن خشخاش أن خادع يدعي العظمة ولكنه حين اقترب رمقه خادع وقال له:
- لا شيء يستدعي أن تخاطب ملكك بهذه اللهجة.
وكاد أن يجيبه خشخاش فأشار له بإصبعه أن يصمت ثم استطرد:
- هذه المرة سأسامحك عنها أما ما هو أتٍ فلا سماح فيه لك المشورة والرأي والمشاركة فيما أحب أنا وأوكلك به. أتفهم؟
تأمله خشخاش وأومأ برأسه وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة:
- أمرك يا مولاي خادع.
- قل ما جئت من أجله.
- الرعاع ملتفون حول التماثيل التي نصبت في القبائل الأربعة والشباب الذين كانوا مع صادق يشرحون لهم ويعلمونهم ما قد غاب عنهم وعيون الأعيان التي نشروها حول المملكة تقول أن الأمر لا يبشر بخير.
- انتظر.. الأعيان لهم عيون داخل المملكة؟
- نعم هذا الأمر منذ الملك السابق فهم يحمون تجارتهم وأموالهم.
ولمس خادع ذقنه وهو يفكر وطال صمته ثم رمق خشخاش وأمره أن يرتب لاجتماع مع الأعيان في أقرب وقت.
وبعد أيام اجتمع أعيان المملكة في ملابسهم الحريرية في قصر الحكم ينتظرون خادع ولما قدم سرعان ما أحس أنهم لا يحترمونه بالقدر المتوقع لملك البلاد وحاكمها وضحك في نفسه وهو يحدثها مازال هؤلاء القوم يعتقدون أنك من الرعاع يا خادع وضحك حتى سُمعت ضحكاته فانطفأت حدة الكلام وساد صمت مريب وانتشر حرس خادع حول صالة القصر العملاقة وقد بدوا متأهبين وبدأ خادع يتكلم في حدة.
- لقد جمعتكم اليوم لأقول لكم قرارتي التي أخذت والتي لن تناقش وكل ما تستطيعون فعله هو التنفيذ والسمع والطاعة.
أولًا: نظام الحكم تغير ولم يعد مسموح لكم من الآن وصاعدًا أن ترسلوا بصاصيكم وعيونكم لإلتقاط الأخبار من الرعايا فهذا أمر موكل للحاكم ورجاله ومن يخالف ذلك منكم فعقابه شديد ولن يتخيله ولكي لا يتخيل معظمكم أننا غير جادين وغير جديرين بحكم البلاد التي نحن أصلها و ليس أنتم معشر الأعيان فقد قررنا الأمر الثاني وهو مصادرة جميع أموالكم وتجاراتكم ونأمركم بالرحيل فورًا من بلادنا إلى أرض الله الواسعة.

كانت كلمات خادع بمثابة الصدمة على الجميع وعلى رجاله أيضًا ورمق الأعيان خشخاش رجلهم الدائم في قصر الملك السابق فتحرك نحو خادع واقترب منه وقد كثرت الجلبة وعلى صوت الأعيان إعتراضًا وهمس خشخاش في أذن خادع
- ما الذي تفعل هذا أمر لم نتفق عليه وسيقلب علينا الدنيا هؤلاء الأعيان على علاقة وطيدة بممالك متاخمة ولن يمر الأمر بسلام، ليس هكذا تدار الأمور يا خادع سوف تهدم كل شيء هؤلاء القوم محصنون ولا قبل لنا بهم ومن يجلس هنا على هذا الكرسي منذ سنين يعلم ذلك وأول ما يفعل هو كسب ودهم وهم دائمًا لا يتأخرون عنه يغدقون عليه بالمال ولا يتأخرون عنه في شيء يطلبه أرجو أن ترجع عما تفعل ولا تأخذ قرارًا بعد ذلك إلا بعد أن تناقشه معي فأنا قبل أن أكون وزيرك فأنا صديقك أيضًا وشريكك في كل شيء؟
ورمقه خادع بملامح مبتسمة وهمس وقد كثرت الجلبة وسمع خادع أصوات كثيرة كان أبرزها (الرعاع يحكموننا الآن وهذا سيدهم)
- أنت متأكد أنهم لو خرجوا من المملكة فسيوشون بنا عند الممالك الأخرى وربما أقاموا حربًا علينا من الخارج؟
- نعم أوؤكد لك ذلك فلترجع عن قرارك الآن بتصرف.
وهنا أرجع خادع ظهره مستندًا على كرسي حكمه:
- لقد أخطأت التصرف ولابد أن أصلح ما قلت وإلا لكانت نتائج ذلك عظيمة
ورمقه خشخاش بابتسامة المنتصر في حين أشار هو لرجل ملثم خلف ستارة مؤدية لداخل القصر وما أن أشار حتى دار عسكره حول الأعيان يذبحون رقابهم وتخترق سيوفهم بطونهم وبعد لحظات كانت برك من الدماء قد غيرت لون أرضية القصر إلى الأحمر ورمقه خشخاش بوجه ملطخ بدماء الأعيان ولم ينبس حتى أمره خادع بالمغادرة في حرس من الجيش والشرطة ومصادرة أموال الأعيان والسيطرة على قصورهم الفارهة وما بها من آثار نعيم وانتشر الخبر في أرجاء المملكة كلها فسعد به الناس وازدادت محبة خادع في قلوبهم وأصبح خادع بين ليلة وأخرى هو الملك خادع قاتل الملك الظالم وقاتل الأعيان سارقي قوت الأمة ولكن خادع لم يكن ليضم أموال الأعيان إلى أموال الدولة ولكن ضمها لأمواله هو وفي صباح اليوم التالي زف للناس خبر مقتل أسامة قائد الجيش الملكي على يد أحد الأعيان كما ادعوا وهو مُحاصرًا قصورهم وعين خادع مكران قائدًا للجيش وكان بمثابة صدمة لمخلص وقاسم فقد أصبح قاتلا صادق أحدهما ملكًا والآخر قائدًا للجيش.

سيطر خادع على مقاليد الحكم بقبضة من حديد وهّمش دور خشخاش رجل الملك السابق القوي لبعض الوقت ولكنه لم يعزله ولم يفكر في قتله بل ظل يدعوه إلى جانبه طوال الوقت دون إعطائه أهمية أو أي أوامر لينفذها وبعد مرور شهر أو أقل رصد مكران شباب المملكة الذين يُعلمون الناس الحرية والعدل وهذه الأمور وكل من كان له علاقة بصادق وأُلقى القبض عليهم وأودعوهم بسجن المملكة ولكن خادع أمر مكران أن يستثني مخلص بالذات ولما حاجه خشخاش في ذلك وقال له إن مخلص وبرغم حداثة سنه هو أخطرهم وهو أكثر من وقف في وجهه يوم التنصيب إلا أن خادع أصر أن يتركه وأخبر خشخاش ومكران أن مخلص أخو قاسم زعيم عائلة كبيرة في قبيلة الرعاع والأمر لا يحتمل أعداء ذوي قدرة على الحشد في هذه الفترة بالذات لذلك قبضوا عليهم جميعًا وألقوهم في السجن إلا مخلص ودار البصاصون بين الناس يتحدثون عن ضلوع هؤلاء الشباب مع أعيان المملكة المقتولين لحياكة مؤامرة كانوا يرغبون من خلالها قلب نظام الحكم وإرجاع ما كانت عليه المملكة في العهد البائد وصدق معظم الناس هذا الكلام بل ولعنوا هؤلاء الشباب ونادى بعضهم بقتلهم ليكونوا عبرة لغيرهم من الخائنين.

وبعد مرور عام آخر وقد استقرت الأمور في دوائر الحكم وبين عامة الناس وعاش الناس في فقر ولكنه لا يقارن بفقر الملك السابق وبدأ عسكر مكران يتحرشون بالناس ويضايقونهم في الأسواق إلا أنهم لم يجرؤوا على القتل بعد حتى جاء اليوم الذي أرسل فيه خادع مناديًا ينادي في أرجاء المملكة أن الملك خادع قد أمر بإزالة الحدود بين القبائل الأربعة وترك للناس حرية البناء ونصب خيمهم في تلك الأماكن الفاصلة بين القبائل وأنشأ قانونًا يجرم الانتماء لعائلة ما أو لقبيلة ما والتحيز لها تنفيذًا للبند الأول من بنود الثورة وهكذا انتهى دور الشيخ فلان زعيم قبيلة كذا إذ لم يعد هناك قبائل وأسماها مملكة الرجال وضرب ببند أخر من بنود الثورة عرض الحائط لتنفيذ البند الأول فأمر جباة الضرائب بجمع الضرائب من الناس لإنشاء سور ضخم حول المملكة كلها لحمايتها من المعتدين وتسهيل دمج القبائل وكانت ضرائب طائلة أكلت ما ادخر الناس في السنة الماضية بل وتركت معظمهم في مأزق حاد يكاد يوشك أن يبيد بعض الأسر وتذكر الناس أيامًا خلت في العهود السابقة ولكنهم صمتوا مضطرين لعلمهم أن هذا الأمر إنما يهدف لحمايتهم من الأعداء وتوحيدهم.

هكذا دار البصاصون يتحدثون بينهم ويقنعونهم بذلك وبنى خادع سورًا ضخمًا غريب المنشأ ذا بوابة واحدة عظيمة ويبلغ ارتفاعه أكثر من عشرة أمتار يستحيل بذلك تسلقه، يلتف حول المملكة بأسرها وجعل هذا السور المملكة تشبه سجن كبير يتسع للجميع وأخذ هذا السور جهدًا ضخمًا دفع فيه الناس من قوتهم ما كسر ظهورهم ومن أرواحهم الكثير وذلك لأن خادع أرغمهم على العمل لإنشاء السور وكان العمل في

السور له قوانين خاصة ترغم كل أسرة صغيرة في أنحاء المملكة على تقديم رجل للعمل إن كان فيها رجلين ورجلين لو أن في الأسرة ثلاثة رجال وهكذا، يسخرون أنفسهم وطاقاتهم ليلًا ونهارًا للعمل وأخذ مكران من الجيش ثلة من الرجال أسماهم رجال السياط وهم مؤمورون بضرب كل من يخالف قوانين العمل في السور والتي تبدأ من الفجر وحتى غروب الشمس دون انقطاع لذلك فقدت المملكة العديد من الرجال في هذا الوقت وانتهى بناء السور بعد خمسة سنوات كاملة بعد أن استنفذ الناس طاقاتهم وبذلوا أرواحهم ليبنوا سجنهم بأيديهم.

وفي عام انتهاء بناء السور نفسه ضاعف خادع أعداد البصاصين لأربعة أضعاف أو أكثر حتى خيل للناس أن البصاصين أكثر منهم وأنشأ ديوانًا أسماه ديوان البصاصين وتولى بصاصٌ من بصاصي الملك السابق وكان يتعاون مع خادع وينقل أخبار صادق له حين كان لا يزال في القبيلة وكان يدعى جساس وكان خادع يعتبره أحد أهم أضلعة حكمه وعمل ديوان البصاصين على تدوين المعلومات التي يتحصلون عليها من الجلوس في الطرقات والمقاهي والحانات وكان بعضها يعد غريبًا نظرًا لغرابة ما تجسسوا عليه فكانوا يتجسسون على الناس في بيوتهم وهم نائمون، وهم داخل الخلاء، أصبح الأمر غريبًا حقًا وكان جساس ينتقي من هذه التقارير ما يراه يصلح لأن يُطلع عليه الملك ويرجئ التقارير الأخرى في أرشيف كان قد أنشأه وزاد الطين بلة أن جساس صنع لكل مخلوق في المملكة ملفًا اختصر فيه جميع ما يُعرف عنه من المعلومات ولذلك طلب من خادع مساحة أخرى لديوان البصاصين ولم يتأخر خادع في ذلك وأصبح ديوان البصاصين أهم ديوان من دواوين الحكم.
وأنشأ خادع ديوان الضرائب وسن له قوانين ظالمة أكلت دخول الناس وضيقت عيشتهم ورجعت المملكة بعد مرور هذه السنوات الخمسة إلى ما كانت عليه في العهد السابق.

وفي صباح أحد الأيام استيقظ الناس فوجدوا أن التماثيل التي نُقشت عليها البنود الخمسة قد اختفت من الوجود ولم يعد لها أثر ووجدوا مكان كل تمثال تمثالًا آخر لخادع في ملابسه المرصعة وتاج الحكم وصولجان في يد ويحمل سيفًا في اليد الأخرى ويقف في عظمة، ولم يقدر الناس على الاعتراض بل وأحب بعضهم ذلك بعد أن انتشر عسكر مكران في أرجاء المملكة وبصاصو جساس في كل مكان
وبعد أن أحس خادع أنه سيطر على كل شيء أمر بإخراج الشباب الذين سجنهم بعد أن قضوا في السجن ما يقرب من عشرة أعوام وقد كسر السجن نفوسهم وتركها هشة فخرجوا صامتين لا يستطيعون أخذ أي قرار وكأنهم رحلوا عن الدنيا كلها وقد غاب عنهم معظم أيام الشباب ورحلت أيامه الزاهرة بغير رجعة وانطفأت شعلة الحماس بداخلهم وكانت أخبار ما يحدث في المملكة تصلهم بين الفينة والأخرى وكانوا يحزنون لذلك أشد الحزن ويتذكرون أيام صادق وما علمهم وما أوصاهم به ولكنهم كانوا يواسون أنفسهم بأنهم لم يقصروا في شيء وأنهم حاولوا أن يساعدوا الناس على الارتقاء بمفاهيمهم وعقولهم ولكن الناس سمعوا وأبوا أن يعقلوا ويعوا وانتهت من

نفوسهم روح الثورة والحرية وعادت الروح الانهزامية مرة أخرى تلك الروح التي تنتمي للقمة العيش دون الوطن وللعبودية دون الحرية ولكن الناس لم يفهموا يومًا أن الانتماء لما سوى العدل وجميع قيمه يجلب الجوع ولو في ظل الطاعة العمياء.

جلس قاسم على عربته في السوق وقد فرش لحمارة بعض الطعم القليل وانهمك الحمار يأكل ووضع قاسم يده على خده وقد ابيضت لحيته وانكسر ظهره قليلًا فهو الآن قد شارف على الخمسين وكان يراقب أخاه مخلص الذي كان يفترش أرض السوق يبيع بعض الخضروات وقد بدأ ممارسة تلك التجارة منذ أن ترك أخاه وعاش بمفرده في بيت أبيه وكان مخلص لا ينفك يهرب من أي حوار أو اعتذار يحاول قاسم أن يقوله وكان ذلك الأمر يترك في قاسم غصة وندمًا لم يستطع أن يتخلص منهما طوال تلك السنوات وفي خضم هذا الصراع المرير بين قاسم ونفسه مر أمامه راضي ولما رأه جلس بجانبه يراقبه ولما لم يلحظه قاسم حتى بعد أن جلس هزه برفق فاستفاق من غفوته واعتدل وهو يقول:
- أهلًا يا راضي
رمقه راضي بشيء من الاستغراب ثم نظر لأخيه:
- أما زال لا يتحدث معك؟
تنهد قاسم:
- عشرة أعوام أمشي وراءه وأطرق بابه وأعتذر وهو يأبي حتى أن يرد سلامي.
وما فعلته لم يكن إلا لأجله والله يشهد كنت أحميه من بطش خادع لو لم أفعل لقتله كما قتل غيره بسهولة.
- ليس المهم أن يقاطعك المهم أنك نفذت ما أردت وحميته وربما سيفهم ذلك في يوم من الأيام.
فابتسم قاسم وقال بتهكم:
- نعم سيفهم ذلك..لو لم يفهم ذلك في عشرة أعوام كاملة فمتى سيفهم؟..إن ما فعلناه أنا وأنت بالذات في نظر مخلص يعد خيانة عظمى لكل ما تربى عليه وعرفه وعلمه إياه صادق.
- الأيام كفيلة به وكفى أنه بعد عن ذلك الأمر إلى غير رجعة.
وابتسم مرة أخرى وبتهكم قال:
- انتظر حتى يعلم أن زملاء كفاحه من الشباب قد خرجوا من السجن وانظر أسيبتعد أم لا؟
ظهرت الدهشة على وجه راضي:
- أخرجهم خادع؟ كيف ذلك؟
- ولماذا لا يخرجهم وقد دنت له الأمور وأصبح في يده مقاليدها ونسى الناس الثورة والحرية والمبادئ وانشغلوا برغيف العيش مرة أخرى وعاد الأمر إلى ما كان عليه وأسوأ، فما حاجته بهم في السجن يأكلون ويشربون وتضيق بهم سجونه التي ما زالت تقبل المزيد دائمًا وهو قد نشر بصاصيه وعسكره في شرق المملكة وغربها وجميع

أزقتها وحواريها فلن يفلت رجل من بصاص ولا مخالف لما أراد وأتباعه من قبضة عسكره.
ولمح قاسم رجلًا يلتفت حوله ويراقب ما حوله في ارتباك وما لبس أن تقدم من مخلص وقد ارتاب قاسم ووقف يراقب ما قد يفعله هذا الرجل في أخيه ولما دنى مال على أذنه وهمس فيها ببعض كلمات وظهرت علامات الاستغراب على وجه مخلص الذي تبدلت ملامحه من الملامح الطفولية التي كان عليها إلى ملامح وجسد شاب قوي في الخامسة والعشرين من عمره وما لبس أن ابتسم وسلم على الرجل بحرارة ثم رحل الرجل وهو لا يزال يلتفت حوله وفي تلك الأثناء كان لا يزال راضي يتحدث إلى قاسم وقد تشتت انتباه قاسم بالذي حدث مع أخيه وكان راضي يحكي له عن مريم وأفعالها وكان يقول له إنها أوقدت النار لتصنع حساءً وكان هو في الخارج ولما عاد وجد البيت قد اشتعل ووجدها هي قد غطت في نوم عميق والعرق من حرارة المكان يتفصد من جبينها وقال إنه حاول أن يوقظها ويهزها بشدة ولكنها أبت ذلك فبدأ راضي يلطمها بشدة وعندما لم تجبه ظنها قد ماتت فجرها من ساقيها حتى أخرجها خارج المنزل وقد أوشك أن يشتعل بأكمله وكانت ما زالت نائمة وبرغم كل الجلبة التي أحدثها الحريق والناس الملتفون حوله إلا أنها لم تستيقظ إلا بعد أن انتهى كل شيء وقامت تتمطى واقفة وهم في الشارع وعندما سألها أين تذهبين الآن؟ جاوبته بابتسامتها الساذجة المعهودة (لقد تركت حساءً على النار أوشك على النضج)
ولما انتهى راضي لم يستطع قاسم وبرغم التهائه بأخيه أن يمسك ضحكته وظل يضحك طويلًا وراضي ينهاه عن ضحكه ويطلب نصحه فنصحه بتطليقها فأشار راضي بيده وهو يقول:
- لقد فات الأوان على ذلك ومعي منها رجال الآن فهي قدري بكل عيوبها
وأتى أحد أولاد راضي يطلب أباه فذهب معه نحو البيت وهو يقول مازحًا لقاسم
- سأذهب أنا لما تبقى من بيتي.
فابتسم قاسم لحديثه ولمح أخاه وهو يقوم من مكانه ويأخذ ما تبقى من بضاعته ويحملها ويرحل ولم تكن الشمس قد انتصفت في السماء بعد، وما زال السوق عامرًا وتساءل في نفسه أين يذهب الأن؟ وفكر قاسم أن يتبع أخاه ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة وظل جالسًا ينتظرمن يرغب أن يحمل أشياءه في عربته مقابل أموال ضئيلة هكذا عمل قاسم طوال عشرة سنوات منذ أغلق دكان خادع.

حدثت في ساحة القصر جلبة واضحة عندما قام الرجال والوزراء والأعيان الجدد من مكانهم واقفين عندما دخل خادع يمشي في عظمة واضحة وفي تؤدة تحرك نحو كرسيه وجلس عليه وهو يتأمل ملامح من حوله وما أن رأى الشيخ ثابت وبلال ضمن الجالسين حتى ظهرت نواجذه مبتسمًا وأشار لهم بالجلوس وبعد صمت لم يطل تقدم خشخاش يحمل ورقة بين يديه وهمس:
- جساس يريد زيادة في عدد البصاصين وأنا أرى أن الأوضاع مستتبة ولا داعي لذلك يا مولاي.
نظر له قاسم في عينيه وهو يتأمل الورقة ثم أشار له وهو يقول:
- وفر له ما أراد.
ونظر خشخاش إلى عينيه فوجده جادًا صارمًا فحياه وانصرف من فوره.
ونظر خادع إلى الشيخ ثابت الذي بادله النظر:
- وكيف حال الرعاع يا شيخ ثابت؟
طأطأ الشيخ ثابت رأسه وهو يقول:
- هم بخير حال يا مولاي ما دمت أنت على هذا الكرسي فنحن بخير دائمًا.
- نعم نعم خادع لا ينسى رجاله ولا أنسى يوم التنصيب ما فعلته يا شيخ ثابت وأظن أني بزلت لك العطاء ولم أبخل.
فقال الشيخ ثابت في نفسه عن أي عطاء يتحدث هذا الرجل ولكنه سرعان ما على صوته قائلًا:
- نعم يا مولاي خيرك على الجميع.
فاعتدل في جلسته وهو يرمق بلال:
- وكذلك أنت يا بلال لقد بزلت لك العطاء الوفير:
فقال بلال بشئ من الجرأة.
- عن أي عطاء تتحدث، لقد خالفت المبادئ التي أقسمت أن تتبعها وعُدنا إلى أسوأ مما كنا عليه أيام الملك السابق.
وأحدثت كلمات بلال جلبة عالية وأخذوا يرمقونه وخادع حتى قال خادع:
- أنت رجل سياسة وتفهم جيدًا كيف تدار الأمور وكان لابد من السيطرة على الحكم وإلا لانفلت الزمام مني وأنت رأيت بنفسك ما فُعل في أخيك أسامة رحمه الله ولولا سيطرت أنا ورجالي على المملكة لكنت مقبورًا معه فتذكر تلك النعمة إلى أن ترحل من الدنيا وربما يكون ذلك اليوم أقرب مما تتصور.

وقام خادع وقد وضع يديه خلف ظهره ووقف أمام الشيخ ثابت وبلال يرمقهما بعيننين ثاقبتين ثم دنا منهما وأردف:

- لقد دفع الناس ثمن ما فعلوا في الماض ودفعوا أيضًا ثمن وقوف هذه المملكة مرة أخرى على قدميها وآن الأوان أن تدفعا أنتما الاثنان أيضًا ولو كان أحد غيركما لما استأذنت منه وما ناقشته في الأمر ولكنكما عندي ذوو مكانة كبيرة.

وذهب وجلس مرة أخرى على العرش واستطرد:
- لقد رأت حكمتي أن الناس في المملكة قد ساءت أحوالهم المعيشية وظهر الجوع في أوساطهم ينهشهم ولحرصي الشديد على مصلحتهم وخوفي على حيواتهم فقد قررت أن الدولة ممثلة في أنا سوف تستحوذ على التجارة في كل أنحاء المملكة ليسهل عليها مراقبة الأسواق وحصر البضائع وبذلك يكون الأمر في يدنا نستطيع أن نتحكم فيه وأنتم تعلمون جميعًا أني كنت تاجرًا عظيمًا ذا شأن وكنت ولا أخفيكم سرًا أمهر التجار في طول المملكة وعرضها ولذلك قررنا الأتي دون رجعة:
هدم جميع الدكاكين في المملكة كلها وإنشاء دكان خادع للحيلولة دون سرقة أموال الرعاع من بعضهم وتكون الدولة ضامنة لذلك وسوف تشتري الدولة المزروعات بثمن ترتضيه وتبيع للناس بثمن ترتضيه أيضًا أما الصناع المهرة والعمال فسوف يعملون في دكان خادع وأنتم تعلمون جميعًا أن هناك في ساحة قبيلة الرعاع القديمة يقبع دكاني القديم ولكنه كان لا يستحوذ على مساحة السوق كاملة وإن كان كبيرًا لذلك سوف تهدم باقي الدكاكين ويتوسع الدكان، أما في القبائل الأخرى فقد ارتأيت أن نأخذ بيت الشيخ ثابت الكبير وما حوله من دكاكين حتى امتداد السوق وأيضًا بيت بلال وأخيه إلى السوق وهدمهما وبناء دكان كبير يسع حاجيات الناس والبضائع وبذلك تكونا قد أديتما للمملكة جميلًا آخر لن تنساه لكما ما حييتما وكذلك سنفعل مع قبيلة المواريد ولكن السوق بعيد عن بيت الشيخ عبدالقادر رحمه الله فلا حاجة لهدمه
هذا المنشور سيدور به المنادون من غدٍ وسينفذ خلال أيام فهل من معترض على هذا؟
فعلق الشيخ ثابت بشيء من الارتباك؟
- وأين سنسكن يا مولاي؟
وقاطعه بلال:
- أين سنسكن؟ المشكلة ليست في أين سنسكن؟ إن هذا يعد احتكارًا بالغ الوصف وسوف يجوع الناس أكثر وهذا ظلم بَيِّن لن نقبل به ولن يقبل به الناس أو على الأقل لن تقبل به قبيلتي.
تحسس مكران سيفه وكان واقفًا على يسار خادع الذي أشار له بالهدوء ونظر نحو بلال قائلًا:
- أهذا رأيك؟
- نعم رأي كل عاقل.
- وما هو رأيك يا شيخ ثابت؟
بتلعثم قال:
- الرأي رأيك يا مولاي وما تريده يكون ولكن أين سأسكن أنا وأولادي؟

أشار له خادع أن يصمت ونادى بصوت ارتج له القصر على خشخاش وقدم خشخاش على عجلة من أمْره وأمرَه خادع أن يأتي بالكتاب الذي دونت فيه قوانين المملكة وغاب خشخاش قليلًا وسط ترقب الناس وعاد حاملًا ورقة واحدة مهترئة فقال له خادع اقرأ القانون الثالث وقرأ خشخاش بصوت عال:
- إن من ينتمي أو يدعو للانتماء إلى قبيلة ما من القبائل الأربعة بعد توحيدها يكون قد ارتكب خيانة عظمى وتعد جريمته من أشد الجرائم التي يعاقب عليها القانون بالقتل دون محاكمة.
وأشار خادع لخشخاش فطوى الورقة وأومأ خشخاش إلى مكران فتحسس سيفه وتبعه حتى وقف أمام بلال اقترب منه هامسًا:
- سيشهد عليك الجميع وأنت تعلم أني لا أحتاج لشهادة أحد ولكن لا أحب أن يناديني الناس بالقاتل على الأقل ليس الآن لذلك سأكتفي بسجنك حتى تتأدب.
وأشار لمكران فأمسك ذراعه وظل بلال يرمق خادع في غضب حتى أشار مكران لرجلين فأتيا يجران بلال جراً ونادى خادع في خشخاش قائلًا:
- من الصباح تبدأ في إجراءات الهدم والبناء وخذ معك مكران في كل خطوة.
- أمرك يا مولاي.
- انتظر.
ونظر للشيخ ثابت وهو يقول لخشخاش:
- أتظن أن الخرائط التي معك تحتم علينا هدم بيت الشيخ ثابت؟
فابتسم خشخاش وقال:
- الرأي رأيك يا مولاي.
- أنا أرى أن نستثني بيت الشيخ ثابت من الهدم.
قالها وهو يربت على كتفه وانفض الجمع بعد ذلك.
وفي تلك الأثناء كان خادع قد أرسل في طلب قاسم بمفرده وقد أرسل إليه ثلة من حرسه مع عربة فخمة يجرها أربعة خيول ولكن خادع لمح وهو يقف في شرفة القصر أن العربة الفارهة التي أرسلها أتت فارغة وأتى خلفها قاسم على عربته الصغيرة وحماره المعتاد فتبسم خادع من ذلك ودخل ليستقبل قاسم.
وربط قاسم حماره في عمود من الأعمدة المقامة خارج القصر وحمل بعض البرسيم ووضعه أمامه وانكب الحمار عليه يلتهمه التهامًا وكان قاسم ينظر حوله في انبهار وقد زاد انبهاره حين دخل إلى القصر ليجده قد تغير، أصبح أرقى مما رأه منذ عشرة سنوات وشغله السقف لوقت ليس بالقصير وكان خادع قد أمر حرسه فاختفوا وأمر وزراءه فانصرفوا حتى مكران وخشخاش وترك ساحة الحكم فارغة إلا من قاسم ربما كان يفكر خادع في الماضي ويذكره قاسم به، الماضي البعيد حيث الطفولة في أزقة القبيلة وشوارعها ولما دخل على قاسم اقترب منه وسلم عليه بحرارة بل واحتضنه وكان قاسم غير مصدق لما يحدث ولم يفهم شيئًا مما يفعله خادع حتى خادع نفسه لم يستطع أن يحكم على ما يفعل غير أنه تذكر عند رؤية قاسم وبرغم قلبه الذي لا يوجد فيه رحمة أيام الطفولة والصبى الأولى، ويحتاج الإنسان مهما بلغت قسوته تذكر تلك الأيام كل فترة فهي بمثابة المادة الكاوية التي تذيب صدأ الحديد

وتجليه ليظهر معدنه الحقيقي ولكنها سرعان ما تختفي تحت أقدام الطبائع والأطماع وغلبة الدنيا وأمر خادع بطعام فاخر وجئ به ووضع أمام قاسم وشرع قاسم في التهامه بأصابع يده وشاركه خادع الطعام بيده هو الآخر دون أن يطلب الملاعق التي تعود عليها منذ أن أغناه الله وفرغ قاسم من طعامه وجلس ينتظر أن يبدأ خادع فيما طلبه من أجله وطال انتظاره حتى قال خادع بابتسامة:
- أنت أكثر من يُضعف نفسي يا قاسم رؤيتك تُخرج من ماضي ما أردت دائمًا إخفاءه
- ولماذا ترغب في إخفاء الماضي؟
اعتدل خادع في جلسته:
- أتريدني أن أتذكر أيام الفقر والجوع؟
- أحيانًا.
- وكيف ذلك؟
- عندما تتذكر أيام الفقر تخاف على الناس منه فتطعمهم وتسقيهم.
- يا ليت ولكن إن شبعوا هم أجوع أنا وإن جاعوا أشبع.
لحظات صمت حتى تابع خادع:
- أتتذكر بستان القاضي منذ أربعين عامًا أتتذكر عندما كنا نقفز أنا وأنت من فوق السور الذي بناه ونتسلل لنقطف التفاح؟
ضحك قاسم وهو يتذكر تلك الأيام وقال ومازال يضحك:
- بل أتذكر يوم أن قبض عليك وهربت أنا وأخذوا يضربونك حتى جئت لي عند البئر وقد احمرت خدودك ونزف أنفك.
وضحكا بصوت عال مما أثار تحفظ بعض الحرس الواقفين خارج الغرفة فأشار خادع له أن يصمت فصمتا ولكنهما سرعان ما عاودا الضحك مرة أخرى وظلا يضحكان طويلًا حتى قال خادع:
- كنت أعلم دائمًا أنك تسرقني.
فاندهش قاسم وارتبك ولكن خادع طمأنه قائلًا:
- كنت دائمًا أتذكر أيام سرقاتنا الأولى وأقول في نفسي ذلك الفتى الذي تربيت معه لن يتغير وأرسلت خلفك أحد رجالي يراقبك لمدة وكان يقول لي كل يوم أنك تذهب للمخازن التي معك مفاتيحها في الليل وتملأ درج عربتك بما تريد وكنت أضحك وأتذكر تلك الأيام.
- كانت أيام مضت والآن أصبحت أنت الملك وأصبحت أنا (عربجي) أجر بحماري بضاعة الناس من الحقول لبيوتهم أو دكاكينهم.
وهنا تغيرت ملامح خادع وانطفأ وهج الطفولة الذي أضاء وجهه وذهب وجلس على كرسي حكمه:
- وهذا ما طلبتك من أجله لن يعد هناك محصول لأحد بعد اليوم فقد صدر قانون بإغلاق الدكاكين وكل التجارات وسوف تحصل الدولة على المحاصيل ومنتجات الصناع المهرة وتبيعها للناس بنفسها.
فابتسم قاسم بتهكم وهو يقول:
- تقصد ستعيد فتح دكانك ولكن بطريقة أخرى.

فضحك خادع:
- الأمر أكبر من دكاني يا قاسم فأنا الآن الملك سنبني في كل قبيلة دكان كبير يسع سوق القبيلة وربما أكبر ونشتري من الناس المحاصيل ونبيعها بأثمانها التي سنحددها فيما بعد للناس فأنت تعلم أن الجيش لابد أن يحصن بالسلاح لحماية المملكة من الأخطار التي حولها وأنت تعلم أيضًا أنها مستهدفة طوال الوقت هذا بجانب الضرائب التي تُحصل وقد اخترتك أنت لتكون مشرفًا على الدكان الذي في قبيلتنا أريد أن تجعله كسابق عهده ولكن احذر أن تخالف أمري فهذه المرة ليست ككل مرة.
- نعم نعم لا تقلق من ذلك سأكون عند حسن ظنك وأشكر ثقتك الغالية يا مولاي خادع ولمح خادع في عيني قاسم شيئًا ما لذلك نزل إليه واقترب منه.
- اسمع أنا أعرف هاذين العينين عندما يخدعان ولكن احذر فأنا تركت أخاك مخلص في السابق برغم كل ما فعله لأجلك ولا مضرة من تذكر الماضي إن اضطررت لذلك.

ارتبك قاسم وخاف على أخيه بشدة وظن في خادع الجنون فقد بدأ معه الجلسة بترحيب وضحك وتذكُر للماضي ونهاها معه بصدٍ وتهديد ووعيد.
ورمقه بارتباك وهو يوشك أن يتذلل:
- كان طائشًا حينها ولم يكن يعلم ما يتوجب فعله ولكنه الآن أعقل ولا أظن أن هناك أحدًا في المملكة كلها يرغب في عدائك فأنت الملك وولي النعم، اسمح لي أن أسأل متى سنشرع في العمل؟
- عند هدم الدكاكين وبناء الدكان الكبير وذلك لن يتطلب وقتًا طويلًا، غدًا ستهدم الدكاكين القديمة وفي غضون شهر سننتهي من البناء وذلك كله بفضل سواعد رجال المملكة.
وبتلعثم سأل قاسم:
- هل سيعوض أصحاب الدكاكين على إغلاق مصدر رزقهم؟
- بالطبع سأفعل ولكن سأرجئ ذلك لوقت آخر أنت تعلم أن بناء الدكان الكبير سيحتاج لأموال طائلة ولابد أن يقفوا بجانب وطنهم أو ماذا ترى أنت؟
- أأأنعم بالطبع لابد أن يقف الجميع بجانب الوطن وخاصة إن كان الوطن في محنة.

وفي صباح اليوم التالي انتشر عسكر الملك في المملكة مدججين بالسلاح وقد جلبوا معهم رجالًا مكبلين ومطأطأي الرؤوس وخلفهم سيافين غير ظاهري الوجوه وفي كل ساحة من ساحات المملكة وقف رجل ممسكًا بورقة يقرأ فيها أن هؤلاء الرجال خانوا المملكة وقد عصوا أمر الملك ووجه إليهم تهمة الخيانة العظمى وثبتت عليهم بالأدلة الدامغة لذلك قرر الملك إزهاق أرواحهم نكالًا لهم وليكونوا عبرة لمن بعدهم وأُنزلوا على أرجلهم وقُتلوا جميعًا أمام أعين الناس الراضية وبعد أن أراقت الدماء وما زال الناس مجتمعين قُرئ عليهم القانون الجديد؛ قانون توحيد التجارة وتسليمها لقبضة الدولة فقط وحينما أُخبروا بقرار هدم الدكاكين لم يملك أحد وهم يرون تلك الدماء الزاحفة نحو أرجلهم الاعتراض وتملكهم الخوف الشديد وبعضهم سلم بجدوى هذا الأمر وصدق ما نشره بصاصو الملك المنتشرون في ربوع المملكة كلها من أن هذا القانون الجديد الذي سيطبق سيكون بمثابة الانطلاقة الجديدة التي ستجعلهم يعيشون جميعًا في رغد وثراء وتداول الناس هذا الأمر من الصباح حتى وقت الظهيرة وقت أن رجعوا لبيوتهم للاحتماء من حرارة الشمس القاتلة وفي خضم هذا السكون الذي يدوم حتى تكسر الشمس حدتها سُمع جلبة الحفارين والهُدام آتية من ناحية الأسواق ولم يجرؤ أحد أصحاب هذه الدكاكين الخروج من بيوتهم أو التحدث في شأن هذا الأمر واكتفى بعضهم بدموع دون صوت بكاء ونظرات حائرة إلى أعين أطفالهم الذين قد يصيبهم الجوع في الأيام القادمة وظل الناس كلهم قابعين في البيوت يتسلل إلى آذانهم أصوات الهدم وإلى أنوفهم رائحة الغبار المثار من آثار الهدم وقبل غروب الشمس بقليل كانوا قد فرغوا من الهدم ورجع العسكر والعمال من حيث أتوا وخرج أصحاب الدكاكين والصناع ناحية الأسواق ووقف كل واحد منهم على أطلال دكانه يبكيه ولا يملك من أمره شيئًا ولم يترك رجال خادع فرصة لأحد أن يأخذ بضاعته من الدكان أو أن يتحرى أشياءه التي تركها هناك وجَبُن الناس أن يتفوهوا بكلمة وظل أصحاب الدكاكين يبكون على دكاكينهم والناس يواسونهم، وفي سوق قبيلة الرعاع جلس قاسم على عربته يتأملهم وتعلوا شفته ابتسامة سخرية مختلطة بنظرات حزينة وهو يقول بصوت مسموع.

- ألف دكان في طول المملكة وعرضها هُدموا ولم يتفوه أحدهم بكلمة بل ولم يخرج أحدهم من بيته يا لجبنكم يا لجبنكم.

وهُدم بيت بلال في قبيلة الخُلج وتشردت عائلته لوقت طويل حتى سُمح لهم بالخروج من المملكة وكان خادع قد أمر بعدم التحدث أو مساعدة عائلة بلال الذي خالف قوانين الملك وكاد أن يضرب اتحاد القبائل في مقتل وشرع في بناء الدكان واحتجز خادع مجموعة من الناس ليعملون في بناء الدكاكين الأربعة وكان العمل على قدم وساق وفي غضون ثلاثة أسابيع كانوا قد انتهوا من البناء وأرغم أصحاب الصناعات

المهرة منهم على العمل في الدكان مقابل أجر ضئيل وأرغم فلاحي المملكة على بيع محاصيلهم للدكان ومن لم يفعل وحاول بيع محاصيله لأحد تجار البلاد الأخرى اتُّهم بالخيانة فيسجن لبعض الوقت ثم يخرج مرة أخرى لاستئناف عمله في الحقل وبعد مرور شهر آخر صدر قانون بسحب الأراضي من ملاكها وجعلها ملك للدولة وأصبح أصحاب الأراض بين يوم وليلة مجرد عمال يقومون بأدوارهم ولا يحق لأحدهم حتى أن يأخذ بعض من محصوله إلى بيته وعيَّن عليهم جباةً للمحاصيل يحاسبونهم على كل حبة قمح وحبة شعير في مقابل أنهم أصبحوا يأخذون أجرًا ضئيلًا يكاد لا يكفيهم وضاق الناس بعيشتهم حتى امتلأ الدكان بكل ما في المملكة من بضائع وتكدس الناس حوله يشترون منه كل ما يلزم بيوتهم وكانت البضائع تباع بأسعار غالية لذلك كان الناس يأخذون القليل من الطعام لقلة المال الذي في أيديهم وانتشر البصاصون بين العِباد يقولون إن الناس لابد أن يقفوا مع المملكة حتى تتخطى الأزمات الراهنة وأنه سوف تتحسن الأمور في المستقبل القريب ولابد من الصبر حتى تتكشف الغمة وفي تلك الأثناء استدعى خادع الشيخ «فضيلة» إمام أكبر المساجد في المملكة وكان الناس يثقون في الشيخ فضيلة كثيرًا ويلجأون إليه في المسجد بعد الصلوات أو في دار المشيخة لسؤاله عن أمور دينهم ودنياهم وعندما جيئ به ووقف أمام خادع ابتسم خادع له وأغدق عليه من المال الوفير الذي غير حياته وبعد ذلك كان الشيخ فضيلة يتبع البصاصين ويجمع الناس ليخطب فيهم في الأسواق ويحثهم على الرضا بالابتلاء والصبر عليه وأن تفشي الغلاء ما هو إلا غضب من الله عليهم لمعصيته وتركهم فضائل الأمور وكان يُنهي جميع خطبه من بعد ذلك اليوم بالدعاء لخادع وكان مئات المصلين في ساحة الجامع الكبير يأمنون على دعائه وكلما كان يحدث أمر ما كان يتوجس منه خادع خيفة من الناس كان يرسل الشيخ فضيلة للتحدث عنه وكان الشيخ فضيلة ماهرًا يلوي أعناق الآيات ليطبقها على الشأن المطروح وكان ينجح في إقناع الناس دائمًا وكان في بعض الأحيان الأخرى يخترع أحاديث ينسبها للرسول (صلى الله عليه وسلم) لإسكات الناس وإرجاعهم عن غضبتهم كمثل ذلك اليوم الذي نضبت أشجار التفاح وأصبحت لا تُنتج إلا القليل الذي يكفي الملك ورجاله ومن يخدمه لذلك رُفع التفاح من الدكاكين وغلى ثمنه حتى أصبح ثمن تفاحة واحدة مهربة 50 قطعة ذهبية ولذلك وقف الشيخ فضيلة يخطب في الأسواق حول التفاح وكيف أنه من أقذر أثمار الدنيا حتى إنه قال في مرة: إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال إن من يأكل التفاح لن ينال الفلاح.. ورددها عدة مرات حتى رددها الناس من بعده وعندما عاد إلى بيته في ذلك اليوم وجد سلة تفاح أحمر يتقطر منه الماء أُرسل له من قصر الملك فأخذ السلة على حجره وشرع في التهامه، والمضحك في الأمر أن الناس في المملكة امتنعوا عن أكل التفاح لعلة وجود تشريع ينهاهم عنه وأخذوا يحذرون بعضهم من مغبة تناوله ويتحدثون مع أطفالهم وينهوهنم عن أكل التفاح في حين أنهم لم يكونوا يمتلكوا ثمنه أصلًا ولو كان حلالاً لما استطاعوا شرائه.

وتكدست الأموال في خزائن خادع وخزائن رجاله وجاع الناس واضمحلت أحوالهم وانتبه الناس فجأة على فقرهم ولم يفهموا متى حدث ذلك وكان الفقر وضيق الحال قد

أصاب راضي أيضًا بعد أن سُحبت الأرض التي ورثها من عائلته وعمل أولاده الذكور في دكان خادع ولم يكن له ولا عائلته مصدر للدخل إلا الأجر الضئيل الذي يأتي به أولاده كل حين والذي لا يكفيهم معظم الأحيان أما قاسم فتغيرت حياته منذ أن عمل في دكان خادع الكائن في سوق قبيلة الرعاع القديم وكان يتقاضي أجرًا مميزًا عن باقي العمال وكان يأخذ لبيته كل يوم ما طاب له وفي بعض الأحيان كان يرسل لمخلص بعض الطعام ولكنه كان يرفضه على الدوام ولا يقبل منه أي شيء على الإطلاق وفي صباح أحد الأيام ذهب راضي إلى الدكان وكان يتأمل البضائع وينظر عن كثب للفاكهة المرصوصة داخل الدكان ولمحه قاسم فقام من مقعده ورحب به بشدة ثم أجلسه بجانبه وأمر أحد العمال بجلب طبق كبيرمن كل أنواع الفاكهة في المحل ووضع الطبق أمام راضي الذي شرع في التهامه وهو يحدث قاسم بفم ممتلئ:

- لقد ضاق بي الحال وكدت أموت جوعًا أنا وعائلتي.

تنهد قاسم:

- هكذا الحال على الجميع.

فرمقه راضي بنظرة خبيثة وعينين مقلوبتين:

- ليس على الجميع.

فاعتدل قاسم في جلسته:

- وهل فعلت معك شيئًا يستوجب نظراتك تلك إلي؟ لقد لجئت لي وبفضلي فأولادك جميعًا يعملون هنا في الدكان.

- بقطعة ذهبية واحدة في الشهر كله يارجل إن صاع الشعير بقطعتين ذهبيتين فكيف يكفينا هذا.

- أتظنني صاحب الدكان أنا أعمل هنا مثلي مثلهم وهذا ما فرضه الملك أطال الله لنا في عمره فماذا أفعل؟

صمت راضي ولم يجد ما يقول وطال صمتهما حتى رمق راضي قاسم وهو يقول:

- إن الأمر يزداد صعوبة إن عقلها يتوقف بكامله في أيام الجوع، كادت تقتلنا وهي بنصف عقل فما بالك وهي بلا عقل

واقترب راضي منه وهو يهمس في أذنه وينظر حوله مراقبًا كي لا يسمعه أحد:

- لقد استيقظت أمس وإصبعي في فمها لقد كادت تأكله لولا أن أيقظني الله لينجيني.

فضحك قاسم من كلامه فقاطعه راضي:

- أتظنني أمزح إني جاد صادق لقد تركتها في البيت الآن تغلي ماء على الحطب ولاشيء في بيتنا لتضعه في النار فمن تظنها سوف تطبخ؟

ما زال قاسم مبتسمًا وهو يرمق راضي واقترب منه وهمس:

- اسمع يا راضي سوف أساعدك ولكن بشرط واحد ألا يعلم مخلوق ما سنفعله وتعدني بذلك.

- مخلوق أي مخلوق لن أخبر أحدًا. أعدك بذلك.

أرجع قاسم ظهره إلى الوراء وقال:

- اذهب الآن وقابلني عند المخزن الكبير بعد أن ينتصف الليل.

وفي الليل تسلل راضي إلى المخزن ليجده مفتوحًا وعربة قاسم أمامه ولكنها لا تحمل قاسم ولما دخل للمخزن قابله قاسم وفي عجلة أمره أن يحمل كل ما يريد على العربة ومن فوره أخذ راضي يحمل القمح والشعير والفاكهة والخضروات حتى إنه دخل نحو أقفاص الدجاج وحملها في يده إلا أن قاسم منعه وأخبره أن أصواتها ستوقظ الناس وربما ينتبه لهم أحد الحراس أو أحد البصاصين ونظر له راضي وتعلو شفتيه ابتسامة بلهاء وأخذ يقتلع رقاب الدجاج بيده حتى إن الدم أغرق المخزن وأغرق ملابسهما وحاول قاسم منعه إلا أنه فشل وحملا الأشياء كلها والدجاج مقطوع الرأس إلى العربة وأسرعا نحو بيت راضي وأخبره قاسم أن هذا الأمر لن يتكرر وأنه في مقابل ذلك سوف يجلب له ما يحتاجه بطريقته ورجع قاسم من فوره وأخذ ينظف المخزن من الدماء وعندما فرغ عاد إلى بيته وفي بيت راضي أيقظ زوجته وأولاده وطبخت زوجته الدجاج كله وأخذوا يلتهمونه بنهم شديد وظلوا يأكلون حتى كاد الفجر أن يطلع.

12

وفي أحد الليالي التي غاب عنها القمر كان خادع في سريره يتفصد العرق من جبينه ويتأوه وهو نائم حتى استيقظت حسناء من جانبه على صراخه وتأوهه وأخذ نفسه في التصارع وقلبه يكاد يقفز من صدره ووضع يده على صدره وهو يتألم وهو مازال غارقًا في النوم وما أن رأته حسناء هكذا حتى ربتت عليه وأيقظته فقام فزعًا يكاد لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه.

- مالك؟

فأشار لها بيديه ولم يستطع الكلام وعادا للنوم مرة أخرى وعندما أخذ النوم حسناء كان خادع مازال مستيقظًا ولم يستطع أن يخبرها بما رأى في منامه ولكن ما رآه في منامه أرَّقه ولم يستطع النوم بعده وكان قد رأى صادق في الحلم واقفًا أمام عينه وقد استلقي خادع على الأرض ووقف صادق واضعًا قدمًا على الأرض والأخرى على صدر خادع وكان خائفًا أشد الخوف وتكاد عيناه تخرجان بلا عودة وهو ينظر في عيني صادق الثاقبتين المتوعدتين وعندها رفع صادق الخنجر الذي كان معه ونزل به في غضب على خادع.

وظل خادع مستيقظًا طوال الليل حتى لاح نور الصباح من نافذة القصر أمام عينه فقام متثاقلًا ولايكاد يستطيع أن يصلب نفْسه واتجه ناحية النافذة ومن بَصِيصها استنشق عبير الصباح وتغلغل الهواء إلى صدره فأنعشه ومد يده ودفع النافذة فانفتحت فرأى أمامه لافته من القماش فتأملها فوجدها قد كُتب عليها بخط واضح (خادع هو قاتل صادق)

ففزع عندما تأكد من الكلمات التي رآها وتراجع للخلف بقوة وقد تملكه الخوف وأخذ يتراجع حتى وقع على الأرض وهو يشهق وكأنه رأى شبح قاتله وكانت هذه اللحظات أكثر اللحظات التي فزع فيها خادع واعتراه الرعب وجلس على الأرض طويلًا لا يستطيع أن يقف ولم يكن يستطيع أن يجمع شتات أمره ويستخلص أحد أفكاره التي تنقذه في أغلب الأحيان ثم استند على حافة سريره ووقف متجهًا ناحية صالة الحكم وانتفض حرس القصر وخادع يتحرك ناحية الصالة وقد ضرب إحدى التحف فكسرها فانتبه الحرس وازداد تركيزهم وما لبس أن أمر أحد الحراس بإيقاظ خشخاش ومكران فورًا وبعد قليل كانا أمامه وهم غير فاهمين ما يحدث وما أن أخبرهما ولم يجد عندهما أي ردة فعل حتى انتابته حالة من الجنون وأخذ يضرب الأشياء في غضب حتى إنه دفع خشخاش وكاد يسقطه أرضًا ثم عاد وجلس وهدأ قليلًا ثم قال:

- لقد وصلوا إلى غرفة نومي وعلقوا سر لم يعرفه أحد غيرنا نحن الثلاثة، سر دُفن منذ أكثر من عشرة أعوام.
فأجمع خشخاش نفسه وعلق:
- ربما يكون واحدًا من القصر.
تأمل خادع مكران ونظر إليه نظرة غاضبة:
- وأين كان رجالك يا قائد الجيش هل ناموا كما نمت أنت أيضًا؟
وقبل أن ينبس قاطعه خادع:
- أرسل في طلب جساس الآن.
وقبل أن يرحل مكران كان جساس يطلب الدخول وأذن له خادع وجاء جساس يحمل ورقة في يده وسرعان ما بادر:
- مولاي خادع لقد حدث أمر خطير.
- نعم أعلم وأين كان رجالك يا جساس ماذا حدث؟
- إني ورجالي لم نقصر في هذا الشأن على الإطلاق فالجميع مراقبون والبصاصون منتشرون في الأسواق وفي شوارع المملكة كلها ولا أعلم كيف حدث هذا؟
- كان لابد أن تضع بصاصيك في القصر أيضًا فمكران ورجاله نائمون.
وتأمل جساس خادع وقال:
- أنا لا أفهم يا مولاي ما الذي تتحدث عنه؟
- أتحدث عن اللافتة التي عُلقت أمام نافذتي وكُتب عليها كلام فارغ.
- أوقد وصلوا للقصر أيضًا؟
ودق قلب خادع بشدة وهو يسأل:
- ماذا تقصد؟
ورمقه مكران وتقدم نحوه وناوله الورقة التي في يديه:
- أقصد هذه الورقة يا مولاي لقد استيقظ رجالي فوجدوا أن هذه الأوراق ألصقت على حوائط البيوت وفي الأسواق ولا حديث للناس إلا عنها منذ أن طلع الفجر
وتأمل خادع الورقة وجدها مخطوطة بنفس الكلمات: (خادع هو قاتل صادق)
وهنا انهار خادع تمامًا وتغيرت ملامحه ونزل من كرسيه وهو يتحرك في شيء من الارتباك عاضًا على شفتيه وأمر مكران بنشر عسكره في شتى أنحاء المملكة وتشديد الرقابة على البوابات ومداخل ومخارج المملكة ومُنع الناس من الخروج من المملكة إلا بأمر مكتوب من مكران نفسه وانتشر العسكر والبصاصون يجوبون المملكة شرقًا وغربًا باحثين عن الذين نشروا ذلك الكلام وجاء دور الشيخ فضيلة الذي كثرت خطبه وتفرغ لهذا الأمر فقط وكثرت الخطب عن الظن السيئ والذي يجب أن يتجنبه الناس وبعد مرور شهر كامل لم يستطع البصاصون الوصول لمن فعل هذا الأمر ولا حديث للناس إلا في هذا الموضوع وصدَّقه بعضهم وكذَّبه آخرون ولكن الذي حدث وغير الكثير من الأمور هو خوف خادع وارتباكه وأصبح يتصرف بجنون منذ هذه اللحظة حتى من حوله من خدمه وحرسه ووزرائه ظنوا أنه سينتهي في وقت قريب ودفعه خوفه إلى أنه أمر رجاله بهدم بيته القديم الذي بناه خارج المملكة وأمر ببناء قصر كبير في نفس المكان وظهر مكتوب آخر ولكنه لم يعلق في القصر كالمنشور

الأول بعد أن شدد مكران الحراسة على القصر وما حوله بناءً على رغبة خادع وكان المنشور هذه المرة يحوي كلمات مخيفة جعلت خادع يأمر في الإسراع في بناء القصر وكانت تلك الكلمات هي: (نحن قادمون يا خادع)، ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد بل كثرت تلك المنشورات وكان يستيقظ الناس من نومهم ليجدوا المنشور أمام أبواب بيوتهم وفي الشوارع والطرقات وعلى جدران المنازل بل وجدران دكان خادع نفسه وكان الحرس ينتشرون بعد كل منشور يقتلعونه ويجمعونه من الشوارع ثم يحرقونه وصدر قانون بتجريم الاجتماعات لأكثر من رجلين وكان ثلاثة أصدقاء يقابلون بعضهم في الشوارع ولو صدفة فيتحاشون السلام خوفًا من بطش الحرس وظهرت منشورات متتالية تجرم الاحتكار الذي فعله خادع وتجرم فرض الضرائب، ومنشور آخر ذكَّر الناس بالبنود الخمسة التي ضرب بها خادع عرض الحائط وأحاطت الأفكار السيئة بخادع بعد فشل البصاصين في إيجاد الذين يفعلون هذا الأمر وأُخذ كثيرون دون ذنب ووضعوا في السجون وأعمل مكران القتل وكثر النهب والسرقة وما أن انتهى بناء القصر حتى غادر خادع المملكة إلى قصره الجديد وأمر بألا يخرج أحد من المملكة إلا بمنشور خاص منه هو فقط حتى إنه لم يعد يثق في مكران وكان مكران وجساس وخشخاش يزورونه في قصره كل يوم ليطلعوه على أحوال المملكة وقد كان ينهرهم بشدة لفشلهم في منع تلك المنشورات.
وبرغم كثرة تلك المنشورات وظهورها بشكل دوري إلا أنها لم تحرك ساكنًا ظلت الضرائب تُفرض وظل الاحتكار موجود وظل البطش على أشده بل وزاد ولم تغير تلك المنشورات إلا في نفس خادع وحده حتى إن رجاله استغربوا كثيرًا من هذا الخوف الذي اعتبروه خوفًا غير مبرر حيث إن الجيش في يدهم والمملكة تُحكم بالحديد والنار ولا صوت يعلو فوق صوت السيف وكان خشخاش يطمئنه كلما كان يجلس معه إلا أنه لم يتغير وظل الخوف قابعًا في نفسه حتى مر عام صمتت فيه تلك المنشورات تمامًا وعادت الأمور هادئة كما كانت في السابق وبعد مرور هذا العام تمالك خادع نفسه وأخذت نفسه في الهدوء وعاد تدريجيًا لعقله وصوابه.

وفي أحد الليالي كان رجلان ملثمان يتحركان في جنح الليل خفية يتوارون خلف جدران البيوت ويمشون في الممرات الضيقة متحاشين العسكر والبصاصين الذين انتشروا في الليل كانتشارهم في النهار بأوامر من جساس ومكران واستطاعا هاذان الرجلان الهروب من أعينهم وتسللوا مارين بشوارع قبيلة الرعاع القديمة حتى وصلو إلى بيت صادق القديم فصعدوا السلم وطرق أحدهم باب البيت بطرقات متفق عليها ففُتح الباب في هدوء ليدخلا كاشفان عن وجهيهما ليجدا مخلص ورفاق دربه من الشباب جالسين في البيت أمام منضدة كبيرة عليها عدة أوراق فارغة وأقلام كثيرة وقال رجل من الرجلين:
- بات الأمر صعبًا للغاية لم يعد هناك موضع قدم إلا وبه حارس أو بصاص وكادوا يروننا لولا أن الله ستر.
ورد آخر:

- كذلك وأنا قادم كاد يحدث معي الشيء نفسه لابد أن ننهي هذا الأمر فلا جدوى من ذلك كله.
فقاطعه آخر:
- ونسكت عن هذا الظلم الواقع لأمتنا!
- وماذا سنفعل حيال هذا الأمر؟ عام كامل ونحن نلصق المنشورات ونغامر بحياتنا نحث الناس على الكفر بالظلم ونخبرهم بحقيقة الظالم وأعوانه وماذا فعلوا؟ ماذا أحدثوا؟ لا شيء!
وانتبه مخلص لتلك الكلمات فأثارت غضبه:
- منذ عامين عندما اجتمعنا في هذا البيت الذي شهد اجتماعنا الأول في عهد صادق وتعاهدنا على تكملة الطريق إلى آخره وكنا نعرف أنه طريق صعب محفوف بالمخاطر ووهبنا حياتنا لأجل هؤلاء الناس ولا يصح من رجال قضوا معظم حياتهم في سجون الظالم وتعلموا معنى الحرية أن يكفروا بالأمل الآن. لابد أن نكمل الطريق ولو لم يتبقَ منا أحد على وجه الأرض فمن يمت وهو يقاتل لنيل الحرية مات حرًا ولو كان في الأغلال.
- ولكن ماذا سنفعل بعد الذي فعلنا وفي ظل هذه المراقبة الصارخة وانتشار العسكر في كل مكان.
تنهد مخلص:
- هذا سؤال مهم لابد أن نغير من طريقتنا يبدو أن الناس لا يحتاجون لمن يشير لهم نحو الظالم فأنا أعتقد أنه معروف لهم من أول يوم ولكن الناس خائفون ويحتاجون لمن يقودهم لابد من أفعال لا أقول.
- وماذا تقترح؟
- أقترح أن نفعل ما فعله صادق رحمه الله نتحرك في الطريق نفسه؛ نقتلع الظلم بأيدينا لا بألسنتنا نجهر بما نريد ولا نختبئ كالفئران.
واعترض أحدهم:
- نحن لسنا بالقوة التي تجعلنا نقف أمام جيش كامل ونحن قلة وليس معنا سلاح وخادع ذكي سيطر على كل شيء مخازن السلاح مؤمنة تأمينًا جيدًا يصعب بل ويستحيل اختراقها لم تعد هناك قبيلة لنحتمي بها ولا عائلة لنستند عليها فكيف سنفعل ما فعله صادق؟
- سنفعل ولكن بطريقة أخرى أنا لا أقصد حمل السلاح فهذا ليس قدرنا نحن، نحن قدرنا الجهر بالاعتراض، الثورة على الظلم، المطالبة بالحق وعندما سنفعل ذلك في العلن سينضم إلينا الناس لا محالة فالناس مظلومون والظلم طعمه مرير ولكنهم يحتاجون من يشجعهم يحتاجون من يقف أمام السيف بقلب جرئ يتجرأ على الخوف فتمزق جرأته خوفهم وأنا لا أرى أفضل من الذين هنا وبقيتنا الذين لم يستطيعوا الحضور ليفعلوا ذلك فليس هناك من وقف أمام الظلم كما فعلنا.

وقال شاب يدعي عماد الدين بعد أن هز رأسه.

- أنا لا أفهم كيف سيحدث ما تتحدث عنه يا مخلص فلو خرجنا غدًا ورفعنا أصواتنا وقلنا لا للظلم ونحن مائة عزل فسيخرج خادع علينا ألف رجل بسلاح ولن نستغرق في يدهم وقت طويل حتى نباد تمامًا وتنقطع صلتنا بالدنيا وحينها لن تقوم لهذه المملكة قائمة بعدها.
إن كان لابد فاعلين فلا حل إلا الثورة المسلحة، أقترح أن نخرج في الليل ونقتل من نستطيع من العسكر والبصاصين وهذه وسيلة اعتراض مشروعة وسط هذا الظلم.

وانتاب الجمع صمت مطبقٌ ونفدت جميع حيلهم ولكن مخلص ذهب ناحية النافذة ونظر إلى الشارع من خلال بصيصها وأخذ يفكر ثم سمعوه يردد (الليل) ثم التفت إليهم وعلى شفتيه ابتسامة:
- الليل، عماد الدين أشار لنقطة مهمة، الليل هو التوقيت الوحيد الذي نهزمهم فيه دائمًا حتى ولو كانوا منتشرين فيه أيضًا ولكن الليل يقذف في قلوب الظالمين رعبًا وينتابهم إحساس الخوف وأنتم رأيتم بأعينكم كيف يمشون في شوارع المملكة في النهار منفوخو الصدور وفي الليل منكمشو الأجساد يتلفتون حولهم، لقد جال بخاطري الآن فكرة ستجعلنا ننتزع من الناس تأيدهم المطلق ولو حدثت فستكون رسالة قوية لخادع ورجاله وستكون دليلًا لنا أيضًا سيجعلنا نقرر هل نكمل ما بدأناه أم نتوقف عند هذا الحد.
وأخذ مخلص بكلماته انتباه الجميع وانصرفوا إليه بتركيز شديد وتحرك هو عائدًا من النافذة وجلس وبدأ يقول:
- الآن نحن نعاني من أن ننتزع من الناس صرخة في وجه الظالم نعاني من إقناعهم بالحقائق أليس هذا صحيحًا؟
فردد بعضهم:
- نعم صحيح
فهز مخلص رأسه:
- لا ليس صحيحًا الناس يعرفون الحق ويعرفون الظالم ولكنهم يخافون أن يتفوهوا بالكلمة فتزهق أرواحهم مقابل ذلك.
وتنهد وأسند ظهره إلى الحائط:
- ماذا لو استبدلنا الكلمة بضحكة تجلجل في سكون الليل إذن؟
لم يبدُ على أحد من الجالسين أنه فهم مقصد مخلص وطال تفكيرهم حتى أكمل مخلص:
- الأصوات التي تخرج من الإنسان لها دلالات معينة تعارفنا عليها فالذي يبكي هو حزين والذي يصرخ فهو يتألم والذي يضحك فهو سعيد أما الذي يضحك لأنه لا يمتلك أن يصرخ أو يتألم فهذا شيء أخر ولأكون واضحًا ماذا لو جئت لأحدكم وقلت له إذا كنت تكره خادع فاذهب إليه واضحك في وجهه أتراه يتعرض لك بسوء؟
- لا.
- ولكن في النهاية أنت تكرهه ونحن نعلم أنك تكرهه بغض النظر عن كيفية تعبيرك
وقام عماد الدين مرة أخرى وقال:

- ماذا لو عرف هو أن الضحكة هذه معناها أنك تكرهه؟
- في تلك الأثناء لن يستطيع أن يفعل شيئًا لأننا لن نواجهه بالضحكة بل سيسمعها في سكون الليل أتية من كل أنحاء المملكة، الذي أود أن نفعله بكل بساطة هو أن نكتب منشورات ونوزعها كما نفعل نخبر فيها الناس أن من يشعر بالظلم وجور نظام الحكم يستطيع أن يعبر عن ذلك في الموعد الذي نحدده من الليل بأن يصعد على سطح بيته ويضحك بأعلى صوته، لو حدث ذلك فمن شأنه أن يشجع الناس على ما هو أكثر من ذلك في المستقبل.
وقال أحدهم:
- أخشى ألا يفهم الناس مقصدك هذا ويستهزأوا به ولا يقبلوه.
- هذا أمر وارد في الحقيقة ولكن فلتفكروا معي هذا الأمر لو نجح فسيكون بمثابة ثورة في طريقة الاعتراض في العالم كله ولا أحد يدري ربما نكون نحن أحد الأسباب التي تجعل الصامتين لأن السيف على رقابهم يضحكون حتى ينزاح عنهم الظلم.

عاد خادع إلى قصره داخل المملكة بعد أن هدأت المنشورات وشرع في إنشاء مخطط جديد للملكة يُنشئ فيها منطقة في مدخل المملكة للأعيان والوزراء وذوي الشأن الرفيع ثم بعد ذلك يجمع باقي الشعب في منطقة منفصلة ورفع أسعار البضائع لثلاثة أضعافها حتى يستطيع تنفيذ مخططه وبدأ التنفيذ، تحرك العمال نحو بوابة المملكة العملاقة وشرعوا في تحديد الأرض من بعضها وزرعوها بالورود والأشجار والرياحين العطرة وأنشأوا تمثالًا لخادع حوله نافورة ماء ضخمة وأنشاوا طريقًا ينعرج يمينًا ناحية منطقة الأعيان ومنطقة قصر الحكم وبيوت الوزراء وينعرج يسارًا ناحية منطقة وضع على أولها لافته من الحديد وكتب عليها (الرعاع) وعين عليها حرسًا كثيرًا يمسكون بحرابهم ويقفون في واجهة الطريق يمنعون الناس في منطقة الرعاع من المرور لمنطقة الأعيان الجديدة وانتهى العمل في هذه المنطقة في غضون أيام واطمأن خادع لهذا الأمر حيث سيمنع ذلك من دخول الرعاع إلى منطقة الأعيان ويستطيع هو مقابلة ضيوفه من خارج المملكة والتجار الكبار في أمان تام.
وفي صباح أحد الأيام هرع الناس ناحية تماثيل خادع الأربعة المنتشرة في المملكة ليجدوا أنها قد تكسرت وانغرس أمام كل تمثال منها لافته مصنوعة من الخشب كتب عليها بخط واضح (إذا كنت تكره الظلم والظالمين فاصعد إلى سطح بيتك الليلة بعد منتصف الليل واضحك بأعلى صوتك)
وتناول الناس أوراقًا منتشرة في شوارع المملكة كتب عليها الكلام نفسه ودار النقاش بين الناس وبعضهم ضحك من الفكرة وراقت له وآخرون صدمتهم الكلمات وظنوا أن الأبطال الذين كانوا في خيالهم والذين يتحدون الملك الظالم ما هم إلا حفنة من المهرجين وانقسم الناس إلا في أمر واحد وهو ترقبهم لمنتصف الليل لرغبتهم في معرفة ماذا سيحدث؟

وكان خادع في تلك الأثناء في جولة مع بعض التجار الأجانب في منطقة الأعيان التي تعلو عن الأرض ويستطيع أن يشير من عندها نحو المساحات الخضراء الشاسعة في منطقة الرعاع وكان يتحدث عن كمية المحاصيل التي تنتجها تلك الأراضي وحجم التجارة التي من الممكن أن تتم بين المملكة وتجار العالم وفي أثناء انشغاله ظهر جساس بجانبه وهمس في أذنه فنظر له خادع بعينين حائرتين ثم ترك التجار لخشخاش وذهب هو وجساس ومكران ناحية القصر وأمام القصر وقفوا وأعطاه جساس الورقة دون أن ينبس وقرأها خادع وانتظر مكران وجساس ردة فعله المعتاده ولكنه فاجأهما أن ضحك بشدة وظل يضحك حتى سعل ولما هدأ سعاله قال:
- يبدو أننا قدرنا هؤلاء المتمردين فوق قدرهم إنهم مهرجون لا داعى للقلق من هذا الأمر.
وناول جساس الورقة وذهب نحو التجار مرة أخرى ونظر جساس ومكران لبعضهما ومطّا شفتيهما وغادرا مبتسمين.
واستمرت جولة خادع والتجار إلى أن غابت الشمس واحتفى بهم خادع أيما احتفاء وصنع لهم الولائم وسهروا جميعًا في حفل أقامه خادع إلى منتصف الليل في قصره ولما فرغوا كان الخمر قد لعب برأسه فصعد بمفرده نحو سطح القصر الشاهق ونظر في صمت ناحية منطقة الرعاع وتأملها وأخذ يحدث نفسه بصوت عال:
- أيها الرعاع يا حشرات الأرض تريدون أن تهدموا هذا الصرح الذي بنيته وهذا النظام المُحكم الذي أنشأته بأن تضحكوا! سحقًا لكم ستظلون أبقارًا أحلبها متى شئت وكيفما شئت.
ثم خانته قدمه فوقع على الأرض ونام على ظهره ناظرًا للنجوم وطال صمته وهو ينظر للسماء وغابت عيناه للحظات فنام وحلم الحلم السابق نفسه، صادق يضع قدمه على صدره ويغرز خنجره في قلبه فاستيقظ وهو يشهق وقد تسلل إلى مسامعه ضحكات قادمة من أرجاء المملكة وبرغم أنها ضحكات إلا أنها بثت رعبًا في قلبه لم يفهمه وتسلل البرد إلى جسده وبدأ يرتعش وتحامل على نفسه ووقف ينظر ناحية منطقة الرعاع ليظهر الصوت أكثر قوة مما كان وهو نائم وظل يستمع لضحكاتهم لساعة كاملة فهزت جنبات نفسه هزًا ونزل إلى جانب حسناء وما لبس أن غطّ في النوم.
وفي صباح اليوم التالي جلس على عرشه وحوله جساس وخشخاش ومكران وبعض رجاله الآخرين وتوجه بالحديث لجساس:
- هل عرفت من وراء فكرة الضحك هذه.
بتلعثم قال جساس:
- لا يامولاي أنت قلت ألا نعتد بهم.
- نعم أتذكر ذلك ولكني غيرت رأيي من اليوم انشر رجالك وأتيني بالخبر اليقين.
- أمرك يا مولاي.
- وأنت يا مكران أين رجال السياط وأين عسكرك أريد أن تبث في قلوبهم الرعب هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى.
فقاطعه خشخاش قبل أن يكمل:

- ولكن يا مولاي لا داعي لإثارتهم هذه الأيام فالتجار يأتون للملكة كثيرًا ولا داعي لأن يروا ما لايحبذ أن يرى فعسى أن يقول أحدهم أن المملكة غير مستقرة أو بها تمرد.
وتفكر خادع في كلام خشخاش وأردف:
- حسنا لا داعي لاستخدام القوة هذه الأيام يا مكران ولكن المعلومات أريد معلومات عن هؤلاء المتمردين.

وفي الليلة التالية ومن سريره تسلل إلى مسامع خادع ضحكات تأتي من بعيد فانتبه إليها واستيقظت حسناء من جانبه وفركت عينيها وتساءلت:
- ما هذا الذي يحدث يا خادع؟
فقال وكأنه لم يسمعها:
- إنه أكثر وضوحًا من أمس هل زاد عددهم؟
- أنا لا أفهم شيئًا ما هذا ومن الذي زاد عددهم؟
فقام خادع من سريره وذهب للشرفة وخرج في الهواء الطلق يستمع إلى الضحكات وتبعته حسناء وصمتا قليلًا حتى سألته حسناء ضاحكة:
- علام يضحك هؤلاء المجانين في هذه الساعة من الليل؟
- أتسمعينه ضحكًا؟
مستغربة من بداهة السؤال:
- نعم فهذا واضح ولا شك فيه.
نظر لها بعينين مغرورقتين بالدموع:
- أما أنا أسمعه صراخًا ولابد أن ينتهي.

وفي الصباح طلب خادع الشيخ فضيلة فمثل أمامه:

- أفهمت يا شيخ فضيلة؟
- في الحقيقة يا مولاي لا، كيف أحرم الضحك؟ هذا أمر بدهي عند الناس لن يصدقوا حرفًا مما سأقول.
- حرمه كما حرمت التفاح يا رجل.
- ولكن يا مولاي أنا أستطيع أن أخدعهم وأكل التفاح في بيتي ولكن كيف أستطيع أن أكتم الضحك لن أفلح في ذلك وسأفقد مصداقيتي وربما وأنا أحدثهم عن حرمة الضحك أضحك.
فضحك خادع ضحكة طويلة:
- مصداقيتك؟؟ يا رجل تحايل كما تفعل كل مرة اذهب الآن وفكر في الأمر وغدًا أريدك أن تخطب فيهم وتحرم الضحك أو على الأقل تحرمه ليلًا.

ذهب الشيخ فضيلة حائرًا فلأول مرة منذ أن عمل مع خادع يعجز عقله عن إيجاد حل لهذا الأمر وكان يعلم أنه يستطيع أن يتحدث في أن الدين يحرم كثرة الضحك ولكن كيف يخبر الناس أن الدين يحرم الضحك كله وأخذ يفكر طوال الليل في هذا الأمر ولم ينم حتى انتصف الليل ولما أوى إلى فراشه سمع أصوات الضحك تنطلق في المملكة فذهب النوم عنه ولم يدر في ذهنه حل للمعضلة التي وضعه خادع فيها
وفي الصباح ذهب في جمع من البصاصين والحرس إلى سوق قبيلة الرعاع القديم وجمع الناس لحضوره والتفوا حوله كما يفعلون عادة وطال انتظارهم وهو واقف يفكر في الأمر ولأول مرة عجز الشيخ فضيلة عن الكلام وضج الجمع بأحاديث جانبية ونكزه أحد الحرس فانتبه وقال:
- أيها الناس، أيها الناس لاشك أن الضحك هو مصدرلإلهائكم عن العمل وكما تعلمون فإن العمل عبادة والانشغال عن العبادة بأي شيء يجعل هذا الشيء حرامًا وأنا من موقعي هذا كأعلم الناس بالدين أخبركم بما طابت له نفسي واستراحت وبعد الاطلاع على الكتب الدينية والأحاديث النبوية التي بين يدي تبين لي أن الإفراط في الضحك حرام وكل ما يُلهي عن العمل والعبادة حرام هذا والله أعلم.
وضج الجمع من حوله وازداد صياح الناس بأشياء غير مفهومة وكان بين الجمع راضي فاقترب من الشيخ فضيلة وقال بصوت يسمعه كل الناس:
- يا شيخ فضيلة إن زوجتي لا تغلق فمها على الإطلاق طوال أكثر من عشرين عامًا وهي مبتسمة فهل يحق لي بعد فتواك هذه قتلها؟
فانفجر الناس يضحكون وحاول الشيخ فضيلة كتم ضحكته ولكنه فشل وانفجر يضحك كما لم يضحك من قبل ولما تبينه الناس صمتوا وتوقفوا عن الضحك ولكنه لم يستطع أن يتوقف وأصبح هو الوحيد الذي يضحك ولما انتبه إلى أن الناس قد صمتوا اختفت ضحكته تدريجيًا وهو يتأمل الناس من حوله الذين أصابهم الذهول ولم يرفعوا عيونهم من عليه ثم غادر جمعهم وقد فشلت مساعيه.

ولم يكن للملكة كلام إلا عن الضحك الذي يهز المملكة ليلًا وكان الناس ينتظرون منتصف الليل كل ليلة كأنهم ينتظرون الحاوي الذي يتجمع الناس من حوله حين يدخل إلى الساحات حتى الأطفال والنساء وتجرأ الناس على هذا الأمر وأصبح يشكل أملًا في غد أفضل برغم أنه لا يُفهم أي أمل سيأتي من الضحك في منتصف الليل وارتبك خادع وازداد خوفه وأمر مكران فانتشر عسكره بكثافة حول بيوت المملكة بعد منتصف الليل وكان لا يكاد يخلو بيت من رجل يصعد فوق سطحه ليضحك وجعل الناس من هذا الأمر تسليتهم فكانوا يتواعدون ويتقابلون على سطح أحدهم ويضحكون طوال الليل وفي بعض الأحيان كان ينقلب هذا الضحك المتصنع لضحك من القلب وظهر على الناس فرحًا وشجاعة لم تكن فيهم واحتار خادع ورجاله فيما يفعلون وأمر مكران بعض جنوده فاختاروا بعض بيوت القبيلة وحين انتصف الليل وبدأ تسلسل الضحك كالمعتاد انتُهكت حرمة هذه البيوت وقبض العسكر على من كان يعتلي أسطح هذه البيوت ويضحك ولما مثلوا في دار الشرطة سأل أحدهم ما التهمة الموجهة إليهم وماذا فعلوا ليُقبض عليهم واحتار رجال الشرطة فيما يقولون للناس

وانتشر بين الناس أن خادع يقبض على الناس دون توجيه تهمة واضمحلت شعبيته وكرهه عامة الناس ولما أخبره جساس عما أُخبر به من قِبل البصاصين أمر بالإفراج عنهم فازداد الناس شجاعة ولم يكد يخلو بيت من البيوت من رجل فوق السطح يضحك للسماء الصافية والنجوم المتراصة حتى جاء يوم وأعلن فيه مخلص ورفاقه عن عزمهم الخروج في النهار والضحك حتى يصلوا إلى قصر الحكم تعبيرًا عن اعتراضهم عما يُفعل بهم وفهم الناس أن الضحك في تلك الحالة ما هو إلا وسيلة اعتراض مختلفة يعجز عن دحضها الظالمون فمن يستطع أن يمنع الناس من الضحك وأصبح الضحك هو وسيلة الاعتراض التي يفعلها الناس في وجه الظلم.

ولما حان وقت جمع الضرائب كانت المملكة كلها تضحك وبشدة وكان العسكر عاجزين عن الرد على ما يحدث فكان أحدهم يريد أن يأخذ أموال رجل عنوة لتحصيل الضرائب فيضحك في وجهه ويلحق به الناس يضحكون حتى يخرج العسكر من بيته دون تحصيل شيء وعاد الجباة إلى ديوان الضرائب خوالي الوفاض وأُبلغ خادع بهذا الأمر فكاد يجن ولا يزال عاجزًا عن فعل شيء ولما كان يوم تجمع الناس مع مخلص خرج معه ألوف البشر ممسكين بيد بعضهم يجوبون شوارع المملكة يضحكون وخافهم العسكر والبصاصون فانسحبوا من أمامهم ولكن مكران لما أُبلغ بالأمر نهر قواده وأمرهم بالانتشار مرة أخرى حتى لا ينفلت الأمر منهم وغادر خادع المملكة مرة أخرى لقصره في الخارج وكان اجتماع مكران وخشاش في قصر خادع في إحدى الليالي اجتماعًا حاسمًا حيث قرر خادع في هذا الاجتماع تجريم الضحك وخاضوا شوطًا في النقاش في هذا الأمر وتبنى خشخاش وجهة النظر التي تقول باستحالة حدوث ذلك فكيف سيستطيعون إسكات الناس ومنعهم من الضحك وقال مكران إنه لابد من قتل رؤوس هذا التنظيم لدحضه ولكن فشل ديوان البصاصين في معرفة من وراء هذا الأمر بالتحديد جعل هذه الفكرة غير ممكنه إلا لو انتوى خادع قتل الشعب بأكمله لذلك قرر خادع تطبيق حظر التجول لمدة ثلاثة أيام وانتشر المنادون في المملكة يحذرون الناس من الخروج من منازلهم ليلًا أو نهارًا لمدة ثلاثة أيام لأن المملكة معرضة لغزو من مملكة قريبة والجيش يتأهب لمواجهته فانصاع الناس للقرار ولزموا بيوتهم وفي تلك الأثناء نشر مكران مع الحرس وعسكر الشرطة الجيش كله في أرجاء منطقة الرعاع بكامل سلاحهم وهب المنادون يخبرون الناس في آخر أيام حظر التجول المرسوم الملكي بالقانون الجديد والذي أصدره خادع بحظر الضحك تمامًا في المملكة ونص القانون على أن من تبدو منه ضحكة أو ابتسامة يُعرض نفسه للقتل بسيف السياف ولم يصدق الناس هذا القانون الغريب واعتبروه إفلاسًا من القائمين على الحكم ولكن ما حسم الأمر أن الناس حينما صعدوا لأسطح بيوتهم في ليلة إصدار القانون نفسها وبدأوا في الضحك كالمعتاد اختلط الضحك بأصوات صراخ تأتي من أسطح بعض المنازل أسكتت صوت الضحك وامتلأ ليل المملكة بأصوات الصراخ الذي حدث لأن رجال الملك صعدوا لعدة بيوت وكل من كان يضحك عليها قُتل في الحال ولما أشرقت الشمس وخرج الناس إلى أشغالهم وجدوا في ساحة السوق جثثًا ممزقة الأشلاء لرجال كانوا يضحكون على أسطح منازلهم وقتلوا بعد أن طُبق قانون منع الضحك.

13

تغيرت أحوال الناس إلى الغرابة ولم يفهموا لوقت طويل ما الذي يجب أن يحدث وكان الناس وبرغم ما رأوه من قتل للذين يضحكون إلا أنهم لم يستطيعوا كتم ضحكاتهم التي اعتادوا عليها لعشرات السنوات وبالفطرة ربما لآلاف السنوات، وكان في معاملاتهم العادية وجلساتهم مع بعضهم في الحانات أو في الشوارع يتحدثون وينسون أنفسهم فيضحكون ولربما صادفهم أحد البصاصين أو العسكر المنتشرين في الشوارع فيقبضوا عليهم ويتعرضون للقتل ولو مرت الأمور بسلام فإن تذكرهم لذلك كفيل بتحويل يومهم إلى جحيم فكل واحد منهم يفكر في أولاده وعائلته وماذا سيفعلون من غيره؟ وكان الذي يضحك أو تبدو منه ابتسامة يجر من قدمه أمام الناس ويأخذ على سجن المملكة وفي اليوم التالي كان الناس يتجمعون في حلقة في إحدى ساحات المملكة ويشاهدون السياف وهو يطيح برأسه وينفض الجمع وكأن شيئًا لم يحدث وظل هذا الأمر يتكرر لوقت طويل فالناس يضحكون من غير حول منهم ولا قوة وكان الأمر أشد صعوبة على هؤلاء الرجال الذين يحبون الضحك في الأصل ويضحكون كثيرًا لأن من طبائعهم خفة الدم وحب الضحك ومناغشة الآخرين وكان من أبرز هؤلاء هو راضي وكان قاسم يعاني أشد المعاناة عندما يأتي له راضي ويجلسان في دكان خادع وكان قاسم يمسك فمه من أن تنطلق منه ضحكة بسبب حديث راضي فيفقد رقبته جراء ذلك.

وفي أحد الأيام جاء راضي لقاسم في الدكان كعادته وجلس على كرسيه المعتاد ولم يمنعه أحد لأنهم تعودوا على زياراته المتكررة في الدكان وأصاب ذلك قاسم بخوف شديد إلا أن وجه راضي الكئيب الذي حضر به طمأن قاسم قليلًا وبعد سؤاله عن أحواله قال قاسم:

- أراك قد جئت بوجه يملأه الحزن. أحدث شيء ما؟

فنظر له راضي باستغراب:

- ألا ترى ما نحن فيه إن هذا الذي يفعله خادع ما هو إلا محض مزاح.. أي ضحك هذا الذي يريد أن يمنعه ويعاقب من يضحك؟ بالقتل وما التالي من وجهة نظره منع التنفس أم منع الماء والطعام؟

- لقد منع الطعام بالفعل عن أغلب الناس ولكن الناس يستحقون ما يُفعل بهم فهم صامتون.
- كلنا صامتون أنت أيضًا صمت يا قاسم فلا تلم الناس وتترك نفسك.
- أنا لم أتأثر بقرارته كما تأثروا ولم يصبني منها سوء وأكيف نفسي مع ما يحدث وأصفق بهدوء لمن معه مفاتيح لقمة العيش وهذا ما يجعلني مطمئن.
- بل أنت صديقه ويجب أن تنصحه.
- أنصحه بماذا؟
- أن يترك للناس الضحك فهذا ما تبقى لهم في هذه الحياة الكئيبة التي يحيونها
- ومتى كنت مهتمًا بالناس يا راضي وما هذا التغير المفاجئ؟
نظر راضي حوله واقترب من قاسم وقد اغرورقت عيناه بالدموع:
- كفرت بالظلم وبالجبن يا قاسم كيف نحيا حياة كهذه؟ كيف يُتحكم فينا هكذا ونوافق على نقتل ونمزق إربًا ونصفق للقتلة نتوارى خلف عباءة الخوف والجبن وتنتهي حياتنا في كلتا الحالتين سواء أكنا جبناء أم كنا شجعان ويموت أحدنا على فراشه في عمر الثلاثين وهو أجبن خلق الله ويموت أشجعنا في الثمانين. إنها مقادير وأعمار فلماذا إذن الجبن والهوان؟
- إن كلامك خطير يا راضي وصعب ولكنه صحيح، ولكن اذهب لكل هؤلاء القوم واقنعهم بما قلت وعندها سأكون أنا في مقدمة صفوفكم فالشجاعة لا تنفع من فرد واحد سيُقتل بكل بساطة أما إذا اتَّحد الشجعان فلن يقف أمامهم طاغية وسيسقط الظلم حين يراهم مجتمعين لدحضه، حتى أعوان الظالم يتركونه خوفًا حين يجتمع الناس معًا
أما خلاف ذلك فإن شجاعتك لن تفعل شيئًا غير تيتيم عيالك وترميل زوجتك.

وقبل أن يتحدث راضي سُمع صوت صرخات في ساحة السوق لشاب في الخامسة والعشرين من عمره يُجر على الأرض بقسوة ويصرخ وتخرج منه بعض كلمات (لم أقصد أن أفعل، كانت ابتسامة وليست ضحكة) زلزلت تلك الكلمات نفس راضي فهم منطلقًا ناحية الساحة ولما رآه قاسم هكذا تبعه في عجل ووقف بجانبه وقد تشكلت الحلقة المعتادة ولا يزال الشاب يصرخ ويبكي ويتكلم وقاسم عند أذن راضي:
- أرجوك لا تفعل يا صديقي أرجوك الشجاعة دون حساب كارثة فلتفكر في أمر آخر.

ولكن راضي كان مصرًا على أمر ما واستجمع شجاعته كلها وظل يقول في نفسه ما بالك يارجل أتريد أن تنتهي حياتك وأنت في هذا الجبن بئس الرجل أنت لو فعلت.
ورفع أحد الحراس ورقة وبدأ يقرأ ما فيها:
- باسم خادع ملك البلاد ونظرًا لأن المدعو عاصم نورية قد أخل بقانون الضحك والذي يستوجب لمن خالفه القتل بفصل الرقبة عن الجسد فإن ديوان القضاء الأعلى قد قرر تطبيق القانون على المدعو عاصم نورية.

وانتهى وطوى الورقة وتقدم حارسان فأجلسا الشاب على ركبتيه وتقدم السياف إلى الأمام خطوة وظل راضي يخاطب نفسه ويحثها على فعل شيء ما وكان ما تبقي من ظل الجبن الذي لازمه طوال أيام حياته قد بدأ يقاومه وكان قاسم عند أذنه.
- هيا نذهب من هنا يا راضي سوف أعطيك بعض الطعام لك ولزوجتك وعيالك لا تُقدم على فعل تندم عليه
ورفع السياف سيفه في الهواء وظل السيف معلقًا في الهواء منتظرًا إشارة كبير الحرس ونظر راضي لعيني عاصم نورية واقترب منه وقال بصوت سمعه الجميع
- اضحك يا عاصم.
فانتبه له عاصم وانتبه له الناس بدورهم..
- إن كنت ستذهب عن دنيانا الآن فاضحك فإن لك ضحكة مجانية دون عقاب اضحك قبل أن تذهب.
وتأمله عصام وبعينين تملأهما الدموع ابتسم عاصم له ثم تبدلت ابتسامته لضحكة مجلجلة وما زالت الدموع حول عينيه وانتبه الحرس لراضي فأبعدوه ثم قبضوا عليه وضج الجمع من حول عاصم يهتفون: (اضحك يا عاصم)
وظل عاصم يضحك حتى أشار كبير الحرس للسياف فنزل السيف على رقبته وأزهق روحه.
وظل قاسم يحاول أن يثني كبير الحرس عن قراره بالقبض على راضي ولكنه رفض رفضًا قاطعا وأخذه إلى سجن المملكة وتحرك قاسم في خوف ولهفة ناحية عربته وقادها نحو قصر الملك ولكن عند انتهاء منطقة الرعاع أوقفه العسكر ورفضوا دخوله ولمح هو مكران من بعيد فنادى عليه ولما قدم مكران أخبره قاسم أنه يريد أن يقابل الملك لأمر ضروري ولكن مكران استهزأ به ورفض أن يسمح له بمقابلته وأخذ قاسم يترجاه ثم يتملقه في بعض الأحيان حتى أخبره أن الملك ليس في هذا القصر بل هو في القصر الذي خارج المملكة فأخبره قاسم أن يبلغه أنه يرغب في مقابلته لأمر ضروري وقال له أنه بمجرد إخباره أن قاسم يريد مقابلته فلن يتردد الملك في الموافقة وعاد قاسم إلى الدكان وكانت الشمس أوشكت على أن تغيب فرجع لبيته مهمومًا وبعد أن أقبل الليل وأنزل ستائره على المملكة تملكة الحزن الشديد على ضياع راضي صديقه الوحيد فقام وأخذ عربته وذهب ناحية بيت مخلص وكان قاسم يرتاح عندما يطمئن على أخيه وربط حماره خارج البيت وترجل نحو الباب وأخذ يضرب على الباب ضربات قوية وهو يقول:
- افتح يا أخي مر أكثر من عشر سنوات على قطيعتك لي ألم يأنِ لك أن تفتح قلبك لي وأن أفتح ذراعي وآخذك في حضني أنسيت يا مخلص أنا لست أخاك إنما أنا أبوك الذي رباك، الذي أضاع عمره لأجلك.
وفي تلك اللحظات كان مخلص قد اقترب من الباب وألصق نفسه به وأخذ يبكي بشدة وهو يسمع كلمات أخيه ثم قال كلمات مخنوقة بالعبرات:
- اذهب يا أخي اذهب لبيتك فأنا لا أستطيع أن أخون نفسي وأعود لك فأنت مالك حرام وطريقتك حرام وحياتك خيانة وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك لا أستطيع.

واخترقت تلك الكلمات قلب قاسم فكاد أن ينفجر صارخًا ولكنه تحامل على نفسه وهو لا يزال واقفًا حتى غادر متجهًا نحو بيته.

وفي اليوم التالي لم يكن هناك حديث للناس غير الذي فعله راضي ولم يكن يتوقع أحد منه كل تلك الشجاعة وكذب بعضهم الذين حضروا وأخبروهم أن راضي فعل هذا الأمر، فالأمر غير قابل للتصديق حقًا وعندما انتصف النهار أرسل خادع في طلب قاسم وكان قد أرسل له كعادته عربة فارهة يجرها أربعة خيول ولكن قاسم رفض أن يركب وصار بعربته وحماره خلف العربة الفارهة ولما أقبلوا على منطقة الأعيان انعرجت العربة الفارهة إلى طريق البوابة الرئيسية وتبعها قاسم بعربته وتوقفت العربة أمام البوابة ونزل منها أحد الحراس وأخرج أوراقًا مختومة وسلمها لحارس البوابة فطالعها وسلمها له مرة أخرى ثم أشار له نحو عربة قاسم ورآهما قاسم وهم يتحدثون وينظرون له ثم أمر الحارس ففُتحت البوابة الضخمة أمام عيني قاسم وأشار له قائد العربة الفارهة أن يتبعه وغادرا المملكة وأخذ قاسم يتأمل سور المملكة العظيم من الخارج وانبهر بعلوه وكان ولأول مرة يقترب من السور إلى هذا الحد وأول مرة يراه من الخارج منذ تم بناؤه ومشوا في الصحراء لوقت طويل حتى ظهر مشارف القصر من بعيد وهو قصر مهيب زين بأشجار وورد وزرع كل مكان حوله وترجل قاسم من عربته نحو القصر وفتح باب القصر قبل أن يصل قاسم إلى ناحيته ودخل إلى صالة القصر الواسعة وأجلسه خادم في حُلة باهرة وبعد لحظات جاءه بطبق كبير من التفاح ووضعه أمامه ولم يكن قاسم قد ذاق التفاح منذ زمن فتناول واحدة بيده وقضمها وهو لا يزال ينظر حوله ويتأمل فراش القصر والزينة المعلقة في كل مكان وبعد لحظات أقبل خادع في زينته والابتسامة تعلو شفتيه وسلم على قاسم بحرارة وبوجه مرح وكان يظهر عليه أنه غير مصدق أن قاسم أمامه وكما هو معتاد فإن قاسم يذكّر خادع بطفولته وهو يحب دائمًا أن يراه وكان يرسل في طلبه كل فترة ويجلس معه يتسامرون طويلًا ولكنه لم يفعل منذ أن حدثت الأحداث الأخيرة في المملكة ولم يطلب قاسم مقابلته أبدًا قبل ذلك اليوم ولكن قاسم قابل خادع بوجه عبوس ولم يبادله الابتسامة ولما لاحظ ذلك خادع تبدلت ملامحه وسأله في جدية:

- أهناك خطب ما يا قاسم؟

- لا شيء يا مولاي ولكنك نسيت نحن (الرعاع) غير مسموح لنا بالضحك أو الابتسام وقد دربت نفسي جيدًا على ذلك.

وانفجر خادع ضاحكًا وظل يضحك طويلًا حتى مد يده وأخذ تفاحة وقضمها وقال بفم مُلئ بقطع التفاح.

- كل شيء مباح هنا يا قاسم فنحن لسنا في أرض الرعاع ولسنا في المملكة كلها فخذ راحتك واضحك كما شئت.

ولكن قاسم لم يضحك وأردف:

- لقد اعتدت الأمر وأصبح من الصعب أن أضحك الآن سأحتاج وقتًا طويل لكي أفعل ذلك مرة أخرى.

فأومأ خادع برأسه وانتظر أن يتحدث قاسم ولم يطل انتظاره:

- لقد جئتك في رجاء أرجو أن تتنازل وتنفذه لأجلي.
واعتدل خادع في جلسته وظهرت عليه ملامح الجدية:
- سل يا قاسم ما تريد فأنت عندي ذو مكانة كبيرة ولن أخذلك أبدًا.
- رجالك في سوق قبيلتنا أمس قبضوا على راضي وأودعوه سجن المملكة فأرجو أن تخلصه قبل أن يمسوه بسوء.
- وماذا فعل راضي لكي يقبض عليه هل ضحك؟ أنت تعلم أنه لو فعل فلن أستطيع أن أفعل له شيء حتى لا أخل بالقانون الذي وضعت.
- لا اطمئن لم يضحك بل قال لرجل محكوم عليه بالموت إنه إن كان لابد ميتًا فليضحك آخر ضحكاته قبل أن يموت.
- تقصد إنه يحرض الناس على الضحك
- بل حرض الأموات على الضحك فالرجل كان تحت ظل السيف وقتل بعدها مباشرة، وأنا أعدك أن أبعده عن هذا الأمر إلى الأبد.
ونظر خادع لقاسم وسرعان ما دخل في نوبة من الضحك انتهت وهو يقول:
- أنا لا أستطيع أن أصدق أن راضي أجبن خلق الله فعل ذلك إنه أمر يثير إعجابي حقًا.
- الناس تتغير والأحداث التي نراها كل يوم كفيلة بذلك.
- اطمئن سوف أرسل ليُفرج عنه اليوم قبل أن يُقتل ولكن حذره أن يعود لمثل هذا الأمر مرة أخرى.
- أمرك يا مولاي.
ووقف قاسم عازمًا على الخروج واستأذن بالفعل من خادع فأذن له ومشي بضع خطوات ناحية المخرج ولكنه توقف وعاد وأخذ ينظر لخادع ولم ينبس فتأمله خادع قبل أن يقول:
- أهناك خطب آخر يا قاسم؟
وتلعثم قاسم ونظر حوله ثم قال كلامًا غير الذي كان ينتويه:
- هل لي بطبق التفاح هذا؟
فانفجر خادع ضاحكًا وأشار له أن يأخذه دون أن يتحدث وطفق قاسم يعبئ التفاح في حجر جلبابه وضم جلبابه عليه واقفًا ثم غادر.

ورجع قاسم بعربته إلى المملكة وفي الطريق حدثته نفسه أن يغادر وظل واقفًا أمام البوابة تتملكه الحيرة وهو يقول في نفسه هذه فرصتك اهرب من هذا الجحيم إلى بلاد بعيدة وعش كما يعيش الناس ولكنه عدل عن هذه الفكرة حينما تذكر مخلص والحب الذي في قلبه تجاهه والذي يحتم عليه أن يظل بجانبه إلى النهاية وتذكر قسوة مخلص عليه ومقاطعته إياه لسنوات طويلة فنزلت دمعاته فمسحها ونزل من عربته أمام حارسي البوابة من الخارج وطلب منهما الدخول فرفضا في البداية إلا أن أحد الحراس القادمين من قصر خادع أدخله وقبل أن يصل قاسم إلى الدكان كان راضي في بيته

عندما أقبل الليل كان قاسم فوق عربته متجهًا لبيت راضي ليطمئن عليه ولكنه عندما اقترب من البيت وجد راضي يقف أمام بيته في الظلام ويحدث رجلين فتوقف قاسم من بعيد ولم يقترب حتى يرحلا وفجأة ظهر رجل ثالث كان مختبأً خلف جدار البيت وضرب راضي على رأسه ضربة ففقد وعيه وحملاه نحو الظلام ولما كاد قاسم أن يصرخ لمح عماد الدين صديق مخلص في الرجال الثلاثة لذا نزل عن عربته وتبعهم كانوا وهم يسيرون يختبئون في الأزقة الضيقة من عيون البصاصين والعسكر حتى اقتربوا من زقاق قديم في المكان المهجور من القبيلة أيام الملك الأول وأوقفوا راضي وكان قد استرد جزءًا من وعيه ووقف عماد الدين في مكان ما في آخر الزقاق وضرب بقدمه ثلاثة ضربات على حجر وُضع على الأرض وانتظر قليلًا قبل أن يُفتح باب من الأرض خرج منه بصيصٌ من نور وحمل الرجلان راضي وأدخلاه وتبعهم عماد الدين بعد أن نظر جيدًا لكي يتأكد أن أحدًا لم يرهم ولم يكن يعلم أن قاسم قد شاهد كل شيئًا من خلف جدار أحد البيوت القديمة وانتظر قاسم قليلًا حتى هدأ وأخذ نفسًا عميقًا من الهواء وتسلل ناحية الباب ووقف فوقه فلم يتبين شيئًا فنزل على ركبتيه وحاول أن يسمع ما يحدث ولكن لم يتسلل إلى أذنه شيء غير ضحك مستمر وتفحص الباب في هدوء فوجد مسمارًا معلقًا حاول انتزاعه ولما استطاع ذلك انفرج من مكان المسمار نقطة ضوء آتية من الداخل فوضع قاسم عينه فيها وتأمل فوجد رجال كثر يتوسطهم راضي الذي كان يضحك في شيء من الجنون ورأى أخاه مخلص جالس في ركن من أركان المكان يبتسم في هدوء واستمر قاسم يراقبهم لبعض الوقت حتى سمع صوت وقع أقدام وحديث فوضع المسمار كما كان في سرعة وانطلق من شارع غير الذي جاء منه مغادرًا المكان.

ومن أمام بيت راضي كان قاسم جالسًا على عربته يأكل تفاحة وينتظر قدوم راضي الذي تأخر وقد أوشك الفجر أن يبزغ ورآه قاسم قادمًا من بعيد وكان مبتسمًا فرمقه بخوف وأقبل نحوه فلم يتبينه راضي لذا أدبر في فرار فناداه قاسم فعرف صوته ورجع نحوه وهو يقول:

- لقد كدت تخلع قلبي يارجل ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

فلم يعر لسؤاله أهمية وأردف قاسم:

- لقد أنقذتك اليوم من سيف السياف بأعجوبة ولكنك وبهذه الابتسامة التي كانت مرسومة على وجهك منذ قليل ستكون صيدًا سهلًا لأحد البصاصين ولن أستطيع حينها أن أفعل لك أي شيء.

- حقًا أكنت مبتسمًا؟

- يا لك من أخرق ألا تدر بنفسك؟

وتلعثم راضي وهو ينظر خلف قاسم ويقول له:

- خلفك أحد البصاصين كن طبيعيًا.

ومر بجانبهما البصاص وهو يرمقهما في حدة ولما تخطاهما التفت نحوهما في خبث ورأه قاسم وهو يختبئ خلف أحد الجدران لكي يتصنت عليهما فأومأ لراضي ورحلا نحو بيت راضي وكان كل من في البيت قد ناموا وجلس قاسم وراضي على كنبة في منتصف صالة البيت وبادره قاسم:
- أين كنت في هذه الساعة المتأخرة يا راضي؟
وتلعثم راضي مرة أخرى وقال محاولًا أن يغير الموضوع ولكن بسذاجة واضحة:
- وكيف أنقذتني اليوم يا قاسم هل دفعت رشوة لقائد الحرس؟
- بل أكثر من ذلك بقليل لقد أخرجتك وأخذت مقابل ذلك طبق من التفاح الأحمر اللذيذ وأخرج من بين طيات ملابسه تفاحة وناولها لراضي فأخذها راضي وقربها من عينيه وهو يقول:
- يااااه لم أرك منذ زمن يا صديقي أين كنت طوال هذه الفترة أوحشتني وايم الله.
فتأمله قاسم وقال باستغراب:
- لقد كنت معي أمس يا رجل ماذا تقول؟
- أنا لا أخاطبك أنت بل أخاطب التفاح.
فضحك قاسم ثم تذكر فوضع يده على فمه ولما رآه راضي هكذا اقترب منه وهمس
- أتريد أن تضحك كما يحلو لك ولا أحد من البصاصين أو العسكر يستطيع أن يراك؟
فتأمله قاسم وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:
- وأين أستطيع أن أفعل ذلك؟
فاقترب راضي أكثر وهمس بصوت أضعف من سابقه.
- حانة الضاحكين.
- من؟
- حانة الضاحكين أتذكر الشباب الذين كانوا مع صادق رحمه الله؟
- نعم أذكرهم جيدًا.
- لقد أنشأوا حانة في مكان ما لا أعرفه يضحكون فيها كما يشاءون ولا أحد يدري عنهم شيئًا فقط ادعُ الله أن تتلقى ضربة على رأسك وستكون هناك بعدها عندما تفيق.
- وماذا حدث هناك غير الضحك؟
- لاشيء فقط يضحكون ولكنك لو وضعتك الظروف وأصبحت هناك في وقت ما فأتحداك أن تستطيع أن تكتم ضحكاتك فالضحك يثير الضحك كما تعلم والناس جوعى ضحك وما أن ترى أحدهم يضحك حتى تنهمر ضحكاتك دون توقف، وهذا ما حدث معي الليلة عندما فتحت عيني هناك كنت خائفًا في البداية وكان يدور في ذهني أسئلة كثيرة ولكني عندما وجدتهم يضحكون لم أستطع أن أمسك نفسي وأخذت أضحك حتى حان موعد إغلاقها فأغموا عيوني وأخرجوني في أحد الشوارع القريبة من المنزل.
- وما الفائدة من ذلك؟
- لا أعلم لم يكن هناك نقاش ولا كلام فقط ضحك وضحك وضحك.
وضحك راضي من جراء تكراره لفظة ضحك فأسكته قاسم وقد بدت ابتسامة على وجهه هوالآخر ووقف وقد عزم على المغادرة وهو يقول:
- أرجو ألا تضحك غدًا في السوق فتطير رقبتك.

- لا لقد شبعت ضحكًا لمدة طويلة أعتقد أني سأمسك نفسي حينها.
وصمتا لبرهة وفرقع راضي إصبعيه كأنه تذكر أمرًا ما وأردفك:
- لقد تذكرت لقد كان أخوك مخلص هناك يبدو أنه من أهم رجالهم.
وأومأ قاسم برأسه واستأذن وغادر ولم يفهم لما فعلوا ذلك براضي بالذات ولماذا أنشأوا حانة للضحك وساوره قلق على مخلص وعزم على أن يفهم ماذا يحدث؟

وفي اليوم التالي وحينما انتصف الليل أخذ قاسم عربته وحماره وذهب ناحية الحانة وأوقف حماره بعيدًا وترجل ناحية الباب ووقف خلف جدار يراقب من بعيد وكان كل فترة يأتي رجل فيضرب على الباب ضربات بطريقة معينة فيُفتح له الباب ويدخل وتكرر هذا الأمر أمامه عدة مرات فحفظ هو بدوره طريقة طرق الباب المميزة وتقدم وارتكز على ركبتيه وحل المسمار من مكانه ونظر بداخل الحانة ليجد الناس يضحكون كعادتهم ويتسامرون ويتحدثون وبحث بعينيه عن أخيه فوجده بجانب إحدى الغرف الداخلية يتحدث بجدية مع عماد الدين وهنا أخذ نفسًا عميقًا من الهواء وضرب الباب بالطريقة نفسها التي رأى بها الناس يطرقون فانفتح الباب ونزل هوعدة درجات إلى الأسفل ولما انتصب داخل الحانة رمقوه بنظرات حائرة وتوقفوا جميعًا عن الضحك.
وتقدم عماد الدين ناحيته ورجلان وربطاه إلى كرسي ووضعوه في منتصف الحانة وفتح رجل منهم الباب ببطء وأخذ ينظر خارج الحانة ولما اطمأن أنه لا يوجد أحد في الخارج أشار لعماد الدين أن يطمئن وبادله عماد الدين نظرة وأقبل نحو قاسم الذي كان يجلس على الكرسي في هدوء وثقة وهو يكاد يبتسم واقترب من وجهه وهو يقول:
- أخبرني يا ذيل الظالم من أخبرك بمكاننا؟
فلم يجبه قاسم إلا أن تأمله وأردف وهو يضحك:
- ذيل الظالم !
- نعم أنت ذيله الذي يحركه كيفما شاء من دون حول منه ولا قوة ولست بمفردك ذيله فهناك كثيرون من أمثالك.
- تشبيه غير دقيق يا عماد الدين وبه إساءة لأن الذيل لا يهش إلا الذباب أما التشبيه الدقيق الذي أعتز به وإن ناديتني به أكون شاكرًا فتستطيع أن تقول عني (الرجل الذي فهم الحاكم وفهم المحكومين فنجى من الجميع بذكاء)، عبارة طويلة ولكنها صحيحة ومحببة إلى نفسي.
- هذه فلسفة فارغة ما تقوله الآن هو اختصار لكلمة منافق ليس إلا.
- ربما ولكنكم معشر الضاحكون على أسطح المنازل ماذا فعلتم غير أنكم سجنتم ضحكة الناس.
- نحن حاولنا وأمثالك هم من جعلوا محاولاتنا في أضيق الحدود حيث جعلتوهم يقفزون على ثورتنا وأهدفنا وحريتنا.
وقال قاسم في غضب:

- بل لسنا نحن معشر المنافقون كما تدعي بل هم هم الذين سمحوا لهم بذلك هم الذين سلموا لهم مفاتيح سلاسل أغلالهم بأيديهم هم الرعاع في كل وقت وحين صفقوا لقتل صادق وصفقوا لخادع حين انتهك أعراضهم وسرق قوتهم منذ أيام الملك الأول وحتى حينما فعل فيهم ما لا يفعله الأباطرة في شعوبهم لم يستطيعوا أن يقفوا في وجهه ويقولوا لا مجتمعين بأسهم بينهم شديد كل واحد منهم مشغول بنفسه التي بين جنبيه ولا يعنيه الآخرين لو ظلموا ولا يعنيه غدًا ما سيحدث وما دامت النار في بيت جاره وليست في بيته فلا يشغل باله ولا يعلم الأحمق أنها ستأكل بيته في أي وقت إن لم يساعد في إخمادها.
واندهشوا من منطقه ولم يستطع أحدهم أن ينبس حتى جاء مخلص من الظلام ودخل ببطء وهو يقول:
- لن يستطيع أحدكم أن يثنيه عن منطقه أبدًا مهما بلغ من قوة الرأي وفصاحة اللسان فقد عجز صادق نفسه عن ذلك وعجزت أنا أخوه الذي رباني، إنه يظن أن الناس إن لم يكونوا على قلب رجل واحد فيستحقوا ما يفعل بهم والذكي في ذلك الوقت من الحياة والتاريخ هو الذي يتماشى مع منطق العيش والخوف من السيف ومن يشذ عن ذلك ما هو إلا أحمق يستحق بحماقته ما يُفعل به ولابد لكي تستقيم الأمور أن يخرج الناس جميعًا ليقولوا لا للظلم وإلا لا يفعلها قلة لأن ذلك يعد في منطقه غباءًا أليس كذلك يا أخي؟
نظر قاسم لأخيه عن قرب وكادت عيناه تخونه وتُسقط الدموع ولكنه تماسك وهمس بصوت مبحوح:
- هو كذلك يا أخي.
- إذن أنت تدّعي أن كل أحرار العالم وكل أحرار التاريخ وكل من نطق لسانه بكلمة لا في وجه الظالم بالأغبياء وربما تطال كلماتك الأنبياء الذين سلكوا نفس المسلك وانطلقوا يقولون كلمة الحق في وجه الكفر وفي وجه أصحاب المصالح والظالمين عبر تاريخ البشرية كله.

وتنهد مخلص وكان قد انفعل وهو يتحدث ويرمق أخاه ثم قال في هدوء:
- لن تتغير أبدًا.
وتذكر عماد الدين الموضوع الأساسي فمال على مخلص وأخذه في جانب بعيد وهمس:
- اتركه لي إن كنت تستشعر حرجًا من التحدث معه في أمر معرفته لطريقنا
وابتسم مخلص وهو ينظر لعماد الدين:
- الأمر لا يحتاج كل هذا التدقيق فلا أحد يدور في شوارع القبيلة ليلًا مثل أخي فأنا أعلمه جيدًا وربما تتبع أحدهم ليلًا بدافع الفضول.
- وماذا نفعل معه أتظنه يشي بنا.
- آخر شيء يفعله، هو لا يأذي أحدًا ويحاول مساعدة الناس دائمًا هو فقط يعيش بمنطقه الذي رأيت منذ قليل.
- إذن ما الذي جاء به إلى هنا وماذا يعرف عنا؟

- هذا ما سنحاول معرفته منه.
ورجعا الاثنان إلا حيث يجلس قاسم مقيدًا في الكرسي فأمر مخلص ففكوا قيده وتحسس قاسم يده وغير مكانه حيث تبعه بعض الرجال ووقف مخلص عند رأسه يسأله:
- لماذا جئت إلى هنا يا قاسم.
فرمقه قاسم باستغراب:
- جئت كما جاء معظم الناس هنا سمعت أن هناك حانة للضحك فجئت لكي أضحك فيها بعيدًا عن أعين البصاصين والشرطة:
- ومن الذي دلك على طريقنا؟
- لي مصادري الخاصة.
- هذا ليس سؤال يقبل الرد غير المباشر.
- تتبعت راضي يوم أن أخذتموه إلى هنا من غير حول منه ولا قوة وضربه رجل منكم على رأسه لماذا فعلتم ذلك؟
قال عماد الدين:
- مخلص من أمر بذلك.
فنظر قاسم لمخلص وقال:
- خفت أن يتحدث راضي بسذاجته المعهودة ويخبر الناس وظنك كان في محله فقد أخبرني كل شيء أمس إلا الأمر الوحيد الذي كان لا يعرفه وهو مكان الحانة ولكن ما الذي دعاكم لاختطاف راضي بالذات؟
فقال مخلص:
- الشجاعة التي أبداها في السوق منذ أيام جعلته يستحق الانضمام لنا هنا.
- أصبحت تختار من الرعاع من تراه يستحق يا مخلص هذه خطوة جيدة ولكن احذر فالخبر قد ينتشر في أي وقت.
- الأمر ليس كذلك ولكننا نأخذ احتياطتنا دائمًا.
- وما الفائدة من هذا التجمع الذي تضحكون فيه؟
- ننفس عن أنفسنا وعن الناس بعد أن أغلقوا علينا جميع المنافذ ويوم ما ستكون هذه الحانة نواة لثورة جديدة.
وضع قاسم يده على لحيته وفكر قليلًا ثورة على السيف بالضحك في الخفاء؟ ربما!
وانطلق الناس في الحانة يتسامرون مرة أخرى وانشغل كل منهم في أمر ما وظل قاسم ومخلص بمفردهما يتحدثان وقال قاسم:
- اسمح لي بالانضمام إليكم هنا وسأتي كل يوم لكي أراك.
- إنها رغبة منك لمصلحتك الشخصية وليس لإيمانك بالفكرة.
- ربما يكون الأمر كذلك ولكن من يدري لو سمحت لي بالانضمام فربما أغير رأيي في يوم ما.
- أشك في ذلك ولكن احذر أن يعلم أحد مكاننا.
رمقه قاسم في حب وحنان:
- هل تعتقد أني قد أعرضك لأي أذى لا أستطيع وأنت تعلم ذلك.

ونظر قاسم من خلف مخلص فلمح ممرًا طويلًا لم يستطع أن يتبينه جيدًا من الظلام فسأل أخاه عنه فلم يجبه وشك قاسم في الأمر ولكنه أبى أن يتعمق أكثر في السؤال عنه وانتهى كلامه عند هذا الحدث ولكنه كان سعيدًا ولا شك ونجحت محاولته واستطاع كسب ود أخيه بعد قطيعة دامت لسنوات واتفق وأخيه أن يزوره هنا كلما سمح وقته بذلك وقبل مخلص ذلك بشرط أن يصطحب قاسم راضي معه ويلقنه جيدًا خطورة أن يعرف أحدهم مكان مخبأهم وتكررت زيارات قاسم وراضي للحانة بعد ذلك.

جاءت أيامٌ عصيبة عصفت بالمملكة وحدث فيها من الأمور جسامها وانخلع قلب الناس فيها حيث إن ما كان يطبق على الناس من أمر عدم الضحك لم يكن مقبولًا أن يطبق على الأطفال وحديثي السن ولكن مكران أصر أن يتعلم الأطفال أن لا يضحكوا وبالفعل بدأ الناس يُعلمون أبناءهم ذلك ولكن الفطرة غلبتهم وذات يوم كان مكران يمر فيه بين رجاله في شوارع قبيلة الرعاع القديمة وانطلقت ضحكة من وسط أطفال يلعبون فطرقت أذن مكران وانصرف إليهم وترجل من على حصانة الأسود الغطيس الذي كان ينفث الهواء من أنفه ووقف وسط الأطفال ونظر في عيونهم فخافوا من نظراته القاسية وملامحه المخيفة وأخذ يصيح فيهم بأعلى صوته:

- من فيكم يا رعاع كان يضحك؟

وأخذ يكررها مرات خمسة وبدأ الناس يتركون ما انشغلوا فيه ويلتفون حول الأطفال الذين تملكهم الرعب ونادت أمهاتهم عليهم من بعيد ولكن مكران أبى أن يفلتهم ويتركهم يذهبون إلى أمهاتهم وأخرج سيفه وهو يردد:

- من منكم كان يضحك؟

وما كان يفعله مكران في هذا اليوم لم يخف الناس فقط وإنما أخاف بعض عسكره أيضًا وظنوا به الجنون، ولما أصر على معرفة من كان يضحك تقدم طفل في الخامسة من عمره ببراءة الأطفال والدموع تتساقط منه وهو لا يفهم ما الذي من الممكن أن يحدث له ولما وقف أمامه وعيناه في الأرض جلس مكران أمام عينه ونظر فيها وهو ينفث غضبًا وقال له بهدوء يخالف الغضب الذي ينطلق من عينيه:

- ألم يعلمك أبواك ألا تضحك؟

ومد يده ولمس وجه الطفل الذي تحاشت عيناه البريئة ملاقاة عيني مكران وكرر جملته ولكن هذه المرة بعنف وغضب.

- ألم يعلمك أبواك ألا تضحك؟

وظل الطفل صامتًا فزاد بصمته غضب مكران الذي اعتدل واقفًا وحمل الطفل بين يديه ثم أشار لأحد حرسه فتقدم منه فرماه بعينين يغشاهم الغضب وقال:

- أقتله!

فلم يصدق الحارس ما سمع وانتفض الناس يصرخون ويتحدثون بأحاديث جانبية ورمق الحارس مكران في خوف وردد بصوت غير واضح.

- أقتل من أيها القائد مكران؟

اقترب مكران منه وأمسك ذراعه في عنف واستل السيف من غمده المعلق بملابسه وناوله السيف وهو يقول بصوت سمعه الجميع:

- أقتل هذا الطفل اللعين.

ووقف الحارس أمام الطفل الذي وضعه مكران على الأرض ينظر له ولما تمعن في جسده الضئيل انخلع قلبه وسمع صوتًا في داخله يقول له لا تفعل فهذا شر الشرور كلها ونظر للناس مستنجدًا وكان يرجو أن يقوم أحدهم وينفجر فيهم بل إنه تمنى لو يقتله أحدهم الآن بضربة واحدة وطال انتظار مكران فقال كلمات ليحثه على فعل ذلك

ولكنه لم يستطع أن يتحرك من مكانه والتفت ناحية مكران بعيون إنسانية باكية وهز رأسه بالرفض فظن مكران أن هذا الجندي ورفضه لأوامره هو بمثابة بداية النهاية لسطوته على الجيش فاستل سيفه وطعنه طعنة قضت على حياته على الفور وانفجر الدم من الجندي أغرق الطفل الذي كان يرتعد بشدة وأقبلت أمه بعد أن أخبرها جيرانها فاندفعت ناحية الطفل تحترق الحلقة التي كونها الناس المذهولون وحملت ولدها إلى صدرها وقبل أن تنبس أمر مكران جنديين فانتزعا الطفل من يدها بصعوبة بعد أن تمسكت به وذهبت ناحية مكران تستعطفه بكل ما أوتيت من قوة وتذلل أمامه ولم يزده ذلك إلا صددًا وأخبرها أن ابنها خالف القانون وعقوبته القتل وتساءلت بصوت سمعه الناس:

- منذ متى والقوانين تطبق على الأطفال في سن الخمس سنوات؟

وعرضت عليه أن يقتلها فداء له وقالت له إن هذا خطأها هي حيث لم تعلمه عدم الضحك بشكل جاد ولكن مكران قال لها في ثبات موقف إنه لم يرها تضحك بل رآه هو ولما يأست المرأة دارت بين الناس الملتفين حولها وطفلها تستنجد بهم وتدعوهم لمنع ما يحدث وأخذت تنادي فيهم أن إنقذوا طفلي وأخذت تلطم خدها وتثير التراب على رأسها وتتكشف دون قصد منها وخاف مكران أن يحمل واحدًا آخر من جنوده لقتل الطفل فيرفض لذلك أقبل عليه بنفسه وحمله بين قدميه ثم أخرج خنجرًا صغير وطعنه في رقبته طعنتين وتركه ينزف وغادر هو وجنوده وسط ذهول الناس والجنود وطفقت المرأة إلى ولدها تحمله في صدرها وتضع يدها على جروحه النازفة وكان لا يزال حيًا وهو ينظر لأمه بعينين غير فاهمتين لما يحدث له كل هذا وظل يُخرج في الروح للحظات حتى استسلم بين يدي أمه.

كان خبرقتل الطفل بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير وانتفض خادع غير مصدق ما فعله مكران واستدعاه في قصره على عجل وذهب له مكران بعينين جامدتين غير عابئ بما سوف يحدث وظل خادع ينكر عليه ما فعل معللًا انكاره لذلك بأن هذا الفعل قد ينقلب الناس بسببه عليهم واختلفوا حتى إن مكران خالف أمر خادع وتركه يأكل في نفسه بعد أن قال له إنه لابد أن يبتعد عن الجيش ويختفي عن الأنظار لفترة حتى ينسى الناس ما حدث ولكن مكران أبى أن يفعل ذلك وقال كلمات لخادع زلزلت كرسي حكمه الذي اعتقد أنه في مأمن:

- مادام الجيش تحت إمرتي فلن يستطيع أحد أن يزحزني من مكاني حتى ولو كان الملك نفسه.

وغادر من فوره بعد أن ترك خادع وخشخاش واقفان غير مصدقين ما قاله وهالهما موقفه وخافا على نفسيهما من سطوة سيطرته واحتار خادع في أمره وتذكر أن الذي كان يستعين به لقتل الذي يقفون عثرة في طريقة هو نفسة تحول إلى حجر عثرة وحجر ضخم يصعب إزالته.

أما في المملكة فقد خاف الناس مما حدث وحبسوا أطفالهم وانتشر بينهم الرعب حتى أن بعضهم عزم على عدم انجاب أطفال في حياته وبدأوا يعلّمون أطفالهم عدم الضحك لأي سبب كان حتى في البيوت وكانت هذه الأيام كفيلة أن ينسى الناس

الضحك حتى في بيوتهم وبين أطفالهم ونسائهم وانتفض مخلص ورفاقه بعد هذه الواقعة وقد غيروا من طريقتهم في التعامل وأخذ مخلص ورفاقه على عاتقهم الانتقام من مكران وقتله وخططوا لذلك وكان الأمر أشد صعوبة مما اعتقدوا حيث أن مكران كان لا يمشي إلا في حرس كامل يتعدى عددهم أكثر من مائة جندي مدججين بالسلاح وينتشر حولهم العديد من البصاصين وناقلي الأخبار وكان يسير في كل قبيلة يومًا في الأسبوع يطمئن على سيطرة جنوده وتطبيق قوانينهم الظالمة وقد اتفق مخلص مع رجاله أنه سوف يخبئ خنجرًا في ملابسه ويتقدم إليه ويطعنه في قلبه واعترض بعضهم حيث اعتبروا ذلك الأمر انتحارًا إلا أن مخلص أصر على ذلك وعزم على تنفيذه وبدأ في التخطيط له وكان يوم الأحد هو اليوم المخصص لسير مكران بين جنوده في شوارع قبيلة الرعاع واختار مخلص شارع ضيق يستطيع من خلاله اختراق موكبه وطعنه وكان مخلص يعلم أنه لن ينجو من ذلك حيث إن الحرس سيحاصره وسيقتله من فوره دون شك ولكنه لم يكن خائفًا وكان الذي فعله مكران قد زاد من شعلة كرهه في قلب مخلص وتذكرمخلص ما فعل في صادق ولذلك أصر على أن يفعلها بيده وليس بيد واحد من أتباعه وفي يوم الأحد تربص مخلص بين بيتين منتظرًا أن يمر موكب مكران وكان موكب مكران لا يزال في وسط السوق وكان يجلس على فرسه في عنجهية وغطرسة وكان الناس يكرهون طلته ويخافون من شره وأخذ يمشي في شوارع القبيلة حتى وصل للشارع الضيق الذي يقف فيه مخلص واختبئ مخلص خلف جدار بيت وكان يطل بنظره كل فترة نحو مكران فيجده متصدرًا الموكب وحوله جنوده ولما دنا مكران من المكان الذي يختبئ فيه مخلص أخذ مخلص نفسًا عميقًا وغمغم بأذكار كان يحفظها وانطلق نحو الموكب مندفعًا إلا أن سهمًا انطلق من المجهول اخترق رقبة مكران فجأة فأرداه قتيلًا ولما رأى مخلص هذا الأمر فر من فوره ناحية الحانة ولم يكن قد عرف من فعل هذا.

وأعلن خادع في جنازة عسكرية كان قد أمر بها لمكران القائد العظيم الوطني صاحب الهمة و الرجل المخلص للملكة على حد قوله عدم تطبيق قانون الضحك على الأطفال وأعلن أيضًا أنه سيكلف رجاله بالبحث عن قاتل مكران وأخذت هذه القضية أيامًا سُجن فيها من أهل القبيلة العديد من الرجال وكان من ضمن هؤلاء الرجال عماد الدين أما الناس فظلوا على عهدهم فحبسوا أطفالهم ولم يخرجوهم وانطفأ هؤلاء الأطفال وجلسوا في بيوتهم صامتين وكان ذلك بمثابة تهديدًا لانقطاع الضحك حتى عن الأجيال القادمة.

وفي السجن قابل عماد الدين بلال وربطتهما صداقة قوية ظلت لمدة ستة أشهر وهي المدة التي قضاها عماد الدين في السجن قبل أن يخرج هو ورفاقه ولم يحقق معهم ولم يزورهم أحد من القادة والمحققين طوال هذه الفترة ولم توجه لهم تهمة قتل مكران وعلم من فطن منهم بالطريقة أنهم في السجن الآن كمجرد شكل صوري للتغطية على القاتل وقال بلال إن من قتل مكران هو لا شك خلاف سياسي بين أعضاء دائرة الحكم وأنه بما فعله في الطفل كان بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير والغلطة التي لا مسامحة فيها لذلك كان لابد من قتله لتهدئة الناس على من في دائرة الحكم وخاصة خادع بعد أن اضطر لإصدار قانون الضحك لمنع الضاحكين في ليالي المملكة التى كانت تؤرق مضجعه.

وحكى عماد الدين عن حانة الضاحكين لبلال فأعجب بالفكرة وقال عنها إنها نواة لشيء ما قد يحدث في المستقبل ولكنه كان يملأه الحزن لما آلت إليه الأمور وقال بتقاطيعه التي ذبلت من ليالي السجن:

- بعد أن كنا نقاتل لأجل الحرية من أغلال الملك الظالم حولنا خادع للنضال من أجل انتزاع حقًا لا مراء فيه وهو أبسط حقوق الإنسان الضحك وقد نجح في ذلك فأصبح لزامًا علينا أن ننتزع حقنا في الضحك ليمهد طريقنا في المناضلة لنيل حريتنا
وتذكر الاثنان صادق والبطولة التي حققها والتحذيرات التي كانت تنطلق من لسانه ويكررها مرارًا لخوفه من أن تحدث وها هي حدثت وسلم الناس لها.
وأرسل بلال خطابًا شفويًا لأبناء قبيلته وحثهم على النضال على لسان عماد الدين وأرسله برسالة خاصة إلى رجل من أبناء قبيلة الخُلج وهو رجل يثق به بلال وساعد ذلك الرجل مخلص وعماد الدين على إنشاء حانة الضحك الثانية في قبيلة الخُلج بعد ذلك.

أما في قصر خادع فقد زادت وتكررت زيارات قاسم بناء على طلب خادع وقد كان خادع قد أحس بالوحشة منذ انتقل للعيش خارج المملكة وقاسم أصبح سميره المعتاد واقترب قاسم من خادع في تلك الأيام كما لم يحدث من قبل والغريب أن خادع لم يغدق على قاسم بالأموال مثلًا أو منحه منصبًا في دائرة حكمه أو أى شيء من هذا القبيل وكان قاسم يكتفي بطبق من التفاح يأخذه معه مع كل زيارة لخادع أما خادع فلم يفعل ذلك لأنه كان يرى أن هذه الأمور كالأموال والمناصب كفيلة بتغير شخصية قاسم الذي يحب وهذا آخر شيء يرغب فيه .

وفي أحد الأيام التي كان يجلس فيها قاسم مع خادع كعهدهما في صالة القصر يتناولون التفاح دخل رجل يرتدي عباءة غريبة ويحمل بين يديه طبقًا مغلفًا ومعه حارس فقال الحارس وهو يحاول أن يتقدم أمام الرجل:
- مُصر الكيميائي يا مولاي مُصر على لقائك.
فأشار خادع للحارس أن ينصرف وقال:
- أقبل يا مُصر.
فأقبل الرجل وجلس القرفصاء بين قاسم وخادع وأخذ ينظر للتفاح بنهم فأراد قاسم أن يعطيه تفاحة لما رأى نظراته ولكن خادع تجاهل الأمر وسأله:
- ماذا فعلت؟
فناوله الطبق وكشف خادع الطبق فوجد حبوب في وزن حبة عباد الشمس وقال الرجل والطبق بين يدي خادع ولا يزال ينظر للتفاح:
- هذه الحبة كفيلة أن تكتم الضحك لأسبوع كامل فقط يجب على من أراد أن يكتم الضحك أن يتجرعها مع بعض الماء.
وتعجب قاسم من الحوار الدائر ولم يفهم ما ينتويه خادع وقال خادع لمُصر:
- وكم تكلفة الحبة الواحدة يامُصر؟
- شيء لا يذكر يا مولاي الألف منها يكلف أقل من قطعة ذهبية واحدة ومكوناتها بسيطة الثوم مع بعض الدقيق.
وتبسم خادع وهو ينظر للحبوب في يده ويرمق كل حين مُصر الذي لا يزال ينظر للتفاح:
- أحسنت يا مُصر اصنع لي منها ألف ألف حبة.
وانصرف الرجل وتأمل قاسم في الطبق الذي في يد خادع فناوله واحدة فرفعها قاسم ناحية عينيه وتأملها ثم نظر لخادع بعينين متسائلتين فقال خادع له:
- أنت تعلم أني عندما أصدرت قانون الضحك وتجريمه لم أكن أرغب حقًا في كتم ضحكات الناس أو الاستهزاء بهم ولكن اضطرتني الظروف لذلك فما فعله بعضهم من أمر الضحك ليلًا كان مثيرًا للقلق وقد كانت مؤشرات البصاصين حول شعبيتي ومدى حماسة الناس للأمر تنذر بالشؤم لذلك قررت منع الضحك ولا أخفي عنك سرًا كنت قد عزمت أن ألغي هذا القانون الأخرق بعد أن هدأت الأمور وبالفعل كنت قد

اتخذت إجراءات ذلك فبعد جنازة مكران والذي فعله أصدرت أمري بعدم تطبيق القانون على الأطفال حتى سن عشر سنوات وكنت أرغب في إلغاء قانون منع الضحك كله لأكسب ود الناس وتزداد محبتي في قلوبهم مرة أخرى حتى خطرت على بالي فكرة خطيرة وانطلق التاجر بداخلي يشدو بها ماذا لو نبيع للناس حبوب تساعدهم في منع الضحك ونبيع الحبة الواحدة بقطعة ذهبية واحدة على الأقل وأمرت مُصر أن يصنعها لي، لذلك عدلت عن رأيي وقررت استمرار قانون تجريم الضحك فهو أصبح الآن دخلًا آخر لخزائني أقصد خزائن المملكة.

ووضع قاسم يده على فمه وانتظر قليلًا وهو ينظر لخادع ودخل في نوبة من الضحك بشكل جنوني حتى انقلب على ظهره ودخل خادع معه في نفس الشيء وقال قاسم من بين ضحكاته:
- ولكنه دقيق وثوم.
وانطلق يضحك مرة أخرى ولم يهدأ حتى قال خادع:
- انتظر لحظة هذا الرجل لم يقل لي ما هي المادة التي وضعها لكي تكتم ضحكات الناس أحقًا صنعها من ثوم ودقيق فقط؟
ونادى على أحد حراسه ولكن قاسم قاطعه قائلًا:
- الناس لا يحتاجون لمادة معينة تكتم ضحكاتهم فكل المواد المساعدة على ذلك موجودة في كل مكان داخل المملكة وفي كل ليلة تجد من تلك المواد ألفًا فلا تخف.
وانطلق المنادون يخبرون الناس بأمر الدواء الجديد وبعد أقل من شهر كانت في مخازن دكاكين خادع الأربعة ألاف الأجونة المعبئة بحبوب خادع الجديدة وكانت تباع الواحدة بقطعة ذهبية على أن تُكفي الفرد لمدة أسبوع والغريب في الأمر أن الناس أقبلوا على شراء الحبوب بشكل دوري وكان بعضهم لو غاب يومًا عن شراء الحبة وتناولها يجن جنونه ويدور يبحث عن مخرج لمعضلته وأصبح التكدس أمام الدكاكين أمرًا معتادًا وأصبح الناس يقفون بالمئات أمام الدكاكين لأخذ الحبوب من الصباح وحتى تغيب الشمس وأرهق ذلك الأمر مخلص ورفاقه وأرهقهم محاولاتهم التي تبوء بالفشل دائمًا في محاولة إقناع الناس بعدم جدوى تلك الحبوب ولكن الناس لم يستمعوا لهم كعادتهم وانهالوا يلعنون كل من يشكك في جدوى الحبوب ووفر ذلك الأمر على خادع كثيرًا حيث كان ينوي إصدار قانون بتجريم من ينكر جدوى الحبوب وإيداع من يقول ذلك السجن ولكن لفظ الناس للداعين للتوقف عن شرائها منعه من ذلك وفي أحد الأيام اختفت تلك الحبوب من الأسواق لأسبوعين كاملين فجن الناس وكادوا يفتكون ببعضهم وبالدكاكين واستغل تلك الفرصة العاقلون من الناس وأخذوا يقولون إنهم استطاعوا أن يستمروا من دون ضحك كما تعودوا ولم تحدث الحبوب فارقًا في هذا إلا أن بعضهم قال إنه من يوم أن شحت الحبوب لا يستطيعون إمساك ضحكاتهم وتهزمهم إرادتهم في الليل وهم خائفون أن تنطلق ضحكاتهم في النهار فيجرون وتقتلع رقابهم جراء ذلك وزاد الجدل بين الناس حتى أصبحوا يومًا فوجدوا الحبوب قد عادت بأعداد ضخمة ولكن هذه المرة بضعف ثمنها ولم تقل نسبة الشراء عن السابق بل تضاعفت مرات ومرات وحمل كل من يحمل نقودًا كافية ما

استطاع أن يحمله من حبوب حتى إن بعض الناس فضل شراء الحبوب على شراء الطعام ذاته.

أما فقراء المملكة فقد ضاقت بهم الأرض باتساعها وضاقت عليهم أنفسهم ونفذ صبرهم على الجوع والخوف لذلك انتشرت في المملكة كلها قضية الهروب الجماعي حيث يخرج بعض الفقراء ليلًا ناحية أسوار المملكة ويحاولون تسلقها ويهرب منهم من ينجح في ذلك إلا أن رجال خادع غالبًا ما كنوا يمسكون بهم في الصحراء الواسعة قبل أن يستطيعوا اللجوء لأي مكان وبرغم أن معظمهم كانوا يلقون حتفهم في الصحراء أو بأسهم الرماة من فوق أسوار المملكة العالية إلا أن الناجين القليلين كانوا يبثون روح الإصرار في قلوب البقية الذين عزموا على الفرار كسابقيهم
ونجحت محاولات بعضهم وانتشر بين الناس قصص مَن فر من المملكة وذهب نحو بلاد أخرى استطاع أن يحيا بها في كرامة وانتهز الناس تلك الفرصة وأصبحوا يفرون من الجحيم داخل المملكة إلى المجهول خارجه ولكن خادع أوقف هذا الأمر بأن نشر جنوده حول سور المملكة من الخارج والداخل وكانوا يقتلون كل من تسول له نفسه الاقتراب من السور وكانت تلك الفترة من أشد الأيام التي مرت على الناس فمنع خادع التجار من القدوم للملكة إلى حين وقلت السلع التي كان يجلبها التجار من خارج المملكة بالاتفاق مع خادع حتى هدأت الأمور وأصبح الناس الذين يحاولون الهرب قلة لا تؤثر في شيء فعادت الأمور كما كانت في السابق وانتهز مخلص ورفاقه تلك الفترة وأنشأوا حانات جديدة في القبائل الأربعة وأصبح بعض الناس يذهبون لتلك الحانات بكثرة وعلم البصاصين ذلك الأمر وأخبروا خادع إلا أنهم فشلوا في معرفة أماكن تلك الحانات وانتشر بين الناس هذا الأمر وأخذوا يسألون عن أماكن وجودها إلا أن مخلص ورفاقه كانوا حريصون أشد الحرص على التكتم على أماكن الحانات وأثرت هذه الحانات على تجارة خادع ولاحظ هو تراجعًا وإن كان طفيفًا في عائد الحبوب وبرغم أنه تراجع يكاد لا يذكر إلا أنه أخاف خادع وانتبه لذلك الأمر وأمر رجاله بتكثيف البحث عن تلك الحانات ومعرفة من وراءها ولكن محاولاتهم دائمًا ما كانت تبوء بالفشل لذلك اضطر في تلك الفترة لتقليل ثمن الحبة الواحدة لقطعة ذهبية وتابع ذلك بأصوات المنادين يخبرون الناس أن الملك خادع تعطف وتكرم ونظرًا لمعرفته حاجيات الناس تقليل ثمن الحبوب إلى النصف وجعل ذلك الأمر الناس ينصرفون لشراء الحبوب مرة أخرى وتساءل قاسم ذات مرة وهو في السوق ألا يفعل خادع هذا شيئًاإلا وينطلي على الناس أهو ساحر أم حاكم لماذا يصدق الناس مَن في القصر دائمًا؟

وفي إحدى الليالي طرق قاسم بيت أخيه بقوة ولما فتح مخلص باب البيت أخبره قاسم أن أمرًا ما فعله وجنى به على حياة أحدهم، ولما سأله مخلص عما فعل، أخبره أنه وجد شابًا نائمًا في الصحراء وكاد يقتله العطش فحمله معه في العربة ظنًا منه أنه أحد الذين فروا من المملكة ولم يستطيعوا إكمال طريقهم ولما أدخله للملكة اكتشف أنه ليس من سكانها وأنه غريب عنها وتساءل مخلص:
- وأين هو الأن؟
- تركته فوق العربة عند سوق القبيلة.
- حسنًا اذهب أنت إليه الآن وسأوافيك هناك بعد قليل.
وانطلق قاسم راجعًا للشاب وارتدى مخلص ملابسه وخرج من البيت متجهًا نحو سوق القبيلة ولما وصل إلى هناك وجدهما يأكلان الطعام فوق عربة قاسم البالية:
- ها هو الرجل الذي أخبرتك عنه.
نظر ثائر لقاسم ولم يفهم ماذا يحدث وأمسك قاسم بزمام حماره وقبل أن يرحل اقترب من ثائر وقال:
- تترك كل مدن العالم وممالك الدنيا وتأتي إلى هنا؟
ثم قفز فوق العربة وغادر من فوره.
وبعد لحظات صمت ونظرات ثائر الحائرة لقاسم الذي بدأ يختفي في الظلام، نظرمخلص لثائر ومد يده مصافحًا إياه بقوة قائلًا:
- مرحبًا أنا مخلص، أعلم أنك في حيرة من أمرك وفي ذهنك عشرات الأسئلة اطمئن سأخبرك بكل شيء ولكن هناك أمرًا واحدًا لا يجب فعله أبدًا في العلن مهما اضطرتك الظروف..
اقترب مخلص من ثائر وقال بهمس:
- لا تحاول أن تضحك مهما اضطرتك الظروف حتى أخبرك بكل شيء.

وسار مخلص وثائر في شوارع قبيلة الرعاع القديمة متجهين ناحية بيته وكان ثائر يدور بعينيه غير مصدق ما يراه فالقبيلة ينبعث منها روائح كريهة ويقابل وهو يسير وجوه يملأها الإحباط والخوف ومر على أطلال منازل هُدمت وتوقف فجأة وهما يسيران عند بيت قديم هدمت جدرانه ووقع سقفه وتأمل جدران البيت وتحسسها وتساءل مخلص حينئذ ما بال هذا الرجل يفعل ما يفعل وسأله بشكل مباشر لما رأى دموعه تتساقط وهو يبكي على أطلال هذا البيت.
- أخبرني قاسم أنك من بلد بعيد ولا أظنك من هذه الديار فملابسك مختلفة ولهجتك هي الأخرى مختلفة عن لهجتنا فلماذا أراك تبكي أطلال بيت مهدم من بيوت قبيلتنا القديمة هجره سكانه منذ سنين طويلة؟
فرمقه ثائر بدموع متساقطة وعينين حمراوتين وأردف:

- سأقول لك كل شيء فمنذ رأيتك وقد كسبت ثقتي إلى النهاية ولكني الآن أرغب أن أدخل البيت لأبحث عن بعض الأشياء بداخله وحينما نستقر في مكان لا يسمعنا فيه أحد سأخبرك بالكثير فاطمئن.
وظهرت المفاجئة على ملامح مخلص وظن في الرجل الظنون فقد ظن في البداية أنه أحد رجال خادع تنكر ليتقرب منه ويوقع به لذا أخذ حذره وتركه يفعل ما أراد حتى لا يشك في أمره ودخل ثائر البيت وغاب قليلًا وكان مخلص ينتظره في الخارج ولما طال انتظاره دخل لينظر ماذا يفعل الرجل الغريب في البيت المهدم ولما دخل وجده قد جمع بعض الملابس القديمة ولعبة أطفال قديمة غطاها التراب فتحولت للون الأسود وكان ينفض عنها التراب وهو جاثٍ على ركبتيه فتأمل مخلص الموقف قليلًا وقال بصوت حازم:
- اسمع يا رجل أنا لا أفهم مما تفعل شيئًا ولكن إن كنت خدعت أخي فلن تستطيع أن تخدعني أخبرني على الفور من أنت وماذا تريد وإن كنت تريد سوء فارحل فنحن لسنا في وضع يسمح لنا أن نتحمل ما هو أسوأ

وقام ثائر وهو يمسح دموعه ويحمل الأشياء في يده:
- خذني إلى مكان نستطيع أن نتحدث فيه.

فأخذه مخلص إلى بيته وقدم له بعض الطعام والشراب ولما انتهى من طعامه نظر إليه عن كثب وقال:
- الغريب أنك لم تعرفني إلى الآن ظننت أنك ستعرفني حين تراني على الفور وهذا ما كنت أخشاه في البداية أن تقابلني أمام الناس وتذكر اسمي فيتعرف الناس عليَّ.
وتأمله مخلص جيدًا ولكنه لم يستطع أن يعرفه وقال له في ضجر:
- لماذا كل هذا الغموض فلتنطق بما تعرف يا رجل.
وتنهد وهو يقول:
- لا تستعجل عليّ فإن القصة طويلة.
أنا زيد.
- زيد من؟
- أنا زيد الذي أخرجتموه أنت وقاسم مع أبناء صادق رحمه الله وزوجته.
ولما تذكر مخلص وقف وعلت شفتيه ابتسامة واقترب من زيد وأخذه في حضنه وتأمل جسده.
- وكيف سأعرف من تركته طفلًا وعاد رجلًا مرحبًا بك يا زيد وكيف حال فاضل ونور الدين وأمهما هل هم بخير؟
- إن أمهما قد فارقت الحياة منذ سنين طويلة وعشنا نحن الثلاثة معًا ولم أستطع أن أرجع بهما إلى المملكة خوفًا من بطش خادع.
- ولكني خرجت من المملكة منذ سنين قبل أن يُمنع الخروج وبحثت عنكم في المملكة التي تركناكم فيها ولم أعثر عليكم قط.

- رحلنا عنها مخافة أن يعذبكما خادع حتى يعرف مكاننا منكم وهذا كان قرار أم فاضل رحمها الله حينئذ.
- لم تقل لي أين نور الدين وفاضل؟
- في قصر خادع.
وظهرت المفاجأة على ملامح مخلص واحمر وجهه في خوف:
- ماذا تقول وكيف استطاع أن يصل إليهما؟
- لا تخف إنه لم يستطيع أن يصل إليهما لقد ذهبا له بمحض إرادتهما.
- أنا لا أفهم شيئًا.
- سأقول لك كل شيء في حينه فقط عليك أن تعرف الآن أنهما بخير ولا خوف عليهما منه.
- كيف لا أخاف عليهما منه إنه لن يتورع في قتلهما قبل أن نستطيع أن نصل إليهما هذا إن لم يكن قتلهما بالفعل.
- لا يستطيع أن يفعل ذلك؟
- وكيف هذا؟
- لأنه وببساطة لا يعرف حتى الآن أنهما أبناء صادق هم في نظره خادمان يتحدثان بلسان مختلف عن ألسنة القوم ولن يشك فيهما للحظة.
- ولماذا يفعلان ذلك؟
ابتسم زيد ابتسامة سخرية وأردف:
- ألا تعرف لماذا؟ لقد أتيا سعيًا وراء الرجل الذي قتل أباهما.
- ولكنه محصن بين رجاله وحرسه.
- هذا صحيح ولكننا نخطط للأمر على مهل ولسنا في عجلة من أمرنا وسيحصل كل منا على انتقامه.
وخرج مخلص وزيد إلى حانة الضاحكين ليلًا وحكى مخلص لزيد كل شيء عن الأيام التي مرت وعن الظلم الذي وقع ولم يصدق زيد أن يصل الظلم بخادع أن يمنع الضحك عن العباد وأن يصل الخوف بالناس أن يسكتوا على ذلك وحكى له مخلص عن محاولاته والشباب الذين كانوا مع صادق أن يرغّبوا الناس في الحرية ويحثونهم على المقاومة وأُحبط زيد في البداية من كلام مخلص وأخبره أنه وفاضل ونور الدين كانوا يعتمدون على الناس في القيام بثورة تصحيح ويحاولون طرد خادع من الحكم طوال السنين الماضية وتمنى لو كان صادق لا يزال حيًا لكي يفكر مكانهم وأخبره مخلص أن مكران قاتل خادع قد قتل وانتهى أمره وأخبره أيضًا أنه كان على وشك قتله لولا أن سهمًا جاء من المجهول وقع في صدره وأرداه قتيلًا وقال زيد حين سمع هذا الكلام.
- إن المشكلة لم تكن يومًا في مكران ولا رجال خادع.
وزاد مخلص:
- نعم كلامك صحيح المشكلة في خادع.
- لا.. المشكلة في الناس لابد أن يكون عندهم إرادة التغيير وأن يعلو صوت الحق على ألسنتهم.

- الأمور الآن تغيرت لقد نجح خادع أن يشغل الناس بمحاولات النجاة دائمًا ما يكون هناك أمر مشغولون فيه؛ مرة ندرة الطعام وانتشار الجوع ومرة الخوف على الأطفال ومرة الخوف على الرقاب ومرة الخوف من الضرائب ومرة الخوف من الضحك وهكذا.
ووضع زيد يده على وجهه وهو يتألم وتنهد وهو يقول:
- لا بد أن ينتهي خادع وينتهي معه الخوف من قلوب الناس وإلا سيأتي بعد خادع خادع آخر.
- لقد حاولنا هذا على مر السنين ولكن دائمًا ما كان الناس يخذلوننا، فأنصحك إن أردت تنفيذ ما يدور في عقلك أن تعتمد على نفسك وعلى من تثق فيه من الرجال أما أنا وكل الرجال الذين تراهم وآخرون ففي خدمتك إن أردت ما دام أن ما ستريده سيقربنا ولو خطوة من رقبة خادع.
- نحن بالفعل أصبحنا في قصر خادع ولنا هناك رجلان هم من صلب الرجل الذي خافه خادع أكثرمن أي شيء آخر، فنحن متقدمون بخطوة عليه.
- ساعدنا الله على ذلك.
- أرغب الآن أن أذهب إلى مكان ما لأتأكد من أمر ما وأرجو أن ترافقني يامخلص

وقام مخلص وزيد بمفردهما وانطلقوا إلى مكان لا يعرفه مخلص وتسللا دونما أن يراهما البصاصون والعسكر وكان زيد قد طلب من مخلص أن يجلب معه فأسًا ففعل وانطلقا يحفران في مكان محدد عرفه زيد وبعد قليل وجدا ملابس نسائية ولما كشفا عنها علمها زيد وبكى وجلس في جانب الحفرة التي حفراها وشرع مخلص في ردمها مرة أخرى ولا يزال لا يفهم شيئًا ولما سأله أخبره زيد أن هيمن خادم خادع قد قابله منذ عامين في إحدي الأسواق في المملكة التي كان يعيش فيها وكان قد هرب من بطش خادع الذي كان قد تجبر فخاف منه وأخبره أن خادع قد قتل جدته زينب وأمر بدفنها في هذا المكان ولم يصدق مخلص ما سمع وتأسف لمقتل هذه المرأة التي لا حول ولا قوة بيديها ولا ذنب لها في أي شيء ولكنه سرعان ما تذكر المظالم التي عند مئات الناس من خادع وحكمه الجائر زاده هذا الأمر حماسة على حماسته وأخبر زيد أنه ورجاله جاهزون لأي شيء.
وكان زيد وبرغم إعجابه الشديد بحانات الضاحكين التي انتشرت في ربوع المملكة إلا انه رأى أنها تحولت مع مرور الوقت لمجرد مكان للتنفيس عن النفس ومخالفة قانون الضحك وأنها لو ظلت هكذا فلن تنطلق منها شرارة التغيير وكان رد مخلص عليه أن حانات الضحك وإن كانت أصبحت مكان للتنفيس على النفوس إلا أن هذا التنفيس يدخل إلى الناس السرور فيستعيدون الحياة مرة أخرى ويطردون اليأس والحزن من النفوس وذلك مدعاة للتمسك بالأمل والاستمرار في الحياة.
وفي الليلة التالية جمع مخلص رجاله المقربين واختار الأكثر إخلاصًا وتمسكًا بفكرة الثورة على الظلم والشجعان بينهم واجتمعوا في بيت صادق بعد أن احتاطوا لأمرهم وتجنبوا ملاقاة البصاصين والعسكر ولما استقروا في مجلسهم طلب عماد الدين

الكلمة وأصر أن يبدأ الليلة وكان هذه الليلة مغتاظًا من دون سبب وقف بين الرجال قائلًا بغضب:
- مضى زمن الاستسلام والخضوع إن كنا نرى في أنفسنا خلاصًا الناس ونجاتهم فلابد أن نتحرك نحو الخطوة التي تهز عروش الملوك وتأرق جنود الظلم وعبدة الطغيان لابد أن نبدأ في الاغتيالات السياسية لابد أن تراق دماؤهم كما تراق دماؤنا.
واعترض مخلص على هذه الفكرة لأسباب لم يوضحها وراقت الفكرة للعديد من الجالسين وقال مخلص إن هذا الأمر شاق ويستحيل قتل هؤلاء وهم بين جنودهم وفي حرسهم ولكن عماد الدين أصر على رأيه واختلفوا لأول مرة منذ عهد بعيد وخرجت الأمور عن سيطرة مخلص وتحزبوا إلى أحزاب فاختار فريق وشجع ما قاله عماد الدين واعترض فريق آخر على ذلك وانتظر آخرون توضيحًا من مخلص وانتظروا أن يبين لماذا رفض فكرة عماد الدين ولما طال وقت الانتظار وكثرت الأحاديث الجانبية قال مخلص بهدوء:
- من نحن لكي نقتل باسم الناس هل فوضنا الناس لذلك وترى لوفعلنا ما أراده عماد الدين كم مظلومًا سنقتل؟ ومن منكم يعلم كم مغلوبًا على أمره بين الجنود والبصاصين والحرس؟ كم خائف بينهم ويريد أن يخرج مما هو فيه ويخاف على روحه وروح عياله وأسرته؟ إن الجلاد والمجلود من دماء بعضهم ويصعب حين يمتزج الدم أن تفرقه من بعضه ولا حل في ذلك إلا أن يقوم الناس ويحطموا السوط الذي في يد الجلاد أما نحن فمجرد أداة تنبيه لهم ليستفيقوا وحتى يحدث ذلك الأمر لا نستطيع أن نتعدى حدودنا وسنستمر في تنبيههم إلى النهاية واحذروا أن تنقلبوا لطغاة أمثال الذين تسعون خلفهم دون أن تشعروا.
وقال عماد الدين في نبرة تهكم:
- ولماذا أردت قتل مكران إذا كان كلامك صحيحًا؟
فوقف مخلص وقال بحدة:
- مكران هذا لي ثأر مباشر معه فهو من قتل صادق وأنت أكثر من يعلم ماذا يمثل لي صادق يا عماد الدين.
وجلس عماد الدين في حرج وأردف بصوت تغيرت فيه نبرته الحادة إلى نبرة هادئة:
- وهذا ما أقصده بالضبط اغتيالات سياسية للرموز فقط الكبار الذين ثبت تورطهم في قتل الناس والتضيق عليهم.
وهنا يقف زيد ويتحدث فيهم بنبرة واثقة:
- عندي اقتراح هو الوسط بين رأي مخلص وعماد الدين، ماذا لو فعلًا تربصنا بالرجال الذين ثبت بما لا يدع مجالًا للشك في تورطهم في حصار شعبنا وما آل إليه ثم إذا تمكنا منهم اختطفناهم ليلًا ثم صلبناهم في الساحات الكبرى وأمرناهم بالضحك حتى يستيقظ الناس في الصباح ويرونهم على هذه الحال.
وضرب مخلص بيديه على طاولة أمامه:
- هذه معضلة لن يخرجوا منها ورسالة قوية وواضحة.
وتابع عماد الدين:

- ولكن ما الذي يجعل هؤلاء الذين تتحدث عنهم يضحكون فمجرد رؤيتهم الحرس سيستنجدون بهم وحتى قبل ذلك حين يخرجون من دائرة سيطرتنا عليهم سيفعلون ما يحلو لهم.
- هذا صحيح ولكننا سنخبرهم أن أحد رجالنا سيقف في مكان لا يعلمه أحد موجهًا سهمًا إليهم ولو رآهم قد توقفوا عن الضحك فإنه مأمور أن يطلق السهم نحوهم ليقتلهم وأنت تعلم يا عماد الدين أن هؤلاء أحرص الناس على حياة فما فعلوه في الدنيا يرعبهم من الآخرة.
وقال عماد الدين:
- الآن أصبحت فكرة رائعة ولكن بمن نبدأ؟
فابتسم مخلص لذلك:
- وهل هناك غيره؟
وتسللوا في الليل ناحية بيت الشيخ فضيلة مفتي الديار الرعاعية ودخلوا إلى غرفة نومه وكمموا وجهه وعصبوا عينيه وأخذوه من طريق لم يكن معتادًا أن يسير فيه البصاصون والعسكر وخاصة في الليل نحو بيت صادق ولما رفعوا الغمامة من الشيخ فضيلة وجدوه خائفًا ويرتعد وكانوا يضحكون حوله وهم يرونه في هذه الحالة من الرعب وقال مخلص الذي أخفى ملامحه هو وزملاؤه:
- أنت قلت أن التفاح حرام يا شيخ فضيلة ولقد أخرج رجالي من دارك جوالين من التفاح الأحمر اللذيذ فهل كنت تختبر نفسك بأن تضع التفاح الحرام أمامك طوال الليل ولا تقترب منه أم كنت ستأخذه في الخطبة القادمة لتحذر الناس من تبعات التهامه.
وضحكوا بصوت واحد ما زاد الشيخ فضيلة ارتباكًا على ارتباكه وخوفًا على خوفه وقال بصوت متلعثم:
- وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.. وولي أمرنا أمرني بالكذب لمصلحة الرعايا ففعلت وهذا واجب لا مناص منه.
فلطمه عماد الدين على قفاه فخر ساقطًا مرتطمًا بأرضية البيت وهو يردد
- ألازلت تكذب يارجل ألا تتوب أبدًا؟
وناوله مخلص يده وأجلسه مرة أخرى ثم نهر عماد الدين على فعلته وقال للشيخ فضيلة.
- تجادلنا في قتلك واختلفنا على من يفعل.
وقاطعه الشيخ فضيلة في انهيار:
- أرجوك لا تفعل أرجوك لا تفعل أنا لا أستطع أن أموت الآن.

وردد رجل آخر ضاحكًا:
- مشغول أنت يا شيخ فضيلة في أمر ما نرسلك تفعله وترجع مرة أخرى.
- أنا لا أستطيع أن أموت الآن لا أستطيع.
وأخذ يرددها وكأن الجنون أصابه، فاقترب منه زيد وقد أزاحهم بيده فتراجعوا ونزل عند أذنه وقال له هامسًا:
- لا تخف يا شيخ فضيلة لن أدعهم يقتلوك.

فنظر له الشيخ فضيلة بخد مرتعش ولحية مبللة وجبهة ممتلئة بالعرق:
- فقط عليك أن تضحك حتى الصباح وأعتقد أن يد رجال خادع أرحم بك من يد هؤلاء الرجال، انظر إليهم انظر إلى أعينهم التي ينطلق منها الشرر مظالمهم كثيرة يا شيخ فضيلة ولن يترددوا لحظة في النيل منك.
ووافق الشيخ فضيلة على الفور وصلبوه في سوق القبيلة وقد ربطوا في ملابسه بعض ثمرات التفاح وعلقوا في رقبته مجموعة من التفاح التفت حول عنقه كسلسلة من التفاح وألصقوا به كلمات تقول: (من يأكل التفاح ففي الجنة يرتاح) وقد أخبروه أن رجلًا في مكان ما يتربص به سيطلق سهمًا سامًا نحوه إذا أغلق فمه عن الضحك للحظة وانطلقت ضحكات الشيخ فضيلة في أواخر الليل وحتى ساعات الصباح الأولى حين اجتمع الناس من حوله ينظرون إليه وأخذ يحاول بعضهم التسلق وأخذ التفاح الملتف حول عنقه وبملابسه ولأول مرة منذ زمن طويل ضحك الناس مجتمعين على الشيخ فضيلة ومنظره وضحكاته وجاء العسكر ووقفوا بين الناس وقد وقفوا يتفرجون على الشيخ فضيلة مثل باقي العباد حتى جاء قائد العسكر فانتبهوا واجتمعوا في صفوف مرتبة وصمت الناس إلا أن الشيخ فضيلة لم يصمت فأمر القائد فأنزله ولما أنزله هجم الناس عليه يختطفون التفاح من حوله وحاول العسكر أن يخلصوه من قبضتهم ولكنهم فشلوا ولقي الشيخ فضيلة بين فتات التفاح وتحت أقدام الناس مصرعه، ووصلت الأخبار إلى القصر فقلق خادع منها وما أحزنه كان ليس مقتل الشيخ فضيلة ولكن أن الناس قد ضحكوا وضحكوا مجتمعين فأصبح الأمر شبه مستحيل محاولة عقابهم لذلك تغاضى عن هذا الأمر وكان قد تسلم قيادة الجيش بنفسه بعد مكران فأُهمل الوضع الأمني مع حياة الطرف التي يحياها لذلك سلم قيادة الجيش لخشخاش وأمره بإيجاد من فعل بالشيخ فضيلة هذا الأمر وخاصة بعد أن نُقل له خبر انخفاض مبيعات حبات الضحك إلى النصف.
وبعد ثلاث ليالي كان جساس في خانة الضاحكين في قبيلة الرعاع مقيدًا في كرسي ويجلس في مواجهته مخلص وقد أخفى ملامحه وأشار بيده نحو الحانة والناس المتسامرون والذين يصدرون ضحكات كل فترة ويتحدثون مع بعضهم في سرور ومرح وقال:
- هذا ما عجزت عن الوصول إليه يا جساس هذه هي حانة الضاحكين الأولى وهناك حانات أخرى في كل المملكة قصدنا أن نأتي بك هنا لترى ما فشلت في إيجاده قبل أن تموت.
ولم تتغير ملامح جساس بعد ما سمع وظل باردًا بشكل يثير الشك واقترب عماد الدين منه لما رأى بروده وبغضب صفعه على وجهه وهو يردد:
- ما هذا البرود الذي يرتسم على وجهك أتعلم كم روح قتلت بسبب بصاصينك أتعلم كم ظلم ارتكب لأنك ورجالك وشيت بالناس الفقراء الضعفاء ألا تظهر ندمًا، يقول لك الرجل أنك ستُقتل ولا تخاف.
فقال في ثقة وغرور:

- أعلم أنكم لن تقتلوني فهناك رسالة ما تريدون إرسالها إلى خادع واختصارًا للوقت ولعلمي أنكم رتبتم كل شيء فأنا سأستمع لكل حرف تقولونه وكل ما تريدونه مني سأفعله مقابل حياتي.
وتأمله الجمع في تعجب وأردف زيد:
- رجل سياسة.
وقال مخلص:
- بل أخلاق بصاص.
ونظر جساس حوله وابتسم:
- أعترف أني فشلت ورجالي في اكتشاف أمركم وهذا اعتراف مني بهزيمتي وهذا المكان وغيره شاهد على هذا ولكن هذا النصر لن يدوم طويلًا.
وأراد عماد الدين أن يصفعه مرة أخرى ولكن مخلص نهاه عن ذلك:
- وصلب جساس بنفس طريقة الشيخ فضيلة في سوق قبيلة الرعاع بعد أن أخرجوه من الحانة معصوب العينين كما أدخلوه فيها وحمل ورقة مكتوب فيها (الواشي الأكبر) وظل يضحك كما أمروه حتى الصباح حين قدم البصاصون والعسكر وأنزلوه وحينما نزل توقف عن الضحك وركب حصانه بمفرده واتجه ناحية القصر ولما مثل أمام خادع كان قد وصله الأمر من أحد البصاصين التابعين للقصر وأخذ يرمق جساس في احتقار وهو يقول:
- أنت تستحق ما فعل بك فأنت السبب الرئيسي في ذلك، أنشأت لك ديوان كامل للبصاصين وتوسعت لك فيه وأغدقت عليك ورجالك بالأموال وأعطيتك ما طلبت وأكثر وفشلت طوال السنين في أن تحصل لي على معلومة واحدة حول مكان الحانات أو تقبض على رجل واحد من المتورطين في هذا الأمر.
وتنفس جساس الصعداء وقال بصوت واثق:
- مخلص أخو قاسم هو زعيم الضاحكين وهو الذي وراء كل شيء.
ذُهل خادع ولم ينبس واستطرد جساس:
- عرفته من صوته وهو يحدثني، طريقته وأسلوبه فأنا أعرف الجميع كما تعلم وقد قابلته وهو يعمل في سوق قبيلة الرعاع القديم قبل إنشاء الدكان الكبير وتأكدت أنه الزعيم من طريقة حديثه مع الناس هناك والآن الأمر في يدك يا مولاي مخلص لو تكلم سنقبض على جميع المتورطين في هذا الأمر وسينتهي إلى الأبد.

وفي الليل كان مخلص عائدًا من الحانة بمفرده حين خرج عليه جنود خادع وسحبوه نحو القصر في عربة يجرها خيل تشبه قضبان السجن الحديديه وخرج مخلص من المملكة دون أن يراه أحد وعندما مثل أمام خادع كان متماسكًا بشكل لا يصدق حتى أن خادع وحينما رآه للوهلة الأولى ظن أنه يرى صادق فتراجع في رعب قبل أن يتماسك مرة أخرى وكان خادع يعتقد أنه سيقابل مخلص الشاب الصغير الذي حاجه في اجتماع التنصيب منذ خمسة عشر عامًا ولكنه تفاجأ به، وفي أثناء صمت خادع وتفكيره في كيفية سؤال مخلص لمح مخلص شابين صغيرين في السن يقفان في خلسة وراء الباب المؤدي إلى داخل القصر وهما يرمقانه بعيون دامعة وقد عرفاه برغم مرور السنين وعرفهما وكيف لا وهم أبناء صادق وروحه تسري في روحهما ودمه في عروقهما وابتسم لهما وأومأ إليهما في ثقة ولما فرغ خادع أخذ يسأله عن الشباب الذين معه وعن أماكن حانات الضحك وكان مخلص يجبه بصمت وابتسامة مضيئة أشعلت النار في صدر خادع وأخذ يحاول أن يستخرج من مخلص أي شيء وكان يردد كل حين أنه يصبر عليه لهذا الحد لأجل أخيه ولكنه لن ينفعه أحد إذا بزغ الصباح دون أن يتحدث وتركه خادع جاثيًا ودخل إلى غرفته ليدعه يفكر في أمر قتله في الصباح إذا لم يتحدث وأمر له بطعام وشراب وحين هدأ القصر دخلا عليه فاضل ونور الدين يحملان الطعام والشراب الذي أمر خادع به وكانوا أكبر من عمره حين صادق أبوهما ولما تأملهما بكى بشدة وأثنى عليهما وعلى والدهما وأخبرهما أنه ومهما حصل له فلا يجب أن ييأسوا من روح العدل وتقلب الأيام وأوصاهما أن يظلا على عهود الحق حتى يأخذا انتقامهما ولا يتبدلا وإن جارت عليهما الدنيا ولما اطمأن أن أحدًا لا يراهم احتضنهما في وداع وأمرهما أن يذهبا عنه لكي لا يشك فيهما أحد ولما بزغ الصباح ولاح أقبل خادع ولم يكن قد تذوق النوم بعد وسأل مخلص أن يتحدث فأبي مخلص أن يفعل فقال خادع:

- أنت لم تدع لي طريقًا آخر أسلكه.

ونادى في خدمه أن يعدوا عربته وأخذ حرسه في كامل عدتهم وانطلق خادع في عربته وحرسه وخلفهم عربة السجن التي يقبع فيها مخلص وسارت العربتان في ربوع المملكة والناس ينظرون إليهم ويتبعانهم حتى توقفت العربة في سوق قبيلة الرعاع ونظر قاسم الذي كان في دكان خادع نحو العربتين ولم يتبين أخاه الذي كان مغطى الوجه وظل خادع في عربته في الظل يتابع تجمهر الناس وصياحهم والتف العسكر يطوقون المكان وانتشر البصاصون في كل مكان والتف الناس في حلقتهم المعتاده ولكن لم يسمح بوجودهم بجانب عربة الملك وفتحت عربة السجن وجر مخلص إلى منتصف الحلقة في صمت رهيب والسياف يحمل السيف ويقف في حرس عند رأس مخلص أما قاسم فكان لا يزال في الدكان جالسًا مع راضي يتحدثان وقال راضي مشيرًا ناحية السوق.

- ها هم نصبوا للحاوي ليلعب ألعابه السحرية يشير بسيفه يمينًا ويسارًا وإلى الأمام وإلى أعلى وإلى الأسفل فيخرج ثعبان الموت من مكانه وتتدحرج رؤوس الخلائق على الأرض.
ونظر قاسم ناحية السوق وأردف:
- انظر يا راضي انظر للخلق الملتفون حول نفسًا منهم لماذا لا يرون أنفسهم داخل واحدة من هذه الحلقات يومًا فيندفعون للشجاعة وقول الحق ويكسرون سيف الظالم.
- لقد سمعت مجموعة مجتمعة عند الساحة يتحسرون على أيام الملك السابق ويتمنون عودتها.
- كل الحق في قولهم فمهما بلغ الملك السابق في الجنون لم يصل لجنون خادع أبدًا ثم ماذا كان يفعله الملك السابق يجمع الضرائب ويقتل من لا يستطيع أن يدفع، أمامك عام كامل تستطيع جمع الأموال فيه ولو اجتمع الناس ووقفوا بجانب بعضهم لحل الأمر، إنما الآن فُنقتل لأجل الضحك وأصبح القتل لأجل الضرائب رفاهية ليست لأمثالنا من الرعاع.
تنهد راضي وقال:
- كلها مظالم وكلهم ظلمة.
وانتبه قاسم ناحية السوق فجأة وهو يتأمل ملامح الرجل الذي أجلسوه ليقوموا بتنفيذ حكم القتل فيه فعرفه فقام في شيء من الجنون مسرعًا طارحًا ما كان أمامه من أشياء على الأرض دون اكتراث وتبعه راضي متسائلًا عما يحدث ولما بلغ ناحية الحلقة حاول اختراقها ولكنه لم يستطع فتسلل بنظره ليتأكد من الشخص الجاثي ليعرف أنه مخلص فيزداد جنونه ويدور حول الحلقة وهو يصرخ ليدخل فأمسك راضي بيده فنظر له فأشار له ناحية خادع ولما رآه انطلق إليه في سرعة وهو يتعثر في الناس ولما وصل منعه الحرس وظل ينادي عليه وقد رفع خادع يده في الهواء لينزلها فيُقتل مخلص ولما لمحه خادع أمر رجاله أن يتركوه ودخل قاسم متلهفًا ناحية خادع وقال في تلعثم:
- ماذا تفعل يا خادع إنه أخي.
- الملك خادع يا رجل أنسيت مع من تتحدث؟
- إنه أخي بل إنه ولدي أتقتل ولدي يا خادع.
فتأمله خادع وتأمل وجنته الحمراء وعينيه الزائغتين وشفتيه المتحجرة ولم يكن رآه هكذا من قبل فاقترب منه وقال:
- أنا لا أستطيع أن أفعل له شيئًا لو تحدث، أخوك هو زعيم تنظيم الضاحكين وصاحب الفكرة وهو الذي أرق نومي لشهور بل وسنين كل ما عليه فعله أن يتحدث عن مكان الحانات وعن مكان أصحابه الآخرين فأتركه يعيش وذلك لخاطرك أنت يا قاسم.
فنظر قاسم لخادع وقال:
- أتركني أتحدث معه قليلًا وسأقنعه بأن يتحدث.
- حسنًا ولكن لوقت قصير.
وانطلق قاسم ناحية أخيه وما أن رآه حتى ابتسم له وقال:

- أهلًا بأخي يسرني أن تكون عيناك هي آخر ما أراه قبل الموت.
فتأمله قاسم بعيون دامعة ومال نحوه وجثا على ركبتيه مثله واحتضنه:
- لن تموت يا أخي ستعيش حياة طويلة وكيف تموت قبل أن أموت أنا فأنا أكبر منك بقرابة العشرين عامًا فقط عليك أن تخبرهم بما تعرف وسينتهي كل شيء.
فتغيرت ملامح مخلص وهو يقول في حزم غير قابل للتغيير:
- لن يحدث أبدًا كيف تأمرني أن أخون إخواني ووطني كيف تأمرني أن أنقذ روحي مقابل أرواح الآلاف يا أخي أتمنى أن ترجع عن أفكارك وأن تؤمن بأهمية ما يحدث فعمري لأجل الإيمان لا يساوي شيئًا.
ينفعل قاسم:
- أي إيمان؟!عن أي إيمان تتحدث ولأجل من؟ هؤلاء الرعاع إنهم واقفون يتفرجون على رقبتك حينما يطيحها السيف إنهم لا شيء، يستحقون ما يُفعل بهم فلا تخسر روحك لأجلهم.
- إنني لا أخسر روحي بلا مقابل يا أخي إنه مقابل كبير لا أحد يتصوره، انظر لهؤلاء الأطفال الذين حولك.
فالتف قاسم ينظر إلى مجموعة من الأطفال الذين ينظرون ببراءة لما يحدث.
- لهؤلاء صمدت وحاولت لسنين ولم أدع اليأس يتسلل إلى قلبي يومًا ولو لم يتغير هذا الجيل فلا شك أن الأجيال القادمة ستحكي عن أفكارنا التي متنا من أجلها وسيخرج من أصلاب هؤلاء من يؤمن بها ويعتنقها ولا بد لليل أن ينجلي يا أخي ويأتي النهار
وضائًا.

تأمله قاسم كثيرًا بعيون دامعة وقال بعد أن مسح دموعه وبشيء من الحزم:
- ولكنك روحي لا أستطيع أن أتحمل فراقك.
ربت مخلص على يده بيده المقيدة:
- تحمل يا أخي تحمل ولن يخذلك الله أبدًا.
- لا أستطيع سأخبر خادع بكل شيء مقابل روحك.
وهنا صرخ مخلص صرخة قوية وهو يرى أخاه يقف ماسحًا دموعه متجهًا ناحية خادع وانطلق مخلص يصرخ بكلمة (لا) بشدة حتى قال كلمة توقف قاسم حين سمعها
- أرجوك يا أبي لا تفعل أرجوك لا تخون.
والتفت إلى أخيه وقد اغرورقت عيناه بالدموع مرة أخرى ثم تحرك ناحية خادع ودخل إليه وبعينين يملأهما الأمل قال خادع:
- ماذا فعلت؟أقنعته أن يتحدث أليس كذلك؟
فصمت قاسم طويلًا حتى قال بصوت امتزج بالبكاء:
- أرجوك يا خادع بحق طفولتنا وأيامنا بحق الذكريات التي تحملها في قلبك وعقلك لي لا تقتل ولدي لا تقتل ابني افعل بي ما تريد ولكن لا تمس مخلص بسوء.
فقال خادع غاضبًا:
- أفهم من ذلك أنه رفض أن يتحدث...يا حراس.

وأخرج الحراس قاسم بالقوة فصرخ وهو يبتعد وسمع أناته وهو يترجى خادع وما لبس حتى أمر خادع فرفع السياف سيفه في الهواء وانتظر حتى ينزل خادع يده ونظر مخلص إلى زيد وعماد الدين اللذين كانا واقفين بجانب بعضهما وأومأ إليهما بابتسامة وهنا أنزل خادع يده فنزل السيف على رقبة مخلص ففصلها عن الجسد
وانطلق خادع في حرسه عائدًا إلى القصر واندفع قاسم نحو أخيه وحمل رأسه وجسده نحو صدره وجلس يبكيه وقد وقف راضي عند رأسه تتساقط منه الدموع وانسحب زيد وعماد الدين وهما يبكيان مخافة أن يعرفهما البصاصون أما قاسم فقد ذهب عقله هذه الليلة وظل يبكي وقد فقد وقاره كله وأخذ ينظر لجسد أخيه الذي أغرق ملابسه كلها بالدم تارة يضحك وتارة يبتسم وتارة يبكي وقد أمر خشخاش رجاله أن يتركوه ولا يقربه أحد إلى أن يرحل بمفرده وقبل غياب الشمس سار قاسم وراضي والعديد من الشباب ورجال القبيلة والقبائل المجاورة نحو المقابر حاملين جثمان مخلص في مشهد يشبه مشهد صادق إلى حد كبير ودفن مخلص بجانب صادق كما أوصى زملاءه وحينما أخبروا أخاه لم يعترض وتركهم يدفنونه كما رغب.

وعندما رجع خادع إلى قصره ومعه خشخاش طلب الخمر فأتي بها واحد من الخدم ووضعها أمامه وجلس خادع على الأرض دون حساب لوقاره أمام خدمه وأمام خشخاش وجلس يحتسي الخمربكثرة كأسًا تلو الآخر حتى كاد يغيب عن الوعي وقال لخشخاش وهو في سكرته:
- لا أدري يا خشخاش من قتلت اليوم قاسم أم أخاه .
وارتشف كأسًا آخر واستطرد:
- لم أرَ قاسم هكذا في حياته وهو صديقي منذ أربعين عامًا أو يزيد ولكني اضطررت أن أفعل فبعد كل ما فعلت من شرور وبعد كل التضحيات لأجل هذا الكرسي يأتي اليوم الذي يطاح بي فيه لأجل أناس يضحكون هزلت إن حدث ذلك.
لن أتورع في قتل كل من يتنفس لكي أبقى هنا فأمثالنا هذا هو منتهاهم ونصيبهم وما هو آت لا أحد يدري عنه شيئًا.
وحمله خشخاش إلى غرفته فغرق في النوم على الفور وقبل أن يغادر رمقه خشخاش بنظرة غاضبة وغادر.

أما في القبيلة فلم يعد هناك كلام للناس إلا عن مخلص وقاسم آخر ضحايا خادع وازداد كره خادع في نفوس الناس وتذكر بعضهم أيام الملك السابق في تحسر على الأيام التي كانوا يعيشونها حين ذاك وشكر بعضهم في الملك السابق وحكمته ورجاله وتمنوا لو تعود تلك الأيام ولن يتحركوا حينئذ أو يرفضوا أي شيء وردد بعضهم كلمات حول الأمان وحرية الحركة وحرية التجارة أيام الملك السابق وأراضيهم التي كانت بين أيديهم والتي كانوا يزرعونها ويحصدونها.

بل وصل الأمر بأحدهم أن قال إن الذين كانوا يقتلهم الملك السابق لعدم قدرتهم على دفع الضرائب هم مجرد كسالى ينامون طوال العام ويصرخون مستغيثين حين تأتي أيام جمع الضرائب وبرروا الضرائب الكثيرة التي كان يفرضها الملك لاتساع رقعة المملكة وكثرة الناس فكان يجب أن يجمع الملك كل تلك الضرائب ليستطيع أن يحمي الناس ويعين المحتاج وبدأ بعضهم يخترع مواقف لم تحدث للملك الرحيم على حد قولهم وبطولاته في معاركه التي خاضها مع أعداء المملكة في الخارج وأعداء المملكة المتربصين بها من الدخل وقالوا إنه حافظ على القبائل الأربعة وعلى المملكة كلها طوال سنين حكمه ومن سبقه من أبائه الملوك.

أما قاسم فطال صمته وكاد أن ينتهي وكان الناس يواسونه ولا يضع عينه في عين واحد منهم بل يمد يده بالسلام ولا يكاد يفعل حتى يجلس مرة أخرى في صمت تام وزاره راضي مرة بعد أن غاب عنه لعدة أيام وجلس بجانبه يحاول أن يتحدث معه

- ألن تقف على قدميك يا قاسم لقد طال انتظاري لك يا صديقي قل لي كلمة اجعلني اطمئن عليك، إن أخاك مخلص كان مخلصًا بحق ويجب أن تفتخر به ولتعلم يا أخي أني وبعد مرور كل هذا العمر تأكد لي بما لا يدع مجالًا للشك أنهم هم من كانوا على حق ولسنا نحن، الصامتون يا قاسم ألعن من الظلمة فهم وقود نارهم التي تضرم في الناس، كان يجب أن نفهم ذلك من أول يوم منذ أن خلق لنا الله عقولًا وقلوبًا

وتساقطت دموع قاسم وقد انفرجت شفتاه وقال بصوت هامس

- نعم لم أفهم ذلك إلا بعد فوات الأوان.

ففرح راضي بكلام قاسم وقال في حماس:

- أخرج الآن لترى الناس لا يتحدثون إلا عن البطل المغوار الذي وقف لصادق وتحمل ولم ينبس بأسماء زملائه في الكفاح ربما كان مخلص على حق فشرارة تتقد على بعد ميل ستشعل الحريق هنا في يوم من الأيام.

ونظر قاسم لراضي وأومأ برأسه:

- طبت يا مخلص وطاب صادق ولُعن الصامتون إلى الأبد.
- نعم العن الصامتون إلى الأبد ولكن لا تنسَ أننا كنا منهم.
- وهذا ما يؤرقني.
- المهم ما أنت عليه الآن وليس ما كنت عليه أمس.
- سنحتاج لتضحيات أخرى نقدمها لكي نعوض ما فاتنا.

- سنفعل إن شاء الله.
وصمتا برهة وهما يرمقان بعضهما وقال راضي في أسف وهو ينظر في عيني قاسم.
- مريم ماتت أمس.
فنظر له قاسم بعينين غير مصدقتين:
- أحقًا؟
- نعم ولا داعي أن أخبرك كيف ماتت فمن المؤكد أنك تتوقع ذلك.
وبدت على وجه قاسم ابتسامة خفيفة وهو يربت على كتف راضي مواسيًا له، فقال راضي:
- أتظنني حزينًا، لا لست كذلك ولستُ سعيدًا أيضًا بموتها فمريم تاريخ في حياتي السابقة بحلوها ومرها وفي الحقيقة لقد تركت عندي فراغًا مميتًا.
- رحمها الله يا راضي ولكن حقًا كيف ماتت؟
فنظر له راضي وتبادلا الابتسام.

وهنا سمعا ضربات على الباب ولما فتح راضي دخل زيد وسلم على قاسم وجلس بينهما لبرهة ثم قال:
- أعلم أنك لست في مزاج جيد للحديث ولكن هناك أمر هام يجب أن تعرفه.
وكان قاسم مطأطأ الرأس فرفع رأسه وقال:
- تفضل يا ثائر فأنت صديق لمخلص وقد رأيتك معه منذ دخلت إلى المملكة في كل مكان يبدو أنه كان يحبك.
ونظر زيد لراضي ففهم راضي أنه يجب أن يغادر وقال:
- سأذهب أنا لأبدأ فيما قلت لك عنه يا قاسم وأدعو الله أن يعينك على ما هو قادم
ورحل راضي وأغلق الباب من خلفه فقال زيد مباشرة دون انتظار:
- أنا لست ثائر كما تعلم بل أنا شخص من الماضي خرج في الليل متخفيًا من هذه البلاد معك ومخلص؛ أنا زيد.
وظهرت المفاجأة على وجه قاسم وقال:
- زيد جدتك زينب أليس كذلك؟
- نعم ولقد جئت إلى هنا لأتأكد أن خادع قتل جدتي ودفنها في الصحراء.
- وهل كان هناك شك في ذلك كنت أعلم وصمتّ ودفعت ثمن صمتي أغلى ما أملك.
- وأنا جئتك اليوم لكي تريح قلبك وتنتقم من خادع، لابد أن ينتهي خادع وللأبد لابد أن نقتله.
راقت الفكرة لقاسم وتشجع على ذلك وبرغم أن الفكرة كانت تدور في خلده منذ أن قتل أخاه إلا أن زيد جاء وأنارها بداخله وأكد عليها.
- وهل تعتقد أني يشغلني شيء آخر غير ذلك؟ولكن كيف؟
- هذا ما جئت لك من أجله، لقد علمت أنك الوحيد في المملكة كلها دون العسكر ورجال خادع الذي تستطيع أن تخرج وتدخل دون أن يوقفك أحد.
- هذا صحيح ولكن في النهار فقط لم يسبق لي أن خرجت في الليل.

- ونحن لا نرغب إلا في الخروج من البوابات وحينها سننتظر أنا وأنت في الصحراء حتى الليل ونتسلل إلى قصر خادع.
- ولكن القصر مدجج بالحرس والبصاصين ولن نستطيع اختراقه هذا مستحيل.
- أتتذكر أبناء صادق الذين رحلوا معنا؟
- نعم أتذكرهم جيدًا كانوا صغارًا وهم راحلون أتعلم عنهم شيئًا؟
- هم الآن في قصر خادع ينتظروننا وأعتقد أننا بمساعدتهم سنستطيع أن ندخل إلى القصر وقد لا نخرج منه هذا وارد.
- ليس المهم أن نخرج المهم أن ينتهي الظلم بانتهاء خادع.
وردد قاسم في نفسه لقد استفقت متأخرًا يا قاسم لولا فعلت منذ سنين لكان مخلص لا يزل على ظهر الدنيا الآن.

وقبل غروب شمس اليوم التالي قاد قاسم حماره ومعه زيد كما دخلا المملكة أول مرة مع بعضهما ولما تقدم عند البوابة ولمح الجنود قاسم فتحوا له البوابة على الفور وخرج قاسم من البوابة بحماره إلى الصحراء متجهًا ناحية القصر ولما غاب عن الجنود انعرجج إلى الصحراء وجلس وزيد ينتظران الليل أن يقبل وأقبل الليل برهبته ووحشته ولكن صدريهما كانا منتشيان بنشوة الشجاعة وجلس قاسم على عربته ينظر للسماء وطال صمته وهو ينظر للسماء مبتسمًا ثم قال:
- الآن عرفت يا مخلص حلاوة الإيمان الآن عرفت حلاوة أن تهب نفسك لقيم وتضحي بها لأجل الحرية التي ستنساب بدمائك فتسقي الناس.
ورمقه زيد:
- كل منا له انتقام خاص فأنا أنتقم لمقتل جدتي وصادق ومخلص وأنت تنتقم لمقتل أخيك وولدا صادق ينتقمان لمقتل أبيهم.
- هذا صحيح ولكني أفعل ذلك لا لأنتقم لمقتل مخلص فقط بل لأحاول أن أحقق له أهدافه وما رغب فيه وإن لم نستطع أن نفعل وقتلنا قبل أن نفعل فسأكون سعيدًا أيضًا وكلي ثقة أن رجالًا سيخرجون ويعدّلوا الموازين في يوم ما.
ابتسم زيد وقال:
- الرجال يعدون العدة الليلة لاختطاف أحد رجال خادع فهم على الطريق للنهاية
وقبل أن يتحركا ناحية القصر قال قاسم:
- اللهم اهدِ الرعاع واجعلهم يصرخون بكلمة لا دون خوف.
ولما اقتربا من القصر ترك قاسم العربة وفك قيود حماره وتركه يرحل وهو يقول.
- لم تعد لي حاجة إليك يا صديقي ارحل أنت معتوق من مصاحبة عجوز لطالما ظلمك بأثقاله.
ولما حاول قاسم أن يدخل منعه زيد والتف خلف القصر عند نافذة معينة عرفها زيد وكان قد اتفق مع نور الدين وفاضل أن يطلا كل ليلة حين يوشك الفجر أن يبزغ حتى يجداهما وكانا يفعلان ذلك كل ليلة منذ أن دخل زيد إلى المملكة وانتظرا قاسم وزيد قليلًا حتى طل نور الدين من النافذة فوجدهما فتهللت أساريره والتفت يخبر أخاه وبعد مرور وقت قصير فتح باب خلفي دخل منه قاسم وزيد واحتضنوا بعضهم في فرح

وأخرج زيد أربعة خناجر كان قد أعدها لهذا اليوم وقال لقاسم إن الخنجر الرابع كان لمخلص وسأل زيد عن مكان مبيت خادع وتسللا إلى الغرفة بهدوء وكان القصر هادئًا ولما وقف أمام الغرفة ظهر خشخاش فجأة في عسكره أمامهم وظهرت الصدمة عليهم ولكن خشخشاش أشار لجنوده فرجعوا للخلف وقال بصوت هامس:
- افعلوا ماجئتم من أجله.
ولم يصدقوا ما فعل خشخشاش ولم يكن هناك وقت للتفكير فدفع زيد باب الغرفة المظلمة ليتسلل النور إلى عيني خادع وحسناء فأيقظهما وأشار زيد لحسناء أن ترحل فلملمت ملابسها وخرجت وسط ذهول أصاب خادع بصمت مطبق وأغلق قاسم الباب من خلفه ووقفوا الأربعة متراصين ينظرون لخادع ولما خرجت حسناء وجدت خشخاش والجنود واقفون فأمرت الجنود بانقاذ زوجها إلا أن أحدهم لم يحرك ساكنًا وأشار لها خشخشاش أن تصمت وقام خادع من سريره ولم يكن قد فاق من المفاجأة بعد وأخذ يتراجع للخلف حتى اصطدم بالجدار فنادى على حرسه في فزع عدة مرات ولكن لم يجبه أحد فأخذ يردد في تلعثم ولم يكن قد تبين أحدًا بعد.
- كنت أعلم أن هذا اليوم آت أت ولكني كنت أتساءل دومًا ترى من الذي سيفعل وينتقم؟ فهم كثر ويأست من عدهم بعد فترة معينة ولما اقترب قاسم منه وتبينه لم يصدق واستطرد:
- قاسم أخي لقد آلمتك يا صديقي وإني والله لفرح بأن نهايتي ستكون على يدك أنت فنظرة عينيك الراجية لي عند الساحة تقتلني منذ يومها، ومن معك أيضًا؟
فقال قاسم:
- زيد حفيد خادمتك زينب أتتذكرها؟
- آه يا زيد لقد جئت من الماضي ليتك جئت منذ زمن.
قال قاسم:
- كنت تريده أن يقتلك منذ زمن.
فابتسم خادع:
- ولمَ لا كم نفس كانت سترحم من قبضة سيفي لو فعل وعسى إن كان فعل وقتها فلربما كانت أبواب السماء فتحت ولو بصيصًا صغيرًا من نورها أمامي أما الآن فأرها مظلمة كعتمة لم يسبق إنسان أن رآها.
واستطرد:
- ومن أيضًا معك؟
- معي نور الدين وفاضل ابنا صادق.
وضحك خادع ضحكة هادئة:
- لقد بحثت عنكما تخوفًا من هذا اليوم ولكني لم أجدكما وعلمت حينها أنك أخرجتهما فتركتكما.
وقال قاسم:
- يبدو أننا متشابهون في أشياء كثيرة يا خادع.
- يبدو ذلك ترى كم طعنة تكفي لقتلي يا قاسم مائة طعنة ألف طعنة أم آلاف آلاف الطعنات؟

فقال قاسم:
- طعناتك أخذتها في صدرك يوم ظلمت الناس طعناتك في صدورهم وفي رقابهم هي طعنات فيك أنت إن كنت تعلم.
- هذا كلام صحيح ولكن هل ستطعنني أنت الآخر يا قاسم.
فصمت قاسم قليلًا ثم قال:
- لا لن أفعل يا خادع أنا لا أستحق أن أطعنك فأنا مثلك ولكن بطريقة أخرى وربما يجب أن أُطعن أنا الآخر.
ومرت لحظات صمت حتى هجم زيد ونور الدين وفاضل على خادع يطعنونه طعنات متلاحقة حتى خر قتيلًا ولم يقترب قاسم منه بل أعطى خنجر مخلص لزيد وأمره أن يقتلع رأسه كما فعل في أخيه ودخل زيد وفعل ذلك وحمل الرأس في يده وقد سال الدم فأغرق الغرفة بحريرها وستائرها الذهبية وخرج قاسم أولًا وتبعه زيد ونور الدين وفاضل ولما رأت حسناء رأس خادع صرخت وخرت فاقدة للوعي وكان خشخاش لا يزال في عسكره فأردف بشيء من الحزم:
- احملا الرأس إلى شعب المملكة العظيم وأخبروهم أن الملك خشخشاش أمر بإلغاء قانون الضحك الأخرق وإخراج من في سجون الطاغية.

وحملت الرأس إلى الشعب فخرجوا إلى الشوارع مهللين بنصرهم ودار المنادون ينادون في الناس بإلغاء القوانين التي فرضها خادع وعودة العمل بالنظام القديم أيام الملك السابق وظلوا يهتفون باسم الملك خشخشاش لأيام وقال أحدهم بصوت تكرر صداه في الناس:
- هكذا يكون الملوك رجل من رجال الملك السابق له خبرة وباع في الحكم وليس واحدًا من الرعاع الذين لا يفقهون شيئًا عن الحكم، عاش الملك خشخاش.
وردد الناس من خلفه عاش الملك خشخشاش.
تمت.